قام الطالب بالتصحيح المطلوب

الدكتور فاروق أحمد الدسوقي الدكتور محمود أحمد خفاجي الدكتور عبد الله بن عمر الدميجي

المملكة العربية السعودية
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدراسات العليا
فرع العقيدة

٢٦/٨/١٤١٤

عبد الله بن كلاب

وآراؤه الاعتقادية في ضوء عقيدة السلف

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في العقيدة الإسلامية

إعداد الطالب
سالم وهبي سابجاقلي

إشراف الدكتور
فاروق أحمد الدسوقي

١٤١٢هـ / ١٩٩٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة الماجستير المقدمة من الطالب : سالم وهبي سانجاقلي
بعنوان (عبد الله بن كلاب وآراؤه الإعتقادية في ضوء عقيدة السلف)

- تتضمن الرسالة مقدمة وأحد عشر فصلاً وخاتمة .
- يتناول الأول منها عصر عبد الله بن كلاب سياسيًا وإجتماعيًا وعلميًا حيث ثبت لنا فساد الحالة الإجتماعية بخلاف الحالة السياسية والعلمية .
- وكان موضوع الفصل الثاني حياة ابن كلاب ومدرسته ، حيث برزت لنا شخصية ابن كلاب وقوته في إظهار الحق وجهوده القيمة في الرد على المخالفين .
- أما موضوع الفصل الثالث : فهو : مذهبه في أسماء الله الحسنى في ضوء عقيدة السلف وقد تبين أنه يتفق مع السلف فيما يتعلق بأسماء الله الحسنى من حيث إثباتها وصلتها بالصفات وعدم القول بحصرها .
- وتناول الفصل الرابع مذهب ابن كلاب في الصفات الذاتية ، وقد ثبت أنه يتفق أيضًا مع السلف من حيث إثباتها ، مع إختلافه معهم في بعض المسائل الفرعية المتعلقة بها .
- أما مذهبه في صفات الأفعال الذي هو موضوع الفصل الخامس فقد ثبت أنه يخالف السلف في هذه المسألة ، متفقًا مع المعتزلة فيها ، منعًا للقول بحلول الحوادث بذاته عز وجل .
- وخصصت الفصل السادس لمذهب ابن كلاب في الصفات الخبرية التي وافق فيها السلف ، فأثبت لله عز وجل اليدين والوجه والعين والعلو والإستواء ، وأجاد دحض حجج المخالفين والنفاة .
- وكان موضوع الفصل السابع مذهبه في الكلام الإلهي حيث وجدناه مختلفًا مع السلف في جميع ما يتعلق به فكان أو من قال بأن القرآن قديم ، وأنه بدون حرف وصوت ، وأنه معنى واحد ، ومع هذا فإنه مع السلف في الرد على من قال بخلق القرآن .
- أما الفصل الثامن فبحثت فيه مذهب ابن كلاب في أفعال العباد ومسائل القدر ، حيث يتفق ابن كلاب مع السلف في مسائل القضاء والقدر ، ويثبت عموم إرادة الله تعالى وأن الله خالق لأفعال عباده .
- أما مسألة رؤية الله تعالى في الآخرة فقد تم بحثها في الفصل التاسع وثبت أنه يوافق السلف في إثبات رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة وفي الرد على الخصوم النافين لها .
- أما مذهبه في الإيمان الذي كان موضوع الفصل العاشر فقد تبين لنا أن ابن كلاب خالف طريق السلف في مسائل الإيمان ، واختار في ذلك طريق المتكلمين حيث جعل حقيقة الإيمان هو الإقرار والتصديق فقط ، ولم يدخل العمل في حقيقته ، كما لم يقل بزيادته ونقصانه .
- أما الفصل الحادي عشر والأخير فبحثت فيه قضية مرتكب الكبيرة عنده ، وانتهى البحث إلى أنه يوافق السلف في مسائلها .
- وهكذا تضمن البحث عرضًا كاملاً لمذهبه ، مستخلصًا من بطون كتب علم الكلام والفرق والتاريخ وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله .
- وهذه النتائج تثبت أن مذهب الأشعري في أصوله وآرائه الإعتقادية وأقواله الرئيسية مسبوق بالكلابية .
- وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .

الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
سالم وهبي سانجاقلي	د / فاروق أحمد الدسوقي	د / علي بن نفيع العلياني

١٤١٤/٨/٦

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد الأنام سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ، وبعد :

فلا يسعني الا أن أتقدم بجزيل شكرى وعظيم امتنانى لكل من أسدى الى عونا أو سهل لى صعبا ، وأخص بالذكر فضيلة أستاذى الدكتور فاروق أحمد الدسوقى ، المشرف على اعداد هذا البحث ، لما ابداه من صبر كثير وجهد مشكور فى اعداد هذه الرسالة ، ولما أولانى به من عناية ورعاية أبوية ، وفتح لى صدره وباب بيته ، على الرغم من كثرة أعبائه العلمية ، وكان لملاحظاته الصائبة ومقترحاته القيمة وارشاداته الموجهة الأثر الكبير فى ظهور هذا البحث الى حيز الوجود وبهذا الشكل ، فجزاه الله عنى وعن طلبة العلم أحسن الجزاء .

كما أتقدم بشكرى وتقديرى لجميع العاملين والمنتسبين فى جامعة أم القرى ، وأخص منهم بالذكر مديرها معالى الدكتور راشد الراجح ، وعميد كلية الدعوة وأصول الدين الدكتور على بن نفيع العليانى ، ووكيله الدكتور أحمد الزهرانى ، ورئيس قسم العقيدة الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحوالى ، على ما يبذلونه من خدمات صادقة لأبنائهم الطلاب .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم الى يوم الدين ، وبعد :

فان من نعم الله على هذه الأمة أن أرسل فيها النبى المختار – صلى الله عليه وسلم – ، وأنزل عليه الكتاب الكريم الهادى الى صراط الله المستقيم ، وأكمل لها الدين ، وأتم عليها النعمة ، وما قبض الله رسوله اليه الا وقد ترك أمته على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعده الا هالك .(١)

قال عليه الصلاة والسلام : (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما مسكتم بهما : كتاب الله وسنة نبيه) .(٢)

وذلك ليتبعوهما ويعملوا بهما ويرجعوا اليهما تحقيقا لقوله تعالى : ((فان تنازعتم فى شيئ فردوه الى الله والرسول ...)) .(٣)

---

(١) سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، المقدمة ، باب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (جـ ١ ، ص ٤) ، وباب اتباع سنة خلفاء الراشدين المهديين ، (جـ ١ ، ص ١٦) .
والسنة لابن أبى عاصم ، تحقيق الألبانى (١/٢٦ – ٢٧) .

(٢) رواه الامام مالك مرسلا فى الموطأ ، كتاب القدر ، باب النهى عن القول بالقدر (٢/٨٩٩) ، (ط . دار احياء الكتب العربية ، بتحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى) ، وأخرج الحاكم نحوه فى المستدرك من حديث ابن عباس رضى الله عنهما (١/٩٣) ، (ط. المطبوعات الاسلامية بحلب) ، وانظر: مشكاة المصابيح للخطيب التبريزى (١/٦٦) ، (ط. المكتب الاسلامى ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، بتحقيق : محمد ناصر الدين الألبانى) ، وجاء فى صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب حجة النبى (٢/٨٩٠) بدون " سنتى " .

(٣) سورة النساء (٥٩) .

وعلى هذا النهج سار سلف الأمة ، فكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يأخذون عقيدتهم وأخلاقهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحياته هى الاسلام ، وخلقه هو القرآن ، وقد نزل القرآن بلغتهم ، ففهموا ما أراد الله منهم ، وما احتاج الى بيان بينه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنته ، وبقى الأمر على ذلك ، وقد خلف هذا الجيل جيل التابعين الذين كانوا خير خلف لخير سلف ، ورثوا الكتاب والسنة ، وساروا على هدى النبوة .

وقد كان الصحابة والتابعون يجاهدون فى سبيل الله ، لاعلاء كلمته ونشر دينه ، وتم لهم فتح كثير من البلدان والأقاليم ، ودخل معظم أبناء هذه البلاد فى دين الاسلام عن طواعية واختيار ، وكانت هذه الأقاليم المفتوحة مليئة بالديانات والمذاهب المختلفة ، وكان دخول الاسلام فيها كاشفاً لباطل هذه المذاهب والديانات ، مما أثار بغض أصحاب القلوب المريضة من أهل هذه البلاد للاسلام وأهله ، فدخلوا فيه ومعهم معتقداتهم الباطلة ، وقاموا بنشرها بين صفوف المسلمين بالخداع والتمويه ، وبشتى أساليب النفاق .

فظهرت الفرق الكلامية ، كما برز دعاة الباطنية ، وأرادوا القضاء على دين الاسلام وأهله ، ونشأ بسبب ذلك الاختلاف والتفرق بين صفوف الأمة ، وكثر الجدل فى المسائل الاعتقادية ، كالكلام فى القدر والصحابة ومرتكب الكبيرة والذات الالهية وما ينبغى لها من الصفات ، .... الخ .

ومن الفرق التى برزت فى هذا الوقت الجهمية المعطلة لأسماء الله وصفاته ، ثم خرجت المعتزلة الذين استبدوا فى بعض المسائل بالرأى والهوى دون نصوص الوحى والهدى، وكذلك الخوارج والشيعة والمرجئة .

ونتيجة لذلك بدأ الصراع بين الحق والباطل يشق طريقه بين صفوف المسلمين ، ومع مرور الأيام وانقضاء السنوات ازداد شدة ، حتى بلغ ذروته فى

أيام الامام أحمد أكثر من ذى قبل ، حيث تمكنت المعتزلة من اقناع بعض الخلفاء العباسيين بمذهبهم ودعوتهم ، وحمل الناس على القول بخلق القرآن بالقوة ، وذلك فى عهد المأمون والمعتصم والواثق .

فامتحنوا العلماء فى ذلك وآذوهم فى أبدانهم ، وصمد الامام أحمد رحمه الله لهذه المحنة ، وجادل المعتزلة ودحض شبههم ، وصبر على السجن والتعذيب ، حتى آذن الله بنصر السنة وقمع البدعة ، حين تسلم المتوكل زمام الحكم ، فأحيا الله به مذهب أهل السنة ، وعلت راية الحق ، وابتدأ نشاط الدعوة بالعودة الى العقيدة الصحيحة ، عقيدة السلف رضوان الله عليهم أجمعين من جديد ، قبل أن تغطى عليها المفاهيم الفلسفية والمجادلات الكلامية .

وقد قيض الله سبحانه وتعالى للأمة الاسلامية علماء مخلصين ، حفظوا عقيدة الأمة ، وحرسوها باخلاص ، وردوا بقوة وحزم على من خالفها أو عارضها ، معتمدين فى ذلك على الأدلة النقلية من الكتاب والسنة ، والآثار المروية عن أهل العلم من الصحابة والتابعين ، والأدلة العقلية المستنبطة من الأدلة الشرعية .

وقد كان الامام عبد الله بن كلاب أحد هؤلاء العلماء المخلصين الذين تصدوا للمعتزلة والفرق المخالفة فى المسائل الاعتقادية .

وقد صنف لذلك مصنفات فى المسائل الخلافية ، ورد على شبه الخصوم ، وكشف للناس ما عمل فيها أصحاب الفرق الضالة من شبهات ، واعتمد على دلالة الآيات والأحاديث ، ودلالة صريح المعقول الذى لا يخالف صحيح المنقول ،واقتفى لأثر علماء السلف فى الاثبات ،وان خالفهم فى بعض المسائل .

ولا شك : أن لهذا الامام مكانته الهامة باعتبار أحد الذين تصدوا بقوة للمعتزلة وغيرهم الذين انحرفوا بمفاهيم العقيدة عن منهج السلف .

وقد رأيت أن يكون موضوع بحثي للماجستير هو : (عبد الله بن كلاب، آراؤه الاعتقادية في ضوء عقيدة السلف) .

وذلك للأسباب الآتية :

١ ــ يعتبر عبد الله بن سعيد بن كلاب من أوائل المتكلمين الذين انبروا للدفاع عن العقيدة ، لما له من مساهمات في الرد على المنحرفين ذات أهمية كبيرة ، ولما له من مكانة علمية خاصة في هذا المجال ، اذ يعد من أوائل المثبتين الذين استخدموا المنهج العقلي في الرد على النفاة .

٢ ــ ولأنني قد رأيت كثيرا من أئمة السلف كابن تيمية وغيره ، يمدحونه مدحا عظيما ، ويثنون عليه وعلى موقفه الحازم من أهل البدع والضلال ، ويعتبرونه من حذاق المثبتة ، ومن أعظم أهل الاثبات للصفات والعلو والفوقية ، ومن أقرب الناس الى السلف ، في كثير من المواطن من مؤلفاتهم .

٣ ــ كما رأيت أن ابن كلاب قد تعرض للذم والنقد من قبل بعض علماء السلف الآخرين ، مثل الامام أحمد وابن خزيمة ، حيث كانوا يشددون عليه وعلى أصحابه ، لما يخالفونهم في بعض مسائل العقيدة .

فأردت أن أكشف النقاب عن عقيدته ، وأعرض مذهبه بكامله ، وأعالج هذا الموضوع ، لكي يتبين مدى موافقة ابن كلاب لمنهج السلف في معتقدهم ، أو مخالفته لهم ، ومدى قربه منهم أو بعده عنهم في أصولهم .

٤ ــ يعتبر ابن كلاب المؤسس الحقيقي للمذهب الذي اشتهر وذاع بعد ذلك ، وهو مذهب الأشاعرة ، حيث سيجد القارئ أن أكثر آراء الأشاعرة كلابية .

ولتوضيح هذه الحقائق تولدت الرغبة في نفسي أن أكتب عن ابن كلاب ومدرسته ، وعن مذهبه وجهوده في دفاعه عن عقيدة أهل السنة في عصره .

فاستخرت ربى عز وجل ، واخترت هذا الموضوع ، على ما فيه من صعوبة ، وتوكلت على الله سبحانه وتعالى ، وشرعت بالبحث عن آرائه المبثوثة فى بطون أمهات الكتب ، لأن جميع مؤلفات ابن كلاب مفقودة للأسف ، لم يصل شيئ منها الينا ، ولا نعرف شيئا عنها غير ما ذكره أو نقله عنه بعض العلماء .

ولا شك : أن هذا يعتبر من أشد الصعوبات التى تواجه الباحث ، اذ يضطر لقراءة الكثير للحصول على القليل من مادة بحثه .

وقد كان جل اعتمادى فى هذا البحث على كتب الكلام والفرق ، وأخص منها : مقالات الاسلاميين لأبى الحسن الأشعرى ، وأصول الدين والفرق بين الفرق للبغدادى ، والملل والنحل للشهرستانى ، وأمثالها من كتب المتكلمين ، لأنها أقدم كتب بين أيدينا فيها ذكر آراء ابن كلاب لمسائل العقيدة .

ثم مؤلفات شيخ الاسلام ابن تيمية ، فانها حفظت الكثير من آرائه ، وقدمت تفسيرا هاما لها ، علاوة على أن شيخ الاسلام ابن تيمية كان مؤرخا ممتازا لآراء الكلابية ، أمينا فى نقلها ومناقشتها .

وقد استفدت كثيرا من كتاب درء تعارض العقل والنقل ومنهاج السنة ومجموع فتاويه وغيرها من كتبه التى احتوت على معلومات ونصوص هامة عن ابن كلاب ومذهبه .

ولكى يكتمل مذهب ابن كلاب : أضفت الى آرائه آراء صاحبيه المحاسبى والقلانسى الاعتقادية ، نظرا لأنهما أبرز أعلام الكلابية وأشهر أصحاب ابن كلاب فى ذلك الوقت .

وهكذا صار البحث يتحدث فى عمومه عن ابن كلاب ، وان لم يهمل أقوال أعلام المدرسة الكلابية كالمحاسبى والقلانسى .

وأما الصعوبات التى واجهتنى فى هذا البحث فهى :

١ ـ قلة المادة والمصادر الخاصة بابن كلاب والقلانسى والمحاسبى ، وضياع جميع مؤلفات ابن كلاب التى ألفها فى العقيدة ، ولكنى تغلبت بعون الله تعالى وقوته على هذه الصعوبة بالرجوع الى كتب الكلام والفرق ، واستيفاء ما غاب من آرائه من ردود السلف عليه ، وخاصة كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم .

أما بالنسبة للمصادر الحديثة فلم يشر الى أهمية الكلابية الا قليلون ، منهم الدكتور على سامى النشار ،(١) والدكتور مصطفى حلمى ،(٢) والدكتور حسين القوتلى ،(٣) والدكتور جلال محمد موسى ،(٤) وقام الدكتور حسن محرم الحوينى فى رسالته الدكتوراه ببحث بعنوان : " الكلابية وأثرها فى المدرسة الأشعرية " ، ولكنه لم ينشرها حتى الآن ، وسأعرض لها فى نهاية المقدمة .

٢ ـ ايجاز عبارات أئمة الكلابية فى المسائل الاعتقادية اذ كانوا يفيدون بكلمات قليلة عن معانى كثيرة ، كما هو شأن علماء عصرهم .

٣ ـ استخدامهم عبارات كلامية دقيقة ، وغموض بعض هذه الكلمات على قارئها .

وقد حاولت التغلب على هذه الصعوبات مستعينا بحول الله وقوته أولا وآخرا ، ثم بإرشادات فضيلة أستاذى الدكتور فاروق الدسوقى حفظه الله ، وتوجيهاته السديدة التى انتفعت منها كثيرا فى بحثى ، وأرجو أن أكون قد وفقت ، فاننى أحمد الله سبحانه وتعالى على ما أمدنى به من عون وتوفيق فى اعداد هذا البحث .

---

(١) انظر : نشأة الفكر الفلسفى (جـ ١ / من ص ٢٦٥ - الى ص ٢٨٥) .

(٢) انظر : منهج علماء الحديث والسنة فى أصول الدين (من ص ١٦٦ - الى ص ١٧١) .

(٣) انظر : مقدمتى الدكتور القوتلى لتحقيقه كتابى العقل وفهم القرآن للمحاسبى (ما بين ص ٩ - ٩٢) و (ص ٢٤١ - ٢٦١) .

(٤) انظر : نشأة الأشعرية وتطورها (من ص ٣٧ - الى ص ٨٢) .

أما الخطوات التى اتبعتها فى كتابة البحث فهى كالتالى :

١ ــ عرض آراء الفرق المخالفة لمذهب السلف اجمالا ، مع شيء من التفصيل بالنسبة للمسائل التى أثارتها المعتزلة وآرائهم فيها، باعتبار أن هذه الآراء كانت ميدان النزاع والخصومة الفكرية بين ابن كلاب والمعتزلة .

٢ ــ عرض آراء ابن كلاب تفصيلا ، مع ذكر الأدلة النقلية والعقلية التى يبطل بها آراء المعتزلة ، ويدعم بها مذهبه .

٣ ــ التعقيب على مذهب ابن كلاب ونقده فى ضوء عقيدة السلف فى المسألة .

٤ ــ ابراز أوجه الاتفاق والخلاف بين مذهب ابن كلاب فى المسألة ، موضوع البحث ، وبين مذهب السلف .

أما بالنسبة للمصادر الرئيسية التى استقيت منها مادة البحث : فقد اعتمدت على المصادر الأصلية لعلم الكلام والفرق ، وذلك بأن أبرزت مذهب ابن كلاب وعرضت آراءه من النصوص المنقولة عنه فى مؤلفات العلماء الثقات الذين نقلوا آراءه ، وذكرت رأى المحاسبى عن كتابه فهم القرآن أو عما نقله عنه العلماء .

ولم يفتنى أن أترجم للأعلام الواردة أسماؤهم فى البحث ، ما عدا بعضهم ، نظرا لشهرتهم ، كالأئمة الأربعة ، أصحاب المذاهب الفقهية ونحوهم .

كما خرجت الأحاديث النبوية والآثار الواردة فى البحث .

وقد جاءت الرسالة فى مقدمة وأحد عشر فصلا وخاتمة .

أما المقدمة : فقد عقدتها لبيان الدوافع التى حملتنى على الكتابة فى هذا البحث ، ومنهجى الذى سرت عليه فيه .

وأما الفصل الأول : تحدثت فيه عن عصر عبد الله بن كلاب من الناحية السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية .

وأما الفصل الثانى : فقد خصصته للحديث عن حياة ابن كلاب ومدرسته ، وقسمته الى ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : عن حياة ابن كلاب .
- المبحث الثاني : عن مدرسته .
- المبحث الثالث : منهج ابن كلاب في تقرير مسائل العقيدة .

وأما الفصل الثالث : فكان عن مذهب ابن كلاب في أسماء الله الحسنى ، ويشتمل هذا الفصل على مبحثين :

- المبحث الأول : مذهب ابن كلاب في أسماء الله الحسنى .
- المبحث الثاني : مذهب السلف في أسماء الله الحسنى ، وهو مطلبان :

المطلب الأول : التعريف بالسلف والمنهج الذى ساروا عليه في تقرير العقيدة وتدوينها .

المطلب الثاني : مذهب السلف في أسماء الله الحسنى .

وأما الفصل الرابع : فهو مذهب ابن كلاب في الصفات الذاتية ، ويحتوى على ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : مفهوم الصفة وأقسامها عند ابن كلاب .
- المبحث الثاني : علاقة الصفات بالذات عند ابن كلاب .
- المبحث الثالث : مذهب ابن كلاب في الصفات الذاتية .

وأما الفصل الخامس : وهو مذهب ابن كلاب في الصفات الفعلية ، وفيه ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : صفات الأفعال وقيامها بذات الله تعالى .
- المبحث الثاني : مذهب ابن كلاب في هذه الصفات .
- والمبحث الثالث: مذهب السلف في صفات الأفعال وقيامها بذاته تعالى .

وأما الفصل السادس : مذهب ابن كلاب في الصفات الخبرية ، وفيه خمسة مباحث :

- المبحث الأول : انقسام الفرق الى مثبتة ونفاة في هذه الصفات .
- المبحث الثاني : مذهب ابن كلاب في الصفات الخبرية الذاتية .
- المبحث الثالث : مذهب ابن كلاب في الصفات الخبرية الفعلية .

- المبحث الرابع : مسألة نفي الجسمية عن الله تعالى بين الكلابية والسلف .
- والمبحث الخامس: مذهب ابن كلاب في صفات المحبة والرضا والسخط والكراهية ، وموقف السلف منه .

وأما الفصل السابع : مذهب ابن كلاب في كلام الله تعالى ، وفيه خمسة مباحث :

- المبحث الأول : حقيقة الكلام الالهي عند ابن كلاب .
- المبحث الثاني : مسألة الحرف والصوت عند ابن كلاب .
- المبحث الثالث : ابن كلاب أول من صرح بأن القرآن قديم .
- المبحث الرابع : مذهب ابن كلاب في وحدة الكلام الالهي .
- المبحث الخامس : الكلابية ومحنة خلق القرآن .

وأما الفصل الثامن : مذهب ابن كلاب في أفعال العباد ومسائل القدر .

وأما الفصل التاسع : مذهب ابن كلاب في رؤية الله تعالى في الآخرة ، وفيه مبحثان :

- المبحث الأول : مذهب ابن كلاب في رؤية الله تعالى في الآخرة .
- والمبحث الثاني : مذهب السلف في رؤية الله تعالى في الآخرة .

وأما الفصل العاشر : مذهب ابن كلاب في مسائل الايمان ، وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول : مذهب ابن كلاب في حقيقة الايمان .
- المبحث الثاني : زيادة الايمان ونقصانه عند ابن كلاب .
- والمبحث الثالث: الاستثناء في الايمان عند ابن كلاب .

وأما الفصل الأخير وهو الفصل الحادي عشر : مذهب ابن كلاب في حكم مرتكب الكبيرة .

أما الخاتمة : فقد تناولت فيها أهم النتائج التي توصلت اليها في هذا البحث .

وبعد هذا العرض الموجز لفصول ومباحث الرسالة أقول :

لقد كنت أثناء البحث أشعر بأهمية العمل الذى أقوم به ، اذ أقدم للمكتبة الاسلامية بحثا عن مذهب ابن كلاب يضم بين دفتيه آراءه ومعتقداته وردوده على المخالفين ، وبخاصة المعتزلة ، وهذا البحث يعتبر الأول عن ابن كلاب فى ضوء عقيدة السلف .

ولكنى علمت وأنا على وشك الانتهاء من البحث بأن مكتبة جامعة الأزهر تضم رسالة مخطوطة بعنوان : (الكلابية وأثرها فى المدرسة الأشعرية) للدكتور حسن محرم السيد الحوينى ، وقد أسعدنى هذا كثيرا ، اذ توقعت من هذه الرسالة الفائدة التى يرجوها أى باحث من رائد سبقه فى نفس الميدان .

فعلى الرغم مما استفدت منها الا أنى أختلف معه فى المذهب ، لأنه لم يعرض مذهب ابن كلاب من خلال عقيدة أهل السنة والجماعة ومذهب السلف ، كما أنها لم تحتو على ما كنت أرجوه منها ، وهو ارشادى الى مواضع أقوال وآراء ابن كلاب والكلابية فى بطون الكتب ، وهو الأمر الذى أرهقنى كثيرا ، واستغرق منى الجهد الكثير والوقت الطويل .

ولكن ومع هذا فانه اعترافا بالفضل وعزوه لأهله فاننى أثبت أننى قد استفدت من بعض التعليقات والشروح فى بحثه ، وقد ذكرتها وأشرت اليها فى مواضعها .

ومن ثم استطيع أن أقرر باطمئنان أن بحثى هذا ـ فيما أعلم حتى الآن ـ ينفرد فى المكتبة الاسلامية بجمع آراء المدرسة الكلابية الاعتقادية فى ضوء عقيدة السلف .

وبعد هذا : فاننى أحمد الله سبحانه وتعالى على ما أمدنى به من عون وتوفيق فى اعداد هذه الرسالة ، وأسأله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الأول

عصر ابن كلاب

- تمهيد .

المبحث الأول ـ الحالة السياسية .

المبحث الثاني ـ الحالة الاجتماعية .

المبحث الثالث ـ الحالة العلمية .

المبحث الرابع ـ الحالة الدينية (الاعتقادية) .

تمهيـــد :-

يتطلب لدراسة شخصية من الشخصيات أن ندرس الأجواء والظروف المحيطة بها ، والبيئة التى كانت تعيش فيها ، لكى نقف على العوامل والظروف التى أبرزت هذه الشخصية .

والقول الذى لا جدال فيه : أن الشخص يتأثر بالظروف والعوامل المحيطة به ، فالمجتمع الذى يعيش فيه له أثر كبير فى تكييف حياته وطبعها بطابع خاص مميز عن الباقين ممن عاشوا فى عصر غير عصره .

فالتربية التى ربى بها والتعليم الذى تعلمه وتلقنه والزملاء الذين أحاطوا به والأساتذة الذين تأثر بهم والأحوال الاجتماعية والسياسية والعلمية التى وجدت فى عصره ، كلها عوامل لها وزنها وتأثيرها فى تكوين شخصيته وتكييف اتجاهه وتحديد مسارها ومنهجها .

وما دمنا نريد الالمام بكل جوانب تفكير عبد الله بن سعيد بن كلاب فإننا نجد أنفسنا مضطرين الى الوقوف على الاطار الحضارى لهذا الامام ، خصوصا وأنه قد عاش فى عصر تلاقى فيه الفكر الشرقى والغربى على أرض دولة الاسلام ، الذى كان من شأنه وجود حركات وصراعات فكرية ترددت أصداؤها فى مناقشات المعتزلة لأهل السنة .

ولذلك سنلقى نظرة سريعة على حياة المسلمين فى هذا العصر ، من الناحية السياسية والاجتماعية والعلمية والاعتقادية مع الحرص على الاختصار ، فليس هدفنا دراسة تاريخ تلك الحقبة من الزمان ، فليس هذا موضعه ، وانما الاطلاع السريع على تلك الفترة لنعرف الجو العام الذى عاش فيه عبد الله بن كلاب ، وأهم ما حصل فى هذا العصر .

وسنجعل هذا الفصل فى مباحث أربعة :-

المبحث الأول : الحالة السياسية .
المبحث الثانى : الحالة الاجتماعية .
المبحث الثالث : الحالة العلمية .
المبحث الرابع : الحالة الاعتقادية .

المبحث الأول

الحالة السياسية

قامت الدولة العباسية سنة (١٣٢ هـ) بالبيعة لأبى العباس السفاح [١]، (المتوفى سنة ١٣٦ هـ)، ثم من بعده لأبى منصور [٢] (المتوفى سنة ١٥٨ هـ) وانتقلت الخلافة الاسلامية من الشام، عاصمة الدولة الأموية الى العراق، بعد انتهاء الدور الأموى فى الخلافة.

وتميز عصر الخلافة العباسية بالفتوحات الاسلامية والحركة العلمية الهائلة، حتى سمى بالعصر الذهبى، كما برزت فيها الاضطرابات والفتن وجهود الخلفاء لقمعها، ولم تكن واحدة من هذه الامور لتحد من نشاط الأخرى، وان كانت الثورات الداخلية لا ينكر تأثيرها على سير الفتوحات الاسلامية والاصلاحات الداخلية الا أن هذا التأثير لم يكن ذا أثر شديد عليها، وذلك لاتساع رقعة الخلافة وامتداد نفوذها وكثرة جنودها، فانه وان انشغل جيش فى اخماد الفتن فهناك جيوش أخرى تتحرك للفتوحات، وأيد عاملة تجد فى البناء والتعمير والاصلاح.

فقد كثرت الفتوحات فى هذا العهد وبلغت مشارق الأرض ومغاربها، وكان هارون الرشيد [٣] (المتوفى سنة ١٩٣ هـ) من شدة اهتمامه وعنايته بها يحج عاما ويغزو عاما [٤].

---

(١) هو عبد الله السفاح، بن محمد بن الامام بن على بن عبد الله بن العباس، أول الخلفاء العباسيين، بويع بالخلافة سنة (١٣٢ هـ)، وتوفى سنة (١٣٦ هـ) (البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٠، ص ٤٧ و ٦٨).

(٢) هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس، أبو جعفر المنصور تولى الخلافة بعد أخيه أبى العباس السفاح سنة (١٣٦ هـ) وتوفى سنة (١٥٨ هـ) — (البداية والنهاية ١٠/٧٢).

(٣) هو هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور، تولى الخلافة بعد أخيه الهادى سنة (١٧٠ هـ) وتوفى سنة (١٩٣ هـ)، (البداية والنهاية جـ ١٠، ص ١٨٣، ٢٤٢).

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ٢٧١)، مطلع العصر العباسى الثانى، د / نادية حسنى صقر (ص ٨٤).

وبلغت ذروتها فى عهد الخليفة المعتصم [١] (المتوفى ٢٢٧ هـ) .

وقد اعتاد المؤرخون تقسيم عصر الدولة العباسية الى عصرين متميزين استمر الأول منهما قرنا كاملا (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) ، والثانى أربعة قرون وربع القرن تقريبا ، وانتهى بغزو المغول سنة (٦٥٦ هـ) [٢] .

واذا كان لكل دولة — كما يقولون — أوان للبذر وأوان للنماء وأوان للحصاد : فقد كان الدور الأول للدولة العباسية أوان لبذرها ونمائها ودور عزها وقوتها وازدهار جوانب الحضارة المختلفة فيها [٣] ، كما كان الدور الثانى دور الانحطاط وضعف الدولة ودخولها فى انقسامات وخلافات أدت الى فقد هيبة الخلفاء وتسلط قواد الجيش عليهم وانفرادهم بالسلطة من دونهم .

ان عبد الله بن سعيد بن كلاب (ت ٢٤١ هـ) يعد من أشهر أئمة المتكلمين فى القرن الثانى والثالث الهجرى ، والفترة التى عاش فيها تعتبر من العصر العباسى الأول (١٣٢ هـ — ٢٣٢ هـ) وأدرك جزءا من العصر العباسى الثانى ، وهو من عهد المتوكل [٤] (ت ٢٤٧ هـ) ، لأنه عاش من أواسط القرن الثانى الهجرى تقريبا الى أواسط القرن الثالث الهجرى ، ولا نعرف شيئا عن سنة مولده ومكان مولده ، وحيث أنه توفى عام (٢٤٠ هـ) فانه يكون فى الأغلب قد عاصر حكم ثمانية خلفاء من بنى العباس ان طال به العمر ، وان قصر يكون قد عاصر ستة منهم ، وهم :

---

(١) هو أبو اسحاق ، محمد المعتصم بن هارون الرشيد ، وهو ثامن الخلفاء العباسيين ، تولى الخلافة بعد موت أخيه المأمون سنة (٢١٨ هـ) ،
-(البداية والنهاية جـ ١٠ ، ص ٣١٨ ، ٣٣٤) .

(٢) مطلع العصر العباسى الثانى د / نادية حسنى صقر (ص ٤٦ — ٤٧) .

(٣) ابن الرومى : عباس محمود العقاد ، (ص ١٠) .

(٤) هو جعفر بن المعتصم ، المتوكل على الله ، تولى الخلافة سنة (٢٣٢ هـ) ،
-(البداية والنهاية ، لابن كثير ، جـ ١٠ ، ص ٣٥١ ، ٣٩٦)

محمد المهدى ، أبو عبد الله ، محمد بن أبى جعفر المنصور ، (وعهد خلافته ١٥٨ هـ — ١٦٩ هـ) ، وولداه :

موسى الهادى ، موسى بن محمد المهدى (١٦٩ هـ — ١٧٠ هـ) .

هارون الرشيد ، هارون بن محمد المهدى (١٧٠ هـ — ١٩٣ هـ) وأولاده :

الأمين ، محمد بن هارون (١٩٣ هـ — ١٩٩ هـ) .

المأمون ، عبد الله بن هارون (١٩٩ هـ — ٢١٨ هـ) .

المعتصم ، محمد بن هارون (٢١٨ هـ — ٢٢٧ هـ) .

الواثق بالله ، هارون بن المعتصم (٢٢٧ هـ — ٢٣٢ هـ) .

المتوكل على الله ، جعفر بن المعتصم (٢٣٢ هـ — ٢٤٧ هـ) .

وفى عهد المتوكل توفى عبد الله بن كلاب رحمه الله .

ولا شك أن هذه الفترة كانت من أزهى أيام الدولة العباسية وأرقاها وأقواها أثرا فى التاريخ الاسلامى .

وهؤلاء الخلفاء الذين عاصرهم ابن كلاب هم أشهر الخلفاء العباسيين وأعظمهم نفوذا ، وأجلهم همة ، وأوسعهم سلطانا .[(١)]

والوصف الذى كان يشملهم جميعا هو القوة والحزم والصلابة ، فكانوا فى جملتهم ذوى بأس وهيبة ، وحزم ورأى وفكر ، ومن أجل ذلك تغلبوا على جميع الفتن داخلية كانت أو خارجية .

ولقد شاهد عبد الله بن كلاب عظمة هذه الخلافة ، وعاش فى ظلال سلطانها العظيم ونفوذها الكبير ، وكانت حياته عهد استقرار وازدهار ، فقد ثبتت قواعد الدولة على يدى المنصور ، وامتد نفوذها فى كل مكان فى أيام المهدى ، وعظمت هيبتها فى زمن الرشيد والمأمون ، وتوالت انتصاراتها العسكرية فى خلافة المعتصم ، وظلت فى قوة وازدهار فى عصر الواثق والمتوكل .[(٢)]

---

(١) أبو عثمان الجاحظ : د / محمد عبد المنعم خفاجى (ص ١٧) .

(٢) المصدر نفسه (ص ١٩) .

- وفى العصر العباسى الأول لم ينازع الدولة منازع ذو قوة ، ففى الخـــارج : كانت الدولة العباسية تفوق الدولة البيزنطية التى لم يكن أمامها الا أن تدفــع الجزية الى بعض خلفاء هذا العصر ، وأما فى الداخل : فالخوارج انكســرت شوكتهم ، واستقر معظمهم فى خراسان ، (١) والعلويون لم تقم لهم قائمة بعــد الرشيد ، على رغم كثرة ثوراتهم وخروجهم على الخلافة العباسية ، (٢) لأن هــارون الرشيد قد استهل عهده بحسن معاملة العلويين ، ولكنه بعد قيام ثورات العلويين غيّر سياسته ، وشكّ فيهم ، وقبض على زعمائهم ، ونكل بهم . (٣)

الا أن جيوش الدولة كانت مكونة من عناصر ثلاثة : العرب والفرس والــترك ، وأن الدولة قد ارتكزت عند قيامها على عصبتين : العرب الذين والوا الدولــة العباسية ، باستثناء الأمويين والعلويين ، والفرس الذين هم رجال الدعــوة العباسية ، وكان الخلفاء اذا رابهم شئ من أحد الفريقين استعانوا عليه بالحـزب الآخــر .

هذه هى حالة المجتمع السياسية ، وهذا مجمل ما كان فى تلك الفترة مــن التاريــخ .

---

(١) دراسات فى تاريخ الدولة العباسية : د / حسن الباشا (ص ٣٠) .

(٢) ظهر الاسلام : أحمد أمين (١ / ٤١) .

(٣) مقاتل الطالبين للاصفهانى (ص ٤٨٩ — ٤٩٣) .

المبحث الثاني

الحالة الاجتماعية

ان الحالة الاجتماعية فى أى أمة من الأمم لها أثر كبير فى حياة الأمة وأخلاقها وتعاملها وحضارتها .

ويقصد بالحديث عن الحالة الاجتماعية فى بلد من البلاد ذكر طبقات هذا المجتمع حيث الجنس والدين وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل منهم ، من الحرية وغيرها ، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء والأمراء ، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات وأماكن النزهة ووصف المنازل والقصور وما فيها من أثاث وطعام وشراب ولباس .(١)

الا أننا لن نبحث كل ما ذكر بالتفصيل ، بل سنقتصر على بعض الجوانب مما يمكن أن يكون ذا أثر فى الحياة الاجتماعية فى عصر بنى العباس ، وبالتالى فى الحياة الفكرية .

المجتمع الاسلامى فى عصر ابن كلاب يختلف تكوينه عن تكوين المجتمعات الاسلامية السابقة ، حيث تكون الشعب فى هذا العصر من أجناس مختلفة من عرب وفرس وأتراك وهنود وزنوج وغيرهم ، وكانت هذه الأجناس تختلف فى عاداتها وطباعها وقدراتها العقلية ، وتتميز بمزايا وصفات شتى ، لذلك أصبح المجتمع ملتقى لحضارات مختلفة وثقافات متنوعة فى هذا العصر .

جاء الدين الاسلامى بالمحبة والاخاء والصدق والصفا ، وجمع هذه الأمم كلها تحت راية واحدة وفى اطار دين واحد ، فخضعوا لرب واحد وشريعة واحدة ، ثم لخليفة واحد .

وألف الاسلام بين قلوبهم ولم يفرق بين أجناس البشر ، وجعل الأفضلية فى التقوى ، فالأتقى هو الأفضل ، والأحب الى الله عز وجل .(٢)

ثم فرض الاسلام على معتنقيه الصدق فيه والعمل بتعاليمه ، وهكذا كان من دخل فيه مؤمنا .

---

(١) تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى : د / حسن ابراهيم حسن (٢/٣٩٥) .

(٢) سورة الحجرات (١٣) .

الا أنه نظرا لدخول خلق كثير من الفرس والترك والأحباش والأقباط وغيرهم في الدين الاسلامي ، فان بعض هذه الأجناس بعد ما دخلوا في الاسلام لم يتخلصوا كليا من بعض الأشكال السلوكية والعادات الاجتماعية التي كانوا يمارسونها قبل الدخول في الاسلام ، فأثروا بها في المجتمع الاسلامي ، فسرت فيه عادات غريبة في المجلس والمطعم والمشرب ، بل وفي التعامل والآداب .

على أنه اندس من بين هؤلاء قوم أظهروا الاسلام وأبطنوا البغض له والكيد، فاندسوا في صفوف المسلمين ، وأثاروا الفتن بينهم لأغراض سياسية أو عقائدية أو دنيوية ، ولكن هذه العناصر الغريبة لم تكن ذات أهمية نظرا لاتساع رقعة الخلافة الاسلامية ، ولم تكن شيئا في جانب التلاحم العظيم الذي حدث بين الذين دخلوا في الاسلام عن رغبة واقتناع ، فقد انصهروا في قالب واحد ، وناصروا الدين الاسلامي ، وخدموه خدمة عظيمة ، وكانوا يدا واحدة على من عداهم، وتحقق فيهم قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) (١) ، وبذلك قوى جانب الاسلام وعلا مجده ومجدهم به ، وانتشرت علومه في الآفاق حتى وصل الى ما وصل اليه من عز وشرف في الكرة الأرضية .

ومع هذا التجانس والالتحام فقد انقسم هذا المجتمع في العصر العباسي الى ثلاث طبقات أساسية ، كما فصله الدكتور شوقي ضيف (٢) .

طبقة عليا : وهي طبقة الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورؤوس التجار وأصحاب الأقطاع من الأعيان وذوي اليسار .

وطبقة وسطى : وهي تشتمل على رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصناع الممتازين .

وطبقة دنيا : وهي طبقة العامة من الزراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق .

---

(١) سورة الحجرات (١٠) .

(٢) العصر العباسي الثاني :د /شوقي ضيف (ص ٥٣ وما بعدها)، وانظر : ظهر الاسلام (١/ ١١٤-١١٥) ؛ لكننا هنا لا نوافق الدكتور شوقي ضيف على كلمة " طبقة " ، لأنها مصطلح اجتماعي لا ينطبق على الأحوال الاجتماعية في الدولة العباسية ، أو في غيرها من المجتمعات التي كانت تقيم شرع الله عز وجل ، لأن الجميع كانوا يخضعون لشريعة واحدة ، ويكون الكلام صحيحا اذا استبدلنا كلمة " فئة " بكلمة " طبقة " .

ويأتي بعد هذه الطبقات أهل الذمة من اليهود والنصارى ، وكانوا يتمتعون بحقوق الانسان كاملة في ظل الشريعة الاسلامية السمحة . (١)

وقد ازدهرت الدولة العباسية في النواحي الاقتصادية والمالية ، وعم الرخاء البلاد والعباد .

لكن هذه الاقتصاديات الواسعة للبلاد قد فسح لها مجالا واسعا في الترف ، فالمال الوفير الذي تدفق على الدولة من الفيئ والجزية والزكاة من ناحية ، ومن التجارة الواسعة من ناحية ثانية ، ومن ازدهار العمران والصناعة من ناحية ثالثة أدى الى نشأة الترف في حياة المسلمين ابتداءً من قصور الخلفاء وانتهاءً الى قصور التجار الذين كانت ثرواتهم تبلغ الملايين .

وتتجلى مظاهر الاسراف فيما أثبته المؤرخون في ذكرهم مجالس الغناء والطرب ، وما قيل عن قصور الخلفاء والأمراء والوزراء ، وما يخصهم من ملابس وجوار ، وما صحب ذلك من حفلات الزواج وغيرها .

والحق وان كانت تبدو المبالغة في وصف حياة هذه الطبقة العليا ممن كتب عنها وأنه قد يكون هناك مقاصد لترويج مثل هذا الكلام الا أنه لا يمكن أن نقول : أنه لا يوجد شيئ عن حياة البذخ عند بعضهم ، والا لماذا لم يكتب عن سيرة الخلفاء الراشدين ومن تبعهم باحسان كعمر بن عبد العزيز مثل ما كتب عن هؤلاء ؟

وتظهر لنا صورة الترف واضحة في القصة التي يرويها الامام ابن كثير عن زواج المأمون من بوران ، ابنة الوزير الحسن بن سهل ، ومقدار الأموال التي انفقت على وليمة الزواج من قبل الحسن ، ومظاهر الترف التي صاحبته .

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي : د / حسن ابراهيم حسن (٢/٣٩٧) .

يقول ابن كثير رحمه الله : (وأما والد العروس الحسن بن سهل فانه كتب أسماء قراه وضياعه وأملاكه فى رقاع ، ونشرها على الأمراء ووجوه الناس ، فمن وقعت بيده رقعة فى قرية منها بعث الى القرية التى فيها نوابه ، فسلمها اليه ملكا خالصا ، وأنفق على المأمون ومن كان معه من الجيش فى مدة اقامته عنده سبعة عشر يوما ما يعادل خمسين الف الف درهم ، ولما أراد المأمون الانصراف من عنده أطلق له عشرة الف الف درهم ، وأقطعه البلد الذى هو نازل فيها ، وهو اقليم فم الصلح ، مضافا الى ما بيده من الاقطاعات) . (١)

فاذا كانت هذه الأموال يملكها وزير واحد ، بل يملك أضعافها/أضعافاً كثيرة ، فكم تكون ثروة الخليفة ؟ .

هذا نموذج واحد من بعض نماذج الاسراف والتبذير فى حياة خلفاء بنى العباس ، وأمرائهم ووزرائهم .

وعلى كل حال : الاسراف سواء صدر من الخلفاء أو من رعاياهم لا يلائم الاسلام ، وقد حذر الله سبحانه وتعالى كل فرد من المجتمع الاسلامى من أن يقع فيه ، فقال عز وجل : (ولا تبذر تبذيرا ، ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين .) (٢)

لا نقصد بما ذكرنا : أن ننقص من قدر الخلفاء والولاة فى ذلك العصر ، بل نعترف — وهذا واجب —

بأنه كانت لهم فضائل كثيرة جدا ، والمقارنة بينهم وبين كثير من ملوك ورؤساء الدول الاسلامية الذين جاؤوا بعدهم تثبت لهم الفضل الكبير .

كما لم نرد أن نقول : أن ذلك العصر كان عصر الخلاعة والمجون تماما ، ولا نقر الكثير مما جاء فى كتب الأدب التى لا يخلو الكثير منها من الوضع والكذب والمبالغة من الذين يحملون ضغينة على بنى العباس، كالشيعة والشعوبية .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (١٠/٣٠٠) .

(٢) سورة الاسراء (٢٦ — ٢٧) .

يقول الشيخ محب الدين الخطيب : " تاريخ بنى أمية وبنى العباس كتبه وأذاع الروايات عن أخباره مؤلفون ، أكثرهم من الشيعة والشعوبية (١) ، فأفسدوا على هذه الأمة تاريخها ، وشوهوا محاسن ماضيها (٢) ".

فمن قال : أن ذلك العصر كان عصر الخلاعة والمجون ظلم نفسه وظلم التاريخ الاسلامى ، لأن ما وصل الينا من الأخبار التى تحكى مثل هذه الأشياء الفاسدة التى ذكرناها فهى - ان صحت - تحكى جانبا من جوانب المجتمع الاسلامى آنذاك ، لأن الفساد كان مقصورا غالبا فى بيوت الطبقة العليا ومن تشبه بهم ، ولم يكن لتلك الطبقة شأن يذكر فى توجيه الناس ، بل : كان ينظر اليهم نظرة احتقار وازدراء ، لا نظرة اكبار أو اعجاب ، كما ينظر للعلماء والفضلاء من أهل التقوى والصلاح .

والوصف الذى ذكرناه ووصفنا به ذلك العصر : ليس حال الناس جميعا ، وما كان كلهم على هذه الأوصاف .

فاذا وجدنا الانحرافات قد دخلت فى قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء وأصحاب المال ، ووجدنا ميل بعض الناس الى المغنين والقيان : وجدنا ازاء ذلك معظم الناس

---

(١) الشعوبية :
دعوة خبيثة ، اشتدت فى العصر العباسى الثانى ، وكان هدف أصحابها : التشكيك فى مبادئ الاسلام عن طريق الاشادة بأمجاد الفرس والروم والهنود وحضارتهم ، والطعن فى العرب المسلمين بذكر مساوئهم فى الجاهلية ، وطمس الفضائل التى كانوا يتحلون بها ، وقد تصدّى كثير من العلماء لهذه النزعة وردّوا عليها ، أمثال ابن قتيبة رحمه الله ، أنظر : العصر العباسى الأول : د / شوقى ضيف (ص ٧٥ - ٧٦) ، والعصر العباسى الثانى : له أيضا ، (ص ٩٧ -) .

(٢) المنتقى من منهاج الاعتدال ، وهو مختصر منهاج السنة للذهبى ، تحقيق : محب الدين الخطيب (هامش صفحة ١٨٢) .

متمسكين بالفضيلة والأخلاق الحميدة ، ففيهم العلماء الأفاضل ، والمحدثون والفقهاء ، وفيهم العباد والزهاد ، الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، أمثال عبد الله ابن المبارك ، وأحمد بن حنبل وغيرهما .

وبالرغم من كل الظواهر الاجتماعية التى أشرنا اليها أعلاه : فان الطابع العام الذى كان يعيشه المجتمع كان اسلاميا ، والسلطان الدينى يسود العامة ، والصبغة الدينية لها سيطرة على قلوب الجمهور فى تلك الأيام .

كما كان الجهاد قائما ، وكانت غزوات الصيف والشتاء مستمرة ، وعدد غير قليل من جنود المسلمين يرابطون بالثغور الاسلامية ، يجاهدون أعداء الله ، ويعلون كلمته ، ويرفعون راية الحق ، وينشرون لواء العدل ، والشريعة الاسلامية هى دستور الدولة وقانونها ، فلم يسجل التاريخ خبرا عن أى خليفة من خلفاء العصر العباسى بأنه انكر هذا المصدر ، أو ألغى العمل به ، أو أعرض عنه ، ومال الى مصادر أخرى للتشريع ، بل كانوا يطبقون الشريعة الاسلامية على قدرهم واستطاعتهم ، وكان نظام القضاء مظهرا من مظاهر هذا التطبيق .

وهذا جانب مشرق للدولة العباسية .

المبحث الثالث

الحالة العلميـــة :

عاش عبد الله بن سعيد بن كلاب فى زمن ازدهار العلوم والمعارف فــى الدولة العباسية ، حيث وصلت الحضارة الاسلامية الى قمتها فى هذه الفــترة وازدهرت العلوم ازدهارا لامثيل له ، وذلك لأننا اذا ألقينا نظرة على علماء ذلك العصر نجدهم الدعامات الأساسية للعلوم المختلفة .

ويعرف هذا العصر بأنه عصر العلم والتدوين والترجمة وهو كان موســم الحصاد لما غرس الاسلام من معانى الحضارة فى حياة الناس ، وخاصة ما كــان منها فى مجال العلوم .

ولم تقتصر هذه النهضة العلمية والفكرية على فن دون آخر ، بل شملت جميع نواحى التفكير وأنواع الثقافة ، واتجه العلماء الى ناحية التخصص والاتقان بسبب اتساع آفاق العلم ، واستقل كل علم عن العلوم الأخرى وأصبح له منهجا خاصا به يميزه عن غيره .

فقد سارت العلوم الاسلامية فى تقدمها سيرا حسنا، رغم ما كان من التقلبات السياسية فى جسم الخلافة الاسلامية فلم تؤثر هذه القلاقل أو هذه الفتن علــى سير العلم والعلماء ولم تمنع نشاطهم العلمى .

بل كانوا يشقون طريقهم فى طلب العلم ، ويرحلون من قطر الى آخر ،غير مهتمين لما يحدث من حولهم ، معتبرين أن هذه الحوادث مؤقتة ، تزول بــزوال الأيام ، وأن العلوم الاسلامية يجب أن تثبت وتنقح وتهذب ، لتستفيد منهــا أجيال المسلمين القادمة .

وفى هذه الفترة صنفت العلوم الشرعية واللغوية ، وأحكمت غاية الاحكــام وأخذت العلوم الفلكية طريقها الى الظهور ، فترجمت من لغات الأمم الأخــرى الى العربية ، واعتنى بها كثيرا .

وقد ظهر فى هذا العصر أئمة الفقه وجهابذة الحديث ونوابغ العلمـــاء وفطاحل اللغويين وفحول الشعراء وأعلام المؤلفين وصفوة المفسرين وأنبل المؤرخين وأحذق الأطبـــاء .

وفى الحديث : كان يحيى بن معين (ت ٢٣٣) هـ) ،وعلى بن المديني (ت ٢٣٤هـ) ،وابن أبى شيبة (ت ٢٣٥هـ) ،والامام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) والبخارى (ت ٢٥٦هـ) ،ومسلم (ت ٢٦١هـ) ،وابن ماجة (ت ٢٧٣هـ) ،وأبو داود (ت ٢٧٥هـ) ،والترمذى (ت ٢٧٩هـ) ،وأبو سعيد الدارمى (ت ٢٨٠هـ) .

وفى علم التفسير : فان عمدة المفسرين ابن جرير الطبرى (ت ٣١٠ هـ) ألف تفسيره وتاريخه فى هذا العصر ،فهناك مفسرون آخرون غيره .

وأما فى الفقه : فقد نما علم الفقه ،حتى اكتملت المذاهب الأربعة ،ومن أشهر الفقهاء الذين عاشوا فى العصر العباسى : الليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) ، والامام أبو حنيفة (ت ١٥٠هـ) ،والامام مالك (ت ١٧٩هـ) ،والامام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) ،والامام أحمد (ت ٢٤١هـ) ،وداود الظاهرى (ت ٢٧٥هـ) .

ومن علماء اللغة فى هذا العصر : الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) ،وسيبويه (ت ١٨٨هـ) ،وأبو عبيدة (ت ٢٠٨هـ) ،والأصمعى (ت ٢١٥هـ) ،والقاسم ابن سلام (ت ٢٢٣هـ) ،وابن الأعرابى (ت ٢٣١هـ) ،وابن سكيت (ت ٢٤٤هـ) ، وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ،والمبرد (ت ٢٨٥هـ) ،وثعلب (ت ٢٩١هـ) وسواهم .

ومن علماء التاريخ والجغرافيا : اليعقوبى (ت ٢٨٤هـ) ،والبلخي (ت ٣٢٢هـ) .

ومن علماء الطب : ابن ماسويه (ت ٢٤٣هـ) ،وأبو بكر الرازى (ت ٣١١) ، وغيرهم من العلماء ،وهم كثير ،لكن لم نشر اليهم الا اختصارا [1] .

أما بالنسبة لعلم العقيدة وتدوينها ،والكتب التى كتب فيها ،ومن تصدى للانحرافات العقدية من أهل السنة وكتبهم : هذا ما سأذكره فى مبحث لاحق انشاء الله هو مبحث الحالة الدينية .

---

(١) استفدت فى هذا البحث مما كتبه أحمد أمين فى ضحى الاسلام (٢/١٠٦-١٤٦) ،وظهر الاسلام (١/١٥٩ وما بعدها) ،والعصر العباسى الثانى ، د /شوقى ضيف(ص ١٤٢- ١٥٣) ، (ص ١٦١ ومابعدها) ، وكتاب أبو عثمان الجاحظ :د /خفاجى (ص ٣٤- ٣٥) .

ولم يكن هذا التقدم الشامل وليد مصادفة ، بل نشأ عن عوامل كثيرة ساهمت في هذه النهضة العلمية التي شهدها هذا القرن ، ونجمل أهمها فيما يلي :

تشجيع الخلفاء والأمراء للعلم والعلماء :

كان لتشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء وحكام الأقاليم والولايات للعلم والعلماء أثر كبير في ازدهار الحركة العلمية في ذلك العصر .

فان خلفاء بني العباس كانوا يشجعون الحركة العلمية في شتى جوانبها ، ويضفون عليها ظلال رعايتهم وتشجيعهم ، ويبذلون للعلم الكثير من أموالهم ، فكانوا يبالغون في اكرام الأدباء والعلماء ، ويعطونهم العطاء السخي ، ويجالسونهم ويقربونهم اليهم .(١)

وتنافس الخلفاء في انشاء دور العلم ، كما تنافسوا في تكريم العلماء ، وكانوا يقتنون في قصورهم المكتبات التي تزخر بأمهات الكتب ، وكان (بيت الحكمة) الذي وضع الرشيد أساسه وعمل المأمون من بعده على امداده بمختلف الكتب والمصنفات : يعتبر من أكبر خزائن الكتب .(٢)

وكانت مجالس الخلفاء في ذلك العصر مدارس علم وملتقى للأفكار ، تجري فيها المناظرات والمناقشات واستظهار الأدلة .

ولعل من أبرز الأمثلة على سمو بعض مجالس الخلفاء وشغفهم بالعلم والعلماء وسماع مختلف العلوم من خلال المناظرات التي كانوا يشهدونها تلك المناظرة العلمية الجريئة التي قام بها الامام عبد العزيز الكناني (٣) (ت ٢٤٠ هـ)

---

(١) أبو عثمان الجاحظ : د / خفاجي (ص ٣٠) ، العصر العباسي الأول : د / شوقي ضيف (ص ٩٨ — ١٣٨) .

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول : د / ابراهيم علي أبو الخشب (ص ١٤١) ، الدولة الاسلامية في العصر العباسي الأول : د / أحمد الشامي (ص ١٥٤ — ١٥٥) .

(٣) هو عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون الكناني المكي ، فقيه مناظر ، يعتبر أحد أصحاب الشافعي ، وقدم بغداد في أيام المأمون ، ==

لبشر المريسى (ت ٢١٨ هـ) [١] العنيد فى بيت الخلافة تحت سمع وبصر وقضاء الخليفة المأمون ، والتى انتهت بدحض أقوال بشر فى مسألة خلق القرآن ، واقرار المأمون له بالظهور على خصمه ، [٢] وقد ملأت أمثال هذه المجالس بطون كتب التاريخ لمن استزاد .

== فجرت بينه وبين بشر المريسى مناظرة فى القرآن ، له تصانيف عديدة ، منها الحيدة ، توفى سنة (٢٤٠ هـ) ، انظر : تاريخ بغداد (١٠/٤٤٩) ، ميزان الاعتدال (٢/٦٣٩) ، طبقات السبكى (٢/١٤٤) ، الأعلام (٤/٢٩) .

(١) هو بشر بن غياث بن أبى كريمة ، أبو عبد الرحمن المريسى ، فقيه معتزلى ، وقد رمى بالزندقة ، وهو رأس الطائفة المريسية القائلة بالارجاء ، واليه نسبتها ، قيل : كان أبوه يهوديا ، وكان قد تفقه على الامام أبى يوسف ، ثم اشتغل بالكلام ، مات سنة (٢١٨ هـ) ، أنظر : تاريخ بغداد (٧/٥٦) ، ميزان الاعتدال (١/٣٢٢) ، شذرات الذهب (٢/٤٤) ، الأعلام (٢/٥٥) .

(٢) أنظر لتفصيلات هذه المناقشة : كتاب الحيدة للامام عبد العزيز الكنانى المكى ، (طبعة رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالمملكة العربية السعودية ، تعليق الشيخ اسماعيل الأنصارى) ، وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية من هذه المناقشة نصوصا فى درء تعارض العقل والنقل ، أنظر درء تعارض (٢/٢٤٥) ، و (٦/١١٥) .

وقد شك بعض العلماء فى صحة هذه المناظرة ، فقال الذهبى ===

وتعدى نشاط خلفاء بني العباس الى أن تتبع بعضهم الزنادقة كالمهدى الذى أفنى منهم خلقا كثيرا ، الى جانب حثه العلماء على تصنيف كتب الجدل فى الرد على الملحدين . (١)

== كما فى الميزان (٣/٥١٧) عند ترجمة محمد بن الحسن بن أزهر الدعّاء : " اتهمه ابو بكر الخطيب بأنه يدع الحديث . . . " . قال الذهبى : " قلت : هو الذى انفرد برواية كتاب الحيدة " ، قال : " ويغلب على ظنى أنه هو الذى وضع كتاب الحيدة ، فانى لأستبعد وقوعها جدا " .

وقال الذهبى (٢/٦٣٩) عند ترجمته لعبد العزيز المكى : " لم يصح اسناد كتاب الحيدة اليه ، فكأنه وضع عليه " .

وقال الحافظ ابن حجر فى اللسان (٥/١٢٨) : " ووجه استبعاد المصنف (أى الذهبى) كتاب الحيدة أنه يشتمل على مناظرات أقيمت فيها الحجة لتصحيح مذهب أهل السنة عند المأمون ، والحجة قول صاحبها ، فلو كان الأمر كذلك ما كان المأمون يرجع الى مذهب الجهمية ، ويحمل الناس عليه ، ويعاقب على تركه ، ويهدد بالقتل وغيره ، كما هو معروف فى أخباره فى كتب المحنة " .

(١) الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول : د / أحمد الشامى ، (ص ٩٨ — ٩٩) .

ولم يقتصر هذا النشاط على الخلفاء ، بل تعداهم الى الأمراء والوزراء وسائر رجال الدولـة .

وكان بعض أعيان المدن وأثريائها أيضا يمدون العلماء بالهبات والمكافآت المجزية ، وربما أمدوا طلبة العلم ببعض الأموال ، تشجيعا لهم على طلب العلم ، والأمثلة على ذلك كثيرة وفيرة ، نذكر منها على سبيل المثال ما روى عن أبى زرعة (ت ٣٠٢هـ)[(١)] قاضى دمشق ، أنه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزنى فى الفقه الشافعى مائة دينار[(٢)] .

تفـرغ العلماء :

تفرغ العلماء للعلم فى هذا العصر كان عاملا من العوامل التى ساعدت على دفع الحركة العلميـة الى الامام .

اذ خفت حركة الفتوحات الاسلامية ابتداء من الخليفة الواثق[(٣)] والمتوكل ، ولم يعد الأمر تأديب الروم اذا اعتدوا على حدود الدولة الاسلامية ، ثم عقد المصالحة والمهادنة معهم .

وقد امتلأت المكتبات الاسلامية بشتى المصنفات المفيدة نتيجة لتفرغ العلماء لطلب العلم وتعليمه .

وقد استغل هذه الحركة العلمية وما صاحبها من حرية فكرية طائفة من الناس لبث سمومهم ، وسخروا أقلامهم وألسنتهم لحرب الاسلام والتشكيك فيه ، فكان لزاما على العلماء المخلصين فى هذا العصر أن يبطلوا كيد هؤلاء ويحموا عوام المسلمين من شرورهم ، فكان هذا دافعا للحركة العلمية الى الامام ، لأن جانبا عظيما من المكتبة الاسلامية فى ذلك العصر قد خصصت لرد الافتراءات وبيان بطلانها وانتقاد أصحابها .

---

(١) أبو زرعة ، محمد بن عثمان بن ابراهيم بن زرعة ، الثقفى ، ولى قضاء مصر ، ثم ولى قضاء الشام ، انظر : الولاة وكتاب القضاة : محمد بن يوسف الكندى ، (ص ٥١٨ - ٥٢٣) ، (ط. مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨م ، تصحيح : رفن كست) ، والاعلام (٦/ ٢٦٠) .

(٢) العصر العباسى الثانى ، د/شوقى ضيف (ص ١٢٠) ، الولاة وكتاب القضاء (ص ٥٢٣) .

(٣) الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الأول ، د/أحمد الشامى (ص ١٧٠) .

مناظرات العلماء :

كما كان لمناظرات العلماء فى المساجد وقصور الخلفاء والوزراء أثر كبير فى اشعال الجذوة العلمية ، فقد كان الشباب يختلفون الى سماع هذه المناظرات، ليتعلموا قرع الحجة بالحجة ، وغلبة الخصم بالحق تارة وبالباطل تارة أخرى ، وتفيض كتب المتكلمين والفقهاء والنحاة بأخبار هذه المناظرات . (١)

دور المساجد فى نشر العلم والمعرفة : وهناك للمسجد دور عظيم فى نشر العلم والمعرفة فى ذلك العصر ، فقد كانت المساجد على كثرتها مفتحة الأبواب ، وفيها حلق العلم والدروس فى شتى الفنون والتخصصات .

فكان كبار العلماء يخصصون لهم أماكن فى المساجد فى مواعيد معروفة ، يقومون فيها بتعليم الحضور ، وكان فى المسجد الواحد أكثر من حلقة ، لأكثر من عالم ، فى أكثر من ضرب من ضروب العلم والمعرفة ، فالمسجد فى ذلك الوقت أشبه بالمعاهد العلمية ، وكان الطلبة يختلفون الى من يشاؤون الاستماع اليه بدون أى شرط ، منهم من يأخذ الفقه ، ومنهم من يأخذ علم الحديث ، أو تفسير القرآن ، أو علم القراءات ، أو علوم اللغة العربية ، وكثير من الطلاب كان يأخذ من عند شيخ ، ثم يتحول عنه الى شيخ آخر أو حلقة أخرى ، لذلك نجد أكثر علماء العصر موسوعات علمية فى فنون شتى . (٢)

فكان طلب العلم ميسرا لكل من أراده بلا قيد ولا شرط الا الحرص على العلم ، وحضور الحلقة .

كما كانت الرحلة فى طلب العلم أسلوبا شائعا فى هذا العصر ، وخاصة فى سماع الحديث ، حرصا على التثبت فيه وعلو الاسناد .

---

(١) العصر العباسى الأول :د / شوقى ضيف (ص ١٠٤ — ١٠٥) ، العصر العباسى الثانى :د / شوقى ضيف (ص ١٢٢ — ١٢٣) .

(٢) العصر العباسى الثانى :د / شوقى ضيف (ص ١١٨) .

استخدام الورق فى الكتابة :

وكان استخدام الورق فى الكتابة وتصنيف الكتب منذ عصر الرشيد عاملا مهما فى ازدهار الحركة العلمية حينذاك .

فقد كان العلماء فى القرن الأول والثانى يكتبون فى الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردى والورق المستورد ، من الصين ، وكان ثمنه غاليا جدا .

فلما أنشأ الرشيد مصنع الورق ببغداد سنة (١٧٨ هـ) رخص ثمنه ، وانتشرت الكتابة فيه لخفته وسرعان ما كثرت الكتب والمصنفات ، كما كثر الوراقون الذين يعيشون من نسخها .

كما وجد أصحاب مكتبات الذين يؤجرون مكاتبهم للاطلاع على محتوياتها بأجرة قليلة ، فصار من لا يستطيع اقتناء الكتب لفقره يستطيع أن يطلع عليها فى المكاتب ودور الوراقين .

وعمل ذلك على نهضة الحركة العلمية نهضة واسعة ، اذ أصبحت الكتب والمصنفات تحت أعين الطلاب وبأيديهم ، يتزودون منها أزوادا كانت أيسر وأسهل من التلقى عن الشيخ والعلماء فى المساجد .(١)

وجود المكتبات :

كما كان لوجود المكتبات فى كل مكان أثر كبير فى ازدهار الحركة العلمية الى الامام .

فكانت هناك مكتبات عامة فى كل مكان ، يختلف اليها الناس ، اضافة الى المكتبات الخاصة .

---

(١) العصر العباسى الأول : د / شوقى ضيف (ص ١٠٣-١٠٤) .
العصر العباسى الثانى : د / شوقى ضيف (ص ١٢٣) .

أما المكتبات العامة : فكان على رأسها مكتبات المساجد ، اذ كان كثير من العلماء يقفون كتبهم عليها ليفيد منها طلاب العلم وعنى بعض المثقفين ببناء مكتبات عامة يتزود منها الناس أزوادا علمية مختلفة . (١)

ولا يكاد يكون عالم أو أديب الا وله مكتبة خاصة تموج بالكتب ، وكانوا يوظفون لها بعض الوراقين ، كما كانوا يجلدونها خوفا من التلف . (٢)

اختلاط الثقافات المختلفة وحركة الترجمة فى هذا العصر :

ولما كانت الدولة الاسلامية مزيجا من شعوب متعددة الجنسيات فقد ظهر فى الدولة العباسية خلاصة ثقافات مختلفة ، تلك التي تمثل حضارات الأمم المختلفة فى العلم والأدب والثقافة ، فتمازجت وائتلفت .

فكان النفوذ فى العهد العباسى الأول للفرس ، فقد انتشرت ثقافتهم انتشارا واسعا على أيدى الوزراء والكتاب الفارسيين ، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية ، والعرب الذين أتقنوا الفارسية الى العربية ، تراث الفرس القديم فى الحضارة والثقافة . (٣)

ودخلت الثقافة اليونانية على الفكر الاسلامى فى هذا العصر بامتزاج العرب واليونان فى الحياة الاجتماعية ، وخاصة فى الشام ، وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية الى العربية ، وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الاسلامى مباشرة وبواسطة الفرس أيضا . (٤)

---

(١) العصر العباسى الثانى : د / شوقى ضيف (ص ١٢٤) .

(٢) العصر العباسى الأول : د / شوقى ضيف (ص ١٠٣ — ١٠٤) ، والعصر العباسى الثانى : د / شوقى ضيف (ص ١٢٤ — ١٢٦) .

(٣) أبو عثمان الجاحظ : د / خفاجى (ص ٣٠ — ٣١) ، تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الاول : د / ابراهيم أبو الخشب (ص ١٤١) .

(٤) أبو عثمان الجاحظ : د / خفاجى (ص ٣١ — ٣٢) .

وتجمعت هذه الثقافات كلها فى العراق فى عصر ابن كلاب ، وأحدثت آثارها الضخمة فى العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج هذه الثقافات ، وصلة بين الفلسفة اليونانية والفكر الاسلامى .(١)

وازداد امتزاج هذه الثقافات فى العصر العباسى الثانى ، وقوى اتصالها ، وتلاقح الأفكار ، وظهرت آثار حركة الترجمة .(٢)

وقد غلبت على العصر العباسى الأول نزعة الاعتزال ، التى أيدها المأمون ومكن لها ، ودعم شوكتها المعتصم والواثق ، ولكن هذه النزعة الاعتزالية خفت حدتها بحمد الله وتوفيقه على يد المتوكل الذى أعلى شأن المحدثين وأمرهم بأن يحدثوا الناس بآيات الصفات وأحاديثها ، وأمر بترك الجدل والكف عن القول بخلق القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة .

وليس من شك أن العلوم الحديثة مثل الفلسفة وغيرها قد شغلت عقول المسلمين فى هذا العصر شغلا كبيرا ، وكان كثير من الخلفاء والوزراء ومشاهير رجال الدولة لا يضيقون بهذه العلوم الأجنبية ، بل أن بعضهم كان يميل اليها ويشجعها بسلطانه وجاهه .

وقد بدأت حركة الترجمة من أواخر عصر بنى أمية ، وبلغت ذروتها فى العصر العباسى ، حيث ترجمت معظم علوم الأمم السابقة الى اللغة العربية .

ولو أن الترجمة اقتصرت على الأمور العلمية البحتة النافعة كالطب والحساب وما شابه ذلك ، وتولى الترجمة لهذه العلوم من يكون ثقة فى دينه ، سليما فى معتقدة : لما كان فى ذلك بأسا ، ولكن الأمر وقع عكس ذلك.(٣)

وقد كان من بين هذه الكتب المترجمة ما هو نافع ومفيد ، كالعلوم العلمية التى تتعلق بالعلوم النافعة مثل الطب والصناعات وغيرها ، بينما كان أغلب هذه الكتب المترجمة يحمل الضرر الكبير والأذى الكثير للمسلمين فى دينهم وعقيدتهم .

---

(١) ضحى الاسلام : أحمد أمين (١/ ٣٨٠) .

(٢) أبو عثمان الجاحظ : د/ خفاجى (ص ٣٢) .

(٣) مقدمة محقق كتاب السنة للامام أحمد (١/ ٣٠) .

ولقد كان أعظم أيام الترجمة هى أيام الخليفة المأمون ، فقد ذكر التاريخ أن المأمون بعث لحاكم صقلية المسيحي يطلب منه أن يبادر بارسال مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتب الفلسفة ، وتردد الحاكم فى ارسالها ، وجمع رجالات دولته ، واستشارهم حول هذا الطلب ، فأشار عليه المطران بقوله : (أرسلها اليه ، فوالله ما دخلت هذه العلوم فى أمة الا أفسدتها) فأذعن الحاكم لمشورته ، وعمل بها .(١)

ثم أحضر المأمون حنين بن اسحاق ، الطبيب المسيحي الشهير ، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب حكماء اليونان الى العربية ، وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربية مثلا بمثل ، مما جعل حنينا يكتب على ورق غليظ ، ويباعد بين الأسطر ، ويكتب بالحروف الكبيرة ، هكذا استنزف حنين بن اسحاق وساعدوه وجلهم من النصارى أموال المسلمين لترجمة ما يُسَمَّى بالفلسفة .(٢)

وهكذا ترجم معظم علوم الأمم السابقة الى اللغة العربية ، ووصل الأمر الى الحد الذى صارت به العلوم المترجمة شرطا فى تكوين ثقافة الكاتب والأديب ، حتى نرى ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) يحمل فى مقدمة كتابه أدب الكاتب على الحالة فى عصره ، حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق .(٣)

---

(١) عصر المأمون : د / أحمد فريد الرفاعى (٢/٣٧٥ — ٣٧٧) .
(٢) مقدمة محقق كتاب السنة للامام أحمد (١/٣١) .
(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (ص ٣ — ٥) .

المبحث الرابع

الحالة الدينية :

بعد ما شاهدنا الحركة العلمية فى العصر العباسى الأول نتحدث الآن عن الجوانب الاعتقادية فى ذلك العصر ، لأنها تتعلق بموضوعنا .

فاذا نظرنا الى ذلك العهد من الوجهة الدينية : تبين لنا : أن القرن الثانى والثالث الهجرى امتاز بصورة خاصة بنشوء وظهور مذاهب مخالفة لمبادئ عقيدة التوحيد الاسلامية ، بتأثير الفلسفة اليونانية التى هبت ريحها ، وبدأ الاعتماد على العقل والرأى والمنطق اكثر من الاعتماد على الوحى .

كما أن الناظر فى تاريخ المسائل العقدية يجد : أن أظهر الفرق وأشهرها فى ذلك العهد هى فرقة المعتزلة ، تلك الفرقة المتقدمة على الدولة العباسية زمنا ، حيث ظهرت فى القرن الثانى الهجرى فى مدينة البصرة حول حلقة الحسن البصرى (١) (ت ١١٠ هـ) ، وانشقت عنه على يد واصل بن عطاء (٢) (ت ١٣١ هـ) ، وعمرو بن عبيد ، (٣) (ت ١٤٤ هـ) وعلا شأنها وسلطانها باعتناق الخليفة العباسى المأمون مذهبها .

---

(١) هو الحسن بن يسار البصرى ، أبو سعيد ، تابعى ، كان امام أهل البصرة وحبر الأمة فى زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ولد بالمدينة ، وشب فى كنف على بن أبى طالب ، وسكن البصرة ، وعظمت هيبته فى القلوب ، وله كلمات سائرة ، وكتاب فى فضائل مكة ، توفى بالبصرة ، (الأعلام للزركلى ٢/٢٢٦) .

(٢) هو واصل بن عطاء ، المعروف بالغزال ، أبو حذيفة ، من موالى بنى ضبة ، أو بنى مخزوم ، رأس المعتزلة ، كان يلتغ بالراء ، فيبلاغته هجر الراء ، وكان يتجنبها فى خطابه ، سمع الحسن البصرى وغيره .
ولد سنة ثمانين بالمدينة ، هو أول من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين ، له من الكتب : كتاب أصناف المرجئة وكتاب التوبة وكتاب معانى القرآن ، مات سنة احدى وثلاثين ومائة (لسان الميزان ٦/٢١٤ — ٢١٥) ، شذرات الذهب (١/١٨٢ — ١٨٣) الاعلام (٩/١٢١ — ١٢٢) .

(٣) عمرو بن عبيد بن باب ، التميمى ، بالولاء ، أبو عثمان ، البصرى ، ==

ولا يقل عنها أثرا الفرق الأخرى كالشيعة والخوارج والمرجئة ، فقد كان لكل واحدة منها أثرها فى حياة المسلمين .

والدارس لهذه الفرق الاعتقادية التى حدثت فى آخر عهد الصحابة وبنى أمية وتطورت فى العصر العباسى تطورا ظاهرا يستطيع أن يلخص الأسباب التى أدت الى ظهورها فى النقاط التالية :

١ ـ انتشار الفتح الاسلامى فى بقاع كثيرة ، ودخول كثير من أهل الديانات القديمة الاسلام من يهود ونصارى ومجوس وغيرهم ، ظلت فى رؤوس بعضهم بقايا فكرية من دياناتهم القديمة ، فكانوا يفكرون فى الحقائق الاسلامية على ضوء اعتقاداتهم ، وقد أثاروا بين المسلمين ما كان يثار فى دياناتهم من الكلام فى الجبر والاختيار وصفات الله . . . الخ .

٢ ـ وجود بعض الناقمين على الاسلام داخل الصف الاسلامى ، لأنه يجب أن نقرر أنه كان بجوار الذين دخلوا فى الاسلام مخلصين له آخرون أظهروا الاسلام وأبطنوا الكفر ، وما كان دخولهم الا لافساد دين المسلمين عليهم ، فهؤلاء وأمثالهم ما كان الاسلام منهم وما كانوا هم من أمة الاسلام .(١)

٣ ـ أثر الترجمة وشيوع التفكير الفلسفى : لقد أثرت الترجمة على الفكر الاسلامى حيث كانت الكتب الفلسفية المترجمة تحمل من المذاهب القديمة فى الكون والمادة وما وراء الطبيعة الشيء الكثير .

== شيخ المعتزلة فى عصره ، واليه تنسب الفرقة العمروية من المعتزلة ، ولد سنة ٨٠ هـ ، وتوفى بمران قرب مكة سنة (١٤٤ هـ) ، من أقوال هذه الفرقة : تفسيق الفريقين من أصحاب الجمل ، وأنهم خالدون فى النار ، ولا يقبلون شهادة أحد منهم ، وغير ذلك من الأقوال الضالة ، انظر : الفرق بين الفرق (ص ١٢٠ ـ ١٢١) التبصير فى الدين (ص ٦٩) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازى (ص ٤٠) ، الاعلام (٥/٨١) .

(١) تاريخ المذاهب الاسلامية : محمد أبو زهرة (ص ٢٩) .

فظهر من علماء المسلمين من نزعوا منزع الفلاسفة الأقدمين وأخذوا بطريقهم ، فشاع التفكير الفلسفي بينهم في اثبات العقائد ، كمسألة اثبات صفات الله تعالى ونفيها ، ومسألة قدرة العبد بجوار قدرة الرب، وغيرها كثير ، وظهور أمثال هذه المسائل فتحت أبواب الاختلاف ، نظرا لاختلاف الأنظار وتباين المسالك والمفاهيم .(١)

فهذه الاختلافات ما كان ليكون لها هذا الأثر : لو اقتصر علماء الكلام على منهج السلف ، والتزموا طريقتهم في التمسك بالكتاب والسنة في جدال أهل الديانات والمعتقدات السابقة ، ولكن الأمر كان عكس ذلك .

يقول سيد قطب رحمه الله :" بل استقت الأجيال التالية فلسفة الاغريق ومنطقهم ، وأساطير الفرس وتصوراتهم ، واسرائيليات اليهود ، ولاهوت النصارى ، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات عندما ترجمت كتب الأمم الأخرى الى اللغة العربية ، وأقبل أكثر الناس على الكتب المترجمة بدون التمييز بين الغث والسمين ، واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم وعلم العقائد والفقه والأصول مما نتج عنه اختلاف الناس في باب العقائد ونشوء الفرق الاعتقادية ".(٢)

كان المسلمون في عهدهم الأول يأخذون بنص القرآن والحديث ، لا تدعوهم حاجة الى تحميل النصوص من المعاني فوق دلالتها الظاهرة ، فقد كان المسلمون وهم عرب كلهم قانعين بنصوص كتابهم ، مكتفين بارشادات نبيهم عليه الصلاة والسلام .

---

(١) تاريخ المذاهب الاسلامية ، محمد أبو زهرة (ص ١٤) .

(٢) معالم في الطريق : سيد قطب (ص ١٤) .

"ولكن عامة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات فى هذا القدر انما وقع فى الأمة فى أواخر خلافة الخلفاء الراشدين ، ومن ذلك آراء الخوارج والرافضة ، وبعد ذلك آراء القدرية والمرجئة ، وقد أنكر الصحابة هذه الآراء ، وبينوا مخالفتها لعقيدة الاسلام الصافية ".

وهذه الآراء المخالفة لما عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، هى النواة الأولى للفرق المتعددة التى عرفت فيما بعد بالشيعة والخوارج والمرجئة والقدرية والجهمية والمعتزلة وغيرهم ، والتى أصبحت فى عهد ابن كلاب لها آراء وأفكار منظمة تعرف بها وتدافع عنها وتدعو اليها .

ويصنف المؤرخون فرق المخالفين للسلف الى فرق اسلامية وفرق غير اسلامية ، مستندة فى أصولها الى أسس غريبة عن الاسلام ، ممثلة فى مبادئ وحركات الزنادقة (٢) .

وحيث أن ابن كلاب قد وجه جهوده للرد على الجهمية والمعتزلة والقدرية ، أى الفرق الاسلامية فإننا سنكتفى هنا بالكلام عنها ، دون الزنادقة ، حيث لم نجد له جهودا فى هذا الميدان .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥٤ — ٣٥٧) .

(٢) الزندقة : هى الحركة الفكرية والاجتماعية عرفت بالزندقة ، وكان من رجالها وروادها الأوائل جماعة من الموالى الفرس ومن الشعوبية غالبا .
ولهذا الاصطلاح معان مختلفة ، فكان العرب فى أول الأمر يطلقون لفظ زنديق على من لا يؤمن بوجود الله ، أو من يبطن الكفر ويتظاهر بالايمان ، وكذلك أطلق لفظ زنديق على من كان يتشبه بالفرس ويسرف فى العبث والمجون ، ويدمن شرب الخمر ، كما أطلق أيضا على من يتظاهر بالظرف أو بالتحرر الفكرى أو بالثقافة الرفيعة .
غير أن الزندقة الحقيقية التى ظهرت فى العصر العباسى كانت تتمثل فى اعتناق الديانة المانوية التى تؤمن بوجود إلهين ، وتدعو الى عبادتهما ، ==

(١) الشيعـــة :

هم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه على الخصوص ، وقالوا بامامته وخلافته نصا ووصيـــة ، اما جليا واما خفيا ، واعتقدوا أن الامامة لا تخرج من أولاده ، وان خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده ‎.‎ (١)

وقد ظهروا بمذهبهم فى آخر عصر عثمان رضى الله عنه ، ثم فى عصر علـــى رضى الله عنه ، وقد نما عددهم من بعد .

وأصل وجود الغلو فى شخصية على رضى الله عنه هو عبد الله بن سبـــأ (٢) ، لأنه أول من بذر فكرة التشيع اصطلاحا ، فقد ظهرت الأفكار الشيعية على يـــد هذا الرجل اليهودى الذى ادعى اسلامه بعد السنة السادسة من خلافة عثمـــان رضى الله عنه ، وزعم محبة آل البيت ، وغلا فى على رضى الله عنه ، وادعى له الوصية بالخلافة ، ثم رفعه الى مرتبة الألوهية ، فأصبحت هذه العقائد والآراء الشـــاذة التى أظهرها ونادى بها أساسا لغرق الشيعة فيما بعد .

== وكانت تقوم هذه الزندقة على نوع من المساواة الفاسدة التى تبيح المحرمات وتلوث المجتمع ، وتعرض الحياة السياسية والدينية للخطر .
ويقال : ان الميل الى الزندقة بدأ في أواخر العصر الأموى ، لكن الزندقة ظهرت كحركة بعد قيام الدولة العباسية .
وتصدى المهدى فى سنة (١٦٦ هـ) للزنادقة ، وأنشأ ديوانا خاصـــا للبحث عن الزنادقة ، والتفتيش عنهم ومحاكمتهم ، كما أمر بوضع الكتـــب للرد عليهم ومناظرتهم .
وتابعه على هذه السياسة ابنه الهادى الذى جد فى تعقبهم واستئصالهم .
وحذا الرشيد حذوه ، وكان يعاقب من تثبت عليه تهمة الزندقة .
وانتهت حركة الزندقة بأن صارت حركة فكرية ذات طابع فردى ، ووقفت عنـــد حد المهاترات باللسان والقلم .
أنظر (دراسات فى تاريخ الدولة الاسلامية ، د / حسن الباشا ، ص ٥٣ - ٥٤) .

(١) الملل والنحل للشهرستانى (١٤٦/١) .

(٢) هو عبد الله بن سبأ ، رأس الطائفة السبئية ، وكانت تقول بألوهيـــــة ==

قال البغدادي : " السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ الذى غلا فى على رضى الله عنه ، وزعم أنه كان نبيا ، ثم غلا فيه حتى زعم أنه اله " .(١)

وقال أيضا : " وكان ابن السوداء " أى : ابن سبأ " فى الأصل يهوديا من أهل الحيرة ، فأظهر الاسلام ، وأراد أن يكون له عند أهل الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه وجد فى التوراة أن لكل نبى وصيا ، وأن عليا رضى الله عنه وصى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه خير الأوصياء كما أن محمدا خير الأنبياء " .(٢)

وذكر الشهرستانى عنه : أنه أول من أظهر القول بالنص بامامة على رضى الله عنه ، وذكر عن السبئية : أنها أول فرقة قالت بالتوقف والغيبة والرجعة ،(٣) ثم ورثت الشيعة القول بامامة على وخلافته نصا ووصية ،(٤) وهى من مخلفات ابن سبأ .

فقد انقسم الشيعة فيما بعد الى عدة فرق ، يرجع انشقاقهم هذا الى اختلافهم فى سوق الامامة وفيمن تكون الامامة ، فما من امام يموت الا ويختلف عليه أتباعه .

وهم خمس فرق رئيسية : زيدية وكيسانية وامامية اثنا عشرية واسماعيلية وغلاة .(٥)

== على رضى الله عنه ، أصله من اليمن رحل الى الحجاز فالبصرة فالكوفة ، ودخل دمشق فى أيام عثمان رضى الله عنه ، فأخرجه أهلها ، فانصرف الى مصر ، وجهر ببدعته ، وكان يقال له ابن السوداء لسواد أمه .
انظر : مقالات الاسلاميين للأشعرى (ص ١١) ، الأعلام (٤/٨٨) .

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى (ص ٢٣٣) .

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادى (ص ٢٣٥) .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى (١/١٧٤) .

(٤) نفس المصدر (١/١٤٦) .

(٥) نفس المصدر (١/١٤٧) .

وأهم القضايا التى اختلفوا فيها مع أهل السنة هى قضية الامامة ، حيث يقولون : أن النبى صلى الله عليه وسلم عهد لعلى رضى الله عنه ولذريته بها من بعده ، أى وصى بهم فى حياته ، فقالوا :" ليست الامامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الامام بنصبهم ، بل هى قضية أصولية ، وهى ركن الدين ، لا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام اغفاله أو اهماله ، ولا تفويضه الى العامة وارساله " .(١)

ويقوم مذهبهم فى الامامة بجانب ما ذكرناه عن الامامة بالوصاية ، ونسبوا للأئمة الأوصياء العصمة ، وقالوا بالمهدية والرجعة ، كما توسعوا فى أحكام التقية .

"وأما فى الأصول : فبعضهم يميل الى الاعتزال ، وبعضهم الى السنة ، وبعضهم الى التشبيه ،"(٢) ويقولون فى كثير من المسائل الأصولية كما قالت المعتزلة .

(٢) الخوارج :

هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد قبوله فكرة التحكيم ، صائحين (لا حكم الا لله) ،(٣) مع أنهم هم الذين أكرهوه على قبوله عند ما رفع أصحاب معاوية رضى الله عنه المصاحف .

وقد خرجوا على الامام على نتيجة سوء فهمهم لقضية التحكيم ، وزعموا أن عليا حكم الرجال فى دين الله .

وقد احتجوا فى هذه القضية بقول الله تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) .(٤)

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (١/١٤٦) .
(٢) نفس المصدر (١/١٤٧) .
(٣) نفس المصدر (١/١١٤ — ١١٥) .
(٤) سورة المائدة (٤٤) .

وقوله عز وجل : (فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى أمر الله) [١] ، فقالوا :
فأمر الله عز وجل وحكم بقتال أهل البغى ، وترك على قتالهم لما حكم ، وكان
تاركا لحكم الله سبحانه مستوجبا للكفر ، لقول الله تعالى : (ومن لم يحكم بما
أنزل الله فأولئك هم الكافرون) [٢] .

وقد حاول على رضى الله عنه أن يزيل عنهم ما التبس عليهم من أمر التحكيم ،
فرجع أكثرهم عن اعتقادهم ، وأصر بقيتهم ، فقاتلهم على رضى الله عنه ، وهزمهم ،
وبقيت منهم شرادم أصبحوا فيما بعد أصول الخوارج .

فقد اختلف مؤرخو الفرق فيما أجمع الخوارج عليه من آراء على افتراق
مذاهبهم ، فيرى الكعبى [٣] والشهرستانى [٤] ان الذى يجمعهم هو :

أ ــ تكفير على وعثمان والحكمين ، عمرو بن العاص وأبى موسى الأشعرى ، وأصحاب
الجمل ، عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير وكل من رضى بتحكيم الحكمين ،
ويقدمون ذلك على كل طاعة ، ولا يصححون المناكحات الا على ذلك .

ب ــ تكفير مرتكب الكبيرة واعتباره كافرا مخلدا فى النار ، باستثناء الاباضية عند
الشهرستانى ، حيث قالت الاباضية : ان مرتكبى الكبائر موحدون لا مؤمنون ،
لذا مناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال ، لأنهم انما كفروا كفر النعمة ، لا كفر
الملة ، [٥] أما الأزارقة والعجاردة فقد قرروا أن مرتكب الكبيرة كافر ،
خالد مخلد فى النار . [٦]

---

(١) سورة الحجرات (٩) .
(٢) تاريخ المذاهب الاسلامية (ص ٦٦) .
(٣) الفرق بين الفرق (ص ٧٣) .
(٤) الملل والنحل (١/١١٥) .
(٥) الملل والنحل (١/١٣٥) .
(٦) نفس المصدر (١/١٢٢ ، ١٢٨) .

جـ ـ وجوب الخروج على الامام الجائز ، اذ جوزوا أن تكون الامامة فى غير قريش، وكل من نصبوه برأيهم وعاشر الناس بالعدل واجتناب الجور كان اماما ، ومن خرج عليه يجب القتال معه ، وان غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله .[1]

وأما الأشعرى[2] ـ ويتابعه فى ذلك البغدادى[3] ـ فيرى : أن الخوارج أجمعوا على الرأيين الأول والثالث ، أما الرأى الثانى ـ أى تكفير مرتكب الكبيرة ـ فهو من الآراء التى لم يجمعوا عليها .

وأما بالنسبة لقضية الايمان والعمل : يقولون فيها ان العمل جزء حقيقى من الايمان ، فمن خالف واقترف معصية صغيرة أو كبيرة (عند الأزارقة) يكفر بها صاحبها ،[4] بل قالت بذلك المحكمة الأولى أيضا الذين كفروا عليا بخطأ التحكيم .

وأكبر فرق الخوارج : المحكمة الأولى والأزارقة والنجدات والبيهسية والعجاردة والثعالبة والاباضية والصفرية ، والباقون فروعهم .[5]

(٣) المرجئة :

الارجاء على معنيين ، فهو فى اللغة التأخير ،[6] وأما فى الاصطلاح فهو تأخير العمل عن الايمان .[7]

---

(١) الملل والنحل (١/١١٦) .

(٢) مقالات الاسلاميين للأشعرى (ص ٨٦ ، ١٢٥) .

(٣) الفرق بين الفرق (ص ٧٣ ـ ٧٤) .

(٤) الملل والنحل (١/١٢٢) .

(٥) نفس المصدر (١/١١٥) .

(٦) مختار الصحاح ، مادة رجأ (ص٢٣٣) .

(٧) الفرق بين الفرق (ص ٢٠٢) ، الملل والنحل (١/١٣٩) ، مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (١/٢٩) .

فان أول ما ظهر الارجاء انما كان رد فعل لتكفير الخوارج للحكمين ولعلى ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وليس هو الارجاء المتعلق بالايمان .

وأول من تكلم فى الارجاء هو الحسن بن محمد بن الحنفية (٩٩ هـ)(١) ، لم يكن كلامه الا فى ارجاء أمر المشتركين فى فتنة عثمان رضى الله عنه الى الله عز وجل .

يقول ابن حجر رحمه الله : " المراد بالارجاء الذى تكلم الحسن بن محمد فيه غير الارجاء الذى يعيبه أهل السنة المتعلق بالايمان"، كان الحسن يقول : «ونوالى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، ونجاهد فيهما ، لأنهما لم تقتتل عليهما الأمة ، ولم تشك فى أمرهما ، ونرجئ من بعدهما ممن دخل فى الفتنة ، ونكل أمرهم الى الله . . . " .(٢)

ولما اشتدت الخلافات بين المسلمين ، وشاع الكلام فى حكم مرتكب الكبيرة وجدت طائفة تنهج منهج الارجاء ، فقرروا أن مرتكب الكبيرة يرجأ أمره ، ويفوض الحكم فيه الى الله تعالى يوم القيامة ، فعسى أن يكون من المرتكب ما يكفر ذنوبه ، ويبدل سيآته حسنات .

ولكن جاء من بعد هؤلاء خلف لم يقف من مرتكب الكبيرة ذلك الموقف ، بل تجاوزه ، وقرر أنه لا يضر مع الايمان ذنب ، لأن الايمان اقرار وتصديق واعتقاد ومعرفة ، وأنه منفصل عن العمل(٣) ، بل منهم من غالى وأفرط وتطرف ، فزعم أن الايمان اعتقاد بالقلب ، وان أعلن الكفر بلسانه وعبد الأوثان ، أو لزم اليهودية أو النصرانية فى دار الاسلام وعبد الصليب وأعلن التثليث فى دار الاسلام ومات على ذلك : فهو مؤمن كامل الايمان عند الله ، ولى لله تعالى ، ومن أهل الجنة(٤) ، وهذا قول جهم بن صفوان السمرقندى(٥) .

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/٣٢٨) .

(٢) تهذيب التهذيب (٢/٣٢٠ — ٣٢١) .

(٣) تاريخ المذاهب الاسلامية (ص ١٢١) .

(٤) الفصل : لابن حزم (٥/٧٣) .

(٥) هو الجهم بن صفوان السمرقندى ، أبو محرز ، من موالى بنى راسب ، ==

كان الجهم (١٢٨ هـ) من المرجئة ، فقد زعم : أن الايمان هو المعرفة بالله تعالى فقط ، وأن الكفر هو الجهل به فقط ، (١) ولعله أخذه من غيلان الدمشقي (١٠٥ هـ) ، اذ كلاهما كانا موجودين في أوائل القرن الثاني ، يقول الأشعري في غيلان : " وذكر زرقان عن غيلان : أن الايمان هو الاقرار باللسان وهو التصديق ، وأن المعرفة بالله فعل الله تعالى ، وليست من الايمان في قليل ولا كثير ، واعتل بأن الايمان في اللغة التصديق " (٢) .

فقد بدأت المرجئة — كما تقدم — في مواجهة الخوارج الذين كفروا عليا رضي الله عنه والحكمين معه ، ولكن لم يلبث الحديث في الارجاء الى أن انتهى الى القول بأنه لا تضر مع الايمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وهكذا تجاوزوا الحد في الاستهانة بأصل الايمان حيث حرفوا حقيقته ، وجعلوه مجرد الاذعان القلبي ، وكذا في الاستهانة بالعمل من حيث اتصاله بأصل الايمان وأثره في دخول الجنّة والنار .

ويظهر أن فكرة الارجاء التي صدرت عنها هذه الفرقة لم تكن خاصة بالمرجئة وحدهم كفرقة مستقلة ، بل شاع الارجاء بين كثير من الفرق .

(٤) الجبرية والجهمية :

كان الاعتقاد بالقضاء والقدر بدلالته الظاهرة هو معتمد المسلمين في ايمانهم وأعمالهم ، لا يناقشون فيه ولا يجادلون ، الى أن شاع القول بالتخيير على يد معبد وغيلان ، فتصدى لهما جماعة غالت في القول بالجبر ، فعرفت بالجبرية .

== رأس الطائفة الجهمية ، الضال المضل ، المبتدع ، زرع شرا عظيما ، قتله بمرو سلم بن أحوز على شط نهر بلخ ، سنة (١٢٨ هـ) أنظر : لسان الميزان (٢/١٤٢) ، الفرق بين الفرق (٢١٢) ، الأعلام (٢/١٤١) .

(١) الفرق بين الفرق (ص ٢١١) ، مقالات الاسلاميين للأشعري (٢٧٩) .

(٢) مقالات الاسلاميين (١٣٧) ، الفرق بين الفرق (٢٠٦) .

والجبر هو نفي العمل حقيقة عن العبد ، واضافته الى الله سبحانه وتعالى ،(١) أي : أن الانسان لا ارادة له لكل ما يجرى على يديه .

والجبرية أصناف ، فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا ، والجبرية المتوسطة : هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلا ، فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثرا ما في الفعل وسمى ذلك كسبا فليس بجبري .(٢)

ومن الجبرية الخالصة : الجهمية ، وهم أصحاب جهم بن صفوان الذي ظهرت بدعته في آخر ملك بني أمية ،(٣) فقد ناقش القدرية في ماذهبوا اليه من القول بحرية العبد ، وقرر أن العبد مسير بالارادة الالهية تسييرا مطلقا ، لكنه وافقهم في نفي الصفات الأزلية ، وزاد عليهم بأشياء ، منها قوله : لا يجوز أن يوصف الله سبحانه وتعالى بصفة يوصف بها خلقه ، لأن ذلك يقتضي تشبيها ، فنفى كونه حيا عالما ، وأثبت كونه قادرا فاعلا خالقا ، لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق ،(٤) وهكذا نفى صفات الله تعالى وأسماءه .

وزعم الجهم : أن الايمان هو المعرفة بالله تعالى فقط ، وأن الكفر هو الجهل فقط ، وعلى مقتضى ظاهر مذهبه يكون اليهود الذين عرفوا أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنين ، وكذلك المشركون الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، ولكنه يقول : أن الاذعان يتبع المعرفة التي تعتبر ايمانا هي مجرد التصور ، بل انها المعرفة القوية التي توجب التصديق والاذعان .(٥)

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني (١/٨٥) .

(٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٣) نفس المصدر (١/٨٦) .

(٤) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٥) تاريخ المذاهب الاسلامية : محمد أبو زهرة (ص ١٠٦ — ١٠٧) .

وقد قال جهم بخلق القرآن ، وفناء الجنة والنار وفناء حركات أهلهما ، وانكار الرؤية السعيدة ، وايجاب المعارف بالعقل قبل ورود الشرع ، وقد أخذ أكثر أقواله عن الجعد بن درهم (١) (٢) .

وقد خاض المؤرخون فى بيان أول من تكلم بهذه النحلة ـ أى خلق القرآن ـ ، فقد روى ابن كثير : أن الجعد أخذ مقالته هذه عن أبان بن سمعان ، وأخذها أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم زوج ابنته ، عن خاله لبيد بن أعصم الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان (٣) .

وذكر شيخ الاسلام ابن تيمية : أن الجعد بن درهم قيل انه من أهل حران ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة ، فكانت الصابئة ـ الا قليلا منهم ـ اذ ذاك على الشرك ، وعلماؤهم هم الفلاسفة ؛

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (١/ ٨٧ ـ ٨٨) ، الفرق بين الفرق (ص ٢١١) .

(٢) الجعد بن درهم ، مولى لبنى الحكم ، كان يسكن فى دمشق ، مبتدع ضال ، له أخبار كثيرة فى الزندقة ، أخذ برأيه جماعة ، كان مؤدبا لمروان بن محمد الحمار ، هو أول من تكلم بخلق القرآن بدمشق ، أمر هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله القصرى بقتل الجعد ، فضحى به خالد يوم الأضحى بواسط ، أنظر : لسان الميزان (٢/ ١٠٥) ، منهاج السنة (١/ ٢٢١) ، ط . دار العروبة ، د رء تعارض (٥/ ٢٤٤) ، الأعلام (٢/ ١١٤) .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٠/ ٢٢ ـ ٢٣) .

ثم قال رحمه الله : " ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب : انه ليس له الا صفات سلبية أو اضافية أو مركبة منهما، وهم الذين بعث اليهم ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة".(١)

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٢١) ، الفتوى الحموية الكبرى (ص٢٥) ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل (١/ ٣١١ — ٣١٢) ، الا أن عبارة "الدرء" مغايرة لعبارة "الفتاوى" ، وليس فيها : " المركبة منهما " ، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية فيها : " وهؤلاء القوم عامتهم من نفاة صفات الله وأفعاله القائمة به ، كما هو مذهب الفلاسفة المشائين ، فانهم يقولون : انه ليس له صفات ثبوتية ، بل صفاته اما سلبية واما اضافية ، وهو مذهب القرامطة الباطنية القائلين بدعوة الكواكب". الدرء (١/ ٣١٢) .

أما الصفات السلبية فهي : ما كان مدلولها عدم أمر لا يليق بالله عز وجل ، مثل قولهم : ان الله واحد بمعنى أنه مسلوب عنه القسمة بالكم أو القول ، ومسلوب عنه الشريك .

كما سيأتي تعريفها بالتفصيل (ص ١٦٧) من الرسالة .

والصفات الاضافية : هي التي لا يوصف الله بها على أنها صفة ثابتة له ، ولكن يوصف بها باعتبار اضافتها الى الغير ، كقولهم عن الله : انه مبدأ وعلة ، فهو مبدأ وعلة باعتبار أن الأشياء صدرت منه ، لا باعتبار صفة ثابتة له هي البداءة والعلية .

والمركبة منهما : هي التي تكون سلبية باعتبار ، واضافية باعتبار ، كقولهم عن الله تعالى : انه أول ، فهي سلبية باعتبار أنه مسلوب عنه الحدوث، اضافية باعتبار أن الأشياء بعده .

انظر : فتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عثيمين (ص٩١)، ضمن (رسائل في العقيدة ، ط . مكتبة الوعي الاسلامي ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م) .

(٥) القدريـــة :

ان أول من اشتهر عنه القول بأن العبد مخير لا مسير : هو معبد بن خالد الجهني ،[١] قيل أخذه عن نصراني من أهل العراق ، كان قد اعتنق الاســلام ، ثم ارتد الى النصرانية ، وعن معبد أخذه تلميذه وملازمه وخلفه غيلان بن مروان الدمشـقي ،[٢] وهو الذى نشره وعممه ، وجادل فيه أكثر جدال ، ودافع عنـــه أشد الدفاع ، ثم ألحق به آراء أخرى له فى مسائل اعتقادية .

يقول ابن القيم رحمه الله عن القدرية : " نبغ فى عهد التابعين وأواخـــر عهد الصحابة القدرية ، مجوس هذه الأمة ، الذين يقولون : لا قدر ، وان الأمـر أنف ، فمن شاء هدى نفسه ، ومن شاء أضلها ، ومن شاء بخسها حظها وأهملهـا ، ومن شاء وفقها للخير وكملها ، كل ذلك مردود الى مشيئة العبد ومقتطع مـــن مشيئة العزيز الحميد ، فأثبتوا فى ملكه ما لا يشاء ، وفى مشيئته ما لا يكون " .[٣]

---

(١) هو معبد بن خالد الجهني ، القدرى ، ويقال : ابن عبد الله بن عكيـم ، ويقال : اسم جده عويمر ، أو عويم ، وهو أول من أظهر القول بالقـــدر بالبصرة ، حضر يوم التحكيم ، وانتقل من البصرة الى المدينة ، فنشر فيهـا مذهبه ، مبتدع ضال مضل ، نهى الحسن عن مجالسته ، قتل سنة (٨٠ هـ) .
انظر : ميزان الاعتدال (٤ / ١٤١) ، تقريب التهذيب (٢ / ٢٦٢) ، تهذيب التهذيب (١٠ / ٢٢٥ — ٢٢٦) .

(٢) هو غيلان بن مسلم الدمشقى ، أبو مروان ، تنسب اليه فرقة الغيلانيـــة ، وهو ثانى من تكلم فى القدر ، وله رسائل نحو ألفى ورقة ، كان مالك ينهـى عن مجالسته ، وناظره الأوزاعى ، وأفتى بقتله ، فصلب بدمشق بعد ســنة (١٠٥ هـ) .
انظر : ميزان الاعتدال (٣ / ٣٣٨) ، لسان الميزان (٤ / ٤٢٤) .

(٣) شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل : لابـن القيـم (ص ٣) ، (بتحقيق السيد محمد بدر الدين) .

ويتضح لنا من هذا النص : أن القدرية تثبت للانسان قدرة على أفعالـه ، وحرية فى اختيارهـا .

وقد حفظ المعتزلة تعاليم القدرية بعدهم ، فدرسوها ، وشرحوهـا ، وتوسعوا فيها ، ولذلك تعتبر المعتزلة ورثة القدرية .

وقد سبق الشهرستانى ابن القيم فى توضيح ذلك ، فقال : " حدثت فـى آخر أيام الصحابة بدعة معبد الجهنى وغيلان الدمشقى ويونس الأسوارى فى القول بالقدر وانكار اضافة الخير والشر الى القدر ، ونسج على منوالهم واصل بن عطاء الغزال ، وكان تلميذ الحسن البصرى ، وتلمذ له عمرو بن عبيد ، وزاد عليه فـى مسائل القدر ، والقدرية ابتدعت بدعتهم فى زمن الحسن ، واعتزل واصل عنهم وعن أستاذه بالقول بالمنزلة بين المنزلتين ، وسمى هو وأصحابه معتزلة " .(١)

وقال الشهرستانى أيضا : " المعتزلة ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ، ويلقبون بالقدرية ، قالوا : لفظ القدرية يطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى ، احترازا عن وصمة اللقب ، اذ كان الذم به متفقا عليه لقول النبـى عليه السلام " القدرية مجوس هذه الأمة "(٢) ، وكانت الصفاتية تعارضهم بالاتفـاق على أن الجبرية والقدرية متقابلتان تقابل التضاد ، فكيف يطلق لفظ الضد على الضد ، وقد قال النبى عليه السلام " القدرية خصماء الله فى القدر "(٣) ، والخصومة فى القدر وانقسام الخير والشر على فعل الله وفعل العبد لن يتصور على مذهب من يقـول بالتسليم والتوكل واحالة الأحوال كلها على القدر المحتوم والحكم المحكوم ".(٤)

(٦) المعتزلـة :

المعتزلة هى أهم الفرق الكلامية ، اذ تجمعت فيها حصيلة الآراء التى دار حولها الجدل بين الجبرية والقدرية والمرجئة ، واستند فيها النهج الفكرى الـى

---

(١) الملل والنحل (١/ ٣٠) .
(٢) سيأتى تخريج الحديث فى صفحة (٤٠) من الرسالة .
(٣) مجموع الزوائد للهيثمى (٧/ ٢٠٦) ، (ط. دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م) ، والسنة لابن أبى عاصم (١/ ١٤٨) ، قال الألبانى فى تخريجه : اسناده ضعيف .
(٤) الملل والنحل (١/ ٤٣) .

أصول عقلية اغريقية ، وانجلت المبادئ المستمدة من اللاهوتين اليهودى والمسيحى نشأت هذه الفرقة فى حدود نهاية المائة الأولى للهجرة فى مدينة البصرة ، التى كانت موضعا يلتقى فيه أتباع الأديان المختلفة المنتشرة آنذاك ، فيحتك بعض الأديان ببعض ، وتترك فى نفوس أربابها أثرا بعيدا عميقا " .(١)

أما كيف نشأت فرقة المعتزلة ؟ ولماذا سميت بهذا الاسم ؟

أجمع المؤرخون على أن المعتزلة نشأت على يد واصل بن عطاء وعمرو ابن عبيد ، اثر الخلاف الذى قام بينهما وبين الحسن البصرى حول مصير مرتكب الكبائر ،(٢) ثم توالى من بعدهما شيوخ المعتزلة فى البصرة وبغداد يأخذ الواحد عن الآخر ليعطى غيره ، الا أن البعض الآخر من الباحثين يذهب الى أن نشأة الاعتزال كانت سابقة على هذا العهد ، فانهم يرون أن الاعتزال ابتدأ فى قوم من أصحاب على رضى الله عنه اعتزلوا السياسة ، ولزموا مساجدهم يشتغلون بالعلم والعبادة عندما نزل الحسن بن على بن أبى طالب عن الخلافة لمعاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنهم أجمعين ، فهم أصل المعتزلة .

يقول أبو الحسين الملطى : " وهم سموا أنفسهم معتزلة ، وذلك عندما بايع الحسن بن على عليه السلام معاوية ، وسلم اليه الأمر : اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس ، وكانوا من أصحاب على ، ولزموا منازلهم ومساجدهم ، وقالوا : نشتغل بالعلم والعبادة " .(٣) ولكن قول الملطى هذا قول بعيد عن الصواب ، وليس له عليه دليل ، الا أن الثابت ان نشأة المعتزلة كانت بعد ذلك بوقت غير قصير .

---

(١) المعتزلة : زهدى جار الله (ص ٢٢ — ٢٦) .

(٢) الملل والنحل (١/٤٦) ، الفرق : (١١٧) ، الرازى : اعتقادات (٣٩) الاسفراينى : التبصير (ص ٦٨) ، ظهر الاسلام (٤/٧ وما بعدها) نشأة الفكر الفلسفى (١/٢٦٦) .

(٣) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع : للملطى (ص ٣٦) ، تبيين كذب المفترى لابن عساكر (ص ١٠) ، تاريخ المذاهب الاسلامية : أبو زهرة (ص ١٢٤) .

أما مؤرخو المعتزلة فانهم يرون أن مذهبهم أقدم فى نشأته من واصل ، ويحاول الكثير منهم ربط مذهبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يدعون أن اسنادهم المتصل بالرسول صلى الله عليه وسلم ليس لأحد من فرق الأمة مثله ، كما يحاول بعضهم ربط مذهبهم بآل البيت ، (١) وهذا الرأى مردود لأن أهل البيت كانوا من أهل السنة والجماعة ، ولم يعرف عنهم الاعتزال ، بل كانوا مشتغلين برواية الحديث وطلب العلم .

ويحاول بعضهم لربط سند المعتزلة بالحسن البصرى رحمه الله ، وقد بلغ بهم الأمر الى تأليف رسالة نسبوها الى الحسن البصرى ، وقد أبطل الشهرستانى نسبة هذه الرسالة الى الحسن ، وبين أنها لواصل بن عطاء ، لأن الاجابة توافق مذهب القدرية ، ولأن الحسن ما كان ممن يخالف السلف فى أن القدر خيره وشره من الله تعالى . (٢)

وعلى ضوء ما تقدم نقول : ان السبب المباشر لظهور فرقة المعتزلة هو حادثة انفصال واصل بن عطاء الغزال مع عمرو بن عبيد عن حلقة استاذه الحسن البصرى ، بعد أن ابتدع مقالته فى المنزلة بين المنزلتين كحركة مستقلة ذات منهج خاص ونمط معين .

وقد ذكر عبد القاهر البغدادى أن واصلا بن عطاء كان من منتابى مجلس الحسن البصرى فى زمان فتنة الازارقة ، وكان الناس يومئذ مختلفين فى أصحاب الذنوب من أمة الاسلام على فرق ، فرقة : تزعم أن كل مرتكب للذنب صغير أو كبير مشرك بالله ، وكان هذا قول الازارقة من الخوارج ، وفرقة تزعم أن صاحب الذنب المجمع على تحريمه كافر مشرك ، وفرقة تقول انه منافق ، وكان علماء التابعين فى

---

(١) فضل الاعتزال (ص ٦٨) ، تاريخ المذاهب الاسلامية : أبو زهرة (ص ١٢٤) .

(٢) الملل والنحل (١/٤٧) .

ذلك العصر مع أكثر الأمة يقولون : ان صاحب الكبيرة من أمة الاسلام ، مؤمن لما فيه من معرفته بالرسل والكتب المنزلة من الله تعالى ، ولمعرفته بأن كل ما جاء من عند الله حق ، ولكنه فاسق بكبيرته ، وفسقه لا ينفى عنه اسم الايمان والاسلام.

فلما ظهرت فتنة الأزارقة ، واختلف الناس فى أصحاب الذنوب على ماذكرنا ، خرج واصل بن عطاء عن قول جميع الفرق المتقدمة ، وزعم أن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ، وجعل الفسق منزلة بين منزلتى الكفر والايمان ، فلما سمع الحسن البصرى من واصل بدعته هذه طرده عن مجلسه ، فاعتزل عند سارية من سوارى مسجد البصرة ، وانضم اليه صديقه عمرو بن عبيد ، فقال الناس يومئذ فيهما : انهما قد اعتزلا قول الأمة ، ونسمّى أتباعهما من يومئذ معتزلة ، ثم أنهما أظهرا قولهما فى المنزلة بين المنزلتين ، وضما اليها دعوة الناس الى قول القدرية على رأى معبد الجهنى .(١)

وفى رواية الشهرستانى : أن الحسن البصرى هو الذى قال لواصل ابن عطاء حين اختلفا فى مسألة الحكم على مرتكب الكبيرة : " اعتزل عنا واصل "، فسمى هو وأصحابه معتزلة .(٢)

والأقرب فى هذا المضمار أن يكون هذا اللفظ ناشئا مع الحسن البصرى ، سواء قال الحسن (اعتزل عنا واصل) أو (اعتزلنا واصل) أو قاله الناس .

من هذا التفسير المشهور بين كتاب الفرق نستنتج : أن كلمة " المعتزلة " لفظ أطلقه مخالفوهم من أهل السنة عليهم للتدليل على أنهم انفصلوا عنهم ، وتركوا مشايخهم القدماء ، واعتزلوا قول الأمة بأسرها فى مرتكب الكبيرة ، فهو بهذا الاعتبار اسم يتضمن نوعا من الذم ، واتهاما واضحا بالخروج على السنة والجماعة ، فالمعتزلى هو المخالف والمنفصل .(٣)

---

(١) الفرق بين الفرق (ص ١١٧ — ١١٩) .

(٢) الملل والنحل (١/٤٨) .

(٣) دراسات فى الفرق د/ عرفان عبد الحميد (ص ١٠٤) .

وقد أطلق على هذه الطائفة أسماء أخرى متعددة ، غير لفظ " المعتزلة " ، منها القدرية ، الجهمية ، النفاة ، المعطلة ،وهم سموا أنفسهم بأهل التوحيد والعدل .

فقد سماهم أهل السنة بالقدرية أخذا من حديث " القدرية مجوس هذه الأمة ، ان مرضوا فلا تعودوهم ، وان ماتوا فلا تشهدوهم "(١) ، لأنهم ورثوا عن القدرية القول بنفي القدر ،ونسبة الأفعال كلها الى العبد بلا تأثير من الله .(٢)

---

(١) الحديث رواه أبو داود في سننه ، كتاب السنة ، باب القدر ، (٥/٦٦) رقم الحديث (٤٦٩١) ، والحاكم في المستدرك (١/٨٥) ، وفي سنده انقطاع من طريق ابن عمر رضي الله عنهما .
وروى عن طريق جابر وأبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهم ، قال العلائي : ينتهي بمجموع طرقه الى الحسن ، انظر : النقد الصحيح لما اعترض عليه من أحاديث المصابيح،للعلائي ، (ص ٢٩ - ٣٠) (الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، بتحقيق د /عبد الرحيم القشقري) .
وكذلك حسنه الحافظ ابن حجر في أجوبته على أحاديث المصابيح ، انظر : مصابيح السنة للبغوي ، (١/١٤٣ ، مقدمة التحقيق ، (ط . دار المعرفة ، بيروت ،الطبعة الأولى ،١٤٠٧هـ ،بتحقيق د / يوسف المرعشلي وزميليه) .
وصححه الألباني بمجموع طرقه ، انظر : السنة لابن أبي عاصم ، (١/١٤٤-١٤٥) و (١/١٥٠ - ١٥١) ، ومشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ، (١/٣٨) .
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٦/٢٣٨) .

وسموا بالجهمية ، لموافقتهم الجهم فى تأويل الصفات ونفيها ، وخلق القرآن ، وانكار رؤية الله تعالى يوم القيامة .[(١)]

ولهذا قال ابن تيمية رحمه الله :" فكل معتزلى جهمى ، وليس كل جهمى معتزليا "[(٢)] ذلك أن المعتزلة يختلفون مع الجهم فى الجبر ، اذ ينفون القدر ، فى حين يثبت الجهمية الجبر .

والمعتزلة لا يرتضون بتسمية القدرية ، اذ يرون أن مثبتى القدر أولى بأن يسموا قدرية ، وينفرون كذلك من الانتساب الى الجهمية ، لأن جهما يقول بالجبر ، فضلا عن كونه غير تقى .[(٣)]

وأما الأصول التى اجتمعت عليها المعتزلة ، فتقول :

اجتمع المعتزلة على أصول خمسة ، وهى : التوحيد والعدل والمنزلة بين المنزلتين ، والوعد والوعيد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

---

(١) المعتزلة : زهدى جار الله (ص ٨) .

(٢) منهاج السنة لابن تيمية ، طبعة (٢/ ٤٨٤) .

(٣) المعتزلة : زهدى جار الله (ص ٧ — ٩) ، فضل الاعتزال (ص ١٦٧) .

وقد ذكر الخياط هذه الأصول الخمسة ، ووضح بأن من يريد الانتساب الى المعتزلة لابد له من الالتزام بها ، ولا يضر اختلافه فيما عداها .(١)

ووضح القاضي عبد الجبار سبب اقتصارهم على هذه الاصول ، وذلك في اجابته على سؤال سأل به نفسه :" فقال : ولم اقتصرتم على هذه الاصول الخمسة وأجاب بأن قال : لا خلاف أن المخالفين لنا لا يعدو أحد هذه الأصول ، ألا ترى أن خلاف الملحدة والمعطلة والدهرية والمشبهة قد دخل في التوحيد ، وخلاف المجبرة بأسرهم دخل في باب العدل ، وخلاف المرجئة دخل في باب الوعد والوعيد ، وخلاف الخوارج دخل تحت المنزلة بين المنزلتين ، وخلاف الامامية دخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ".(٢)

هذه الأصول الخمسة التي تمثل الأساس العام لفكر المعتزلة فانها لم تتكون دفعة واحدة ، بل مرت بمراحل نشأة المعتزلة وتطورها ، وأولها من الناحية التاريخية هو أصل المنزلة بين المنزلتين .

ونحن هنا سنكتفي بعرض تلك الأصول اجمالا ، دون أن نخوض في التفصيلات لأن غرضنا هو اعطاء فكرة عامة عن المعتزلة وأهم آرائها ، متمثلا في أصولهم الخمسة .

الأصل الأول : التوحيد :

من أهم الأصول التي اهتم المعتزلة بتوضيحها وبيانها :التوحيد ، والتوحيد — كما عرفه القاضي عبد الجبار — في اللغة عبارة عما به يصير الشيء واحدا ، كما أن التحريك عبارة عما به يصير الشيء متحركا ، وأما في اصطلاح المتكلمين : فهو العلم بأن الله تعالى واحد ، لا يشاركه غيره فيما يستحق من الصفات نفيا واثباتا على الحد الذي يستحقه والاقرار به .(٣)

---

(١) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد ، للخياط ، تحقيق نيبرج (ص ١٢٧) .

(٢) شرح الأصول الخمسة (ص ١٢٤) .

(٣) المصدر نفسه (ص ١٢٨) ، أما التوحيد عند أهل السنة فهو « اثبات الالهية لله وحده بأن يشهد أن لا اله الا هو ، ولا يعبد الا اياه ، ولا يتوكل الا عليه ولا يوالي الا له ، ولا يعادي الا فيه ، ولا يعمل الا لأجله ، وذلك يتضمن اثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات " ، درء تعارض العقل والنقل (٢٢٤/١) .

ولمكانة هذا الأصل عند المعتزلة : فقد نسبوا أنفسهم اليه ، ولقبوا بأهل العدل والتوحيد .

الا أن المعتزلة أخطأوا في فهم معنى التوحيد ، وغلوا في ذلك ، ووقعوا بسبب هذا الفهم الخاطئ في أخطاء كثيرة ، منها :

١ ـ نفى صفات البارى تعالى : كان هدف المعتزلة من نفى الصفات هو التركيز على مفهوم الوحدانية ، لأنهم يرون أن من أثبت صفة أزلية فقد أثبت الهين ، لذلك نفوا الصفات القديمة أصلا ، وقالوا : هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حى بذاته ، لا بعلم وقدرة وحياة ، لأنها صفات قديمة ، فانه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص الوصف به لشاركته فى الألوهية ، وهذا محال .(١)

٢ ـ القول بخلق القرآن : القول بخلق القرآن قد أثار أهم مشكلة فى الفكر الاسلامى ، وصل فيها الأمر الى أن امتحن الكثير من الأئمة ، وضربوا ، وأهينوا ، وسجنوا بسبب تمسكهم بالمذهب الحق ، ومخالفتهم لمذهب المعتزلة فيها ، ومن أشهرهم امام السنة الامام أحمد بن حنبل .

يوضح الشهرستانى فهم المعتزلة لهذه المسألة ، فيقول : " واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق فى محل ، وهو حرف وصوت ، كتب أمثاله فى المصاحف حكايات عنه ، فان ما وجد فى المحل عرض قد فنى فى الحال " .(٢)

٣ ـ نفى الرؤية : وقد انكر المعتزلة امكان رؤية الله تعالى فى الآخرة بالأبصار لأنهم يرون أن اثباتها يقتضى الجسمية والجهة ، وهذا يتنافى مع التوحيد لذلك لابد من نفى الرؤية لأجل تصحيح معنى التوحيد عندهم .

يقول القاضى عبد الجبار : " ومما يجب نفيه عن الله تعالى الرؤية " .(٣)

---

(١) الملل والنحل (١/٤٤ ـ ٤٥) .

(٢) نفس المصدر (١/٤٥) .

(٣) شرح الاصول الخمسة (ص ٢٣٢) .

ويقول الأشعرى : " أجمعت المعتزلة على أن الله تعالى لا يرى بالأبصار، واختلفت هل يرى بالقلوب ؟ " (١) .

الأصل الثانى : العدل :

رأينا كيف حاول المعتزلة فى تقرير أصل التوحيد اثبات التنزيه المطلق للذات الالهية ، وكيف غلوا فيه ، ووقعوا فى أخطاء .

وفى هذا الأصل يحاول المعتزلة تنزيه الفعل الالهى من معانى الظلم أو ما يخل بالعدل الالهى ، ولقد تمسكوا بأصل العدل ، حتى أطلقوا على أنفسهم أنهم أهل العدل والتوحيد .

وقد أخطأ المعتزلة فى فهم هذا الأصل أيضا .

نعرض أولا لفهم المعتزلة للعدل ، ونقول : المقصود عندهم من وصف الله بالعدل والمراد به : أنه تعالى لا يفعل القبيح ، ولا يختاره ، ولا يخل بما هو واجب عليه ، وأن أفعاله كلها حسنة (٢) .

وهذا الأصل يرتبط بمسألتين ، هما : أفعال العباد ، والايجاب والمنع فى حقه تعالى .

أما المسألة الأولى فهى خلق أفعال العباد ، وأنها مخلوقة لهم ، فالعبد هو الخالق لأفعاله ، خيرها وشرها ، مستحق للثواب والعقاب على فعله فى الدار الآخرة ، لأن فى أفعال العباد ما هو ظلم وجور ، فلو كان الله خالقا لها لوجب أن يكون ظالما جائرا ، وهذا محال فى حق الله (٣) .

هذا هو فهم المعتزلة فى أفعال العباد .

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ٢١٦) .

(٢) شرح الاصول الخمسة (ص ١٣٢ ، ٣٠١) .

(٣) نفس المصدر (ص ٣٤٥) .

وأما المسألة الثانية : فقد أوجبوا على الله سبحانه وتعالى أمورا اتفقوا عليها منها :

فعل اللطف الذى يقرب العباد للطاعة ، ويبعدهم عن المعصية .

وجوب الثواب على الطاعة ، لأنه مستحق للعبد .

وجوب العقاب على المعصية ، زجرا عنها .

فعل الأصلح للعبد فى الدنيا .

وجوب العوض عن الآلام .

هكذا انتهى بهم غلوهم فى العدل وعدم تقيدهم بفهم السلف له الى الايمان بهذه الأمور فى حقه تعالى ،تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. وسيأتى بيان بطلان آرائهم فى هذه المسائل خلال ثنايا الفصل الثامن هو فى أفعال العباد ومسائل القدر.

الأصل الثالث : الوعد والوعيد :

يتصل هذا الأصل بأصل العدل ، وينبثق منه ،اذ أنه يقوم على ضرورة مجازاة المحسن باحسانه ،والمسيء بإساءته ،ولا يجوز أن يخلف الله وعده أو وعيده ،وذلك أمر يقضى به العدل .

والوعد عند المعتزلة : كل خبر يتضمن ايصال نفع الى الغير ،أو دفع ضرر عنه فى المستقبل ،وأما الوعيد : فهو كل خبر يتضمن ايصال ضرر الى الغير ، أو تفويت نفع عنه فى المستقبل .(١)

والخلف فى الوعد نقص ،يتعالى الله عنه ، أما اخلاف الوعيد ففضل ، ولا يعد اخلاف الوعيد نقصا عند العقلاء .(٢)

ولكن المعتزلة لا يفرقون بين الوعد والوعيد ، ويوجبون على الله اثابة المطيع وعقاب العاصى ،لذلك انكروا الشفاعة يوم القيامة ،وتجاهلوا الآيات التى تقول بها ، وتمسكوا بالآيات التى تنفيها ،لأن الشفاعة تتعارض مع أصلهم الوعد والوعيد .

يقول القاضى عبد الجبار: " لا خلاف بينهم أن وعيد الله بالعقاب حق لا يجوز عليه الاخلاف ولا الكذب ،كما أن وعده بالثواب حق " .(٣)

---

(١) شرح الاصول الخمسة (ص ١٣٤- ١٣٥) .

(٢) المواقف للايجى (ص ٣٧٨) ،لكن ليس هذا القول على اطلاقه ،لأن أهل السنة لا يقولونه باطلاقه ،لأنه قول المرجئة ،أما أهل السنة فيعتبرون مغفرة الله لأهل الكبائر فضلا ، ولكنهم يقولون بوجوب الوعيد فى الكفار ، انظر : مختصر لوامع الأنوار ، محمد بن على بن سلوم ، (ص ٢٦٣ — ٢٦٤) ، (الطبعة الأولى ،١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م) .

(٣) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة (ص ٣٥٠) .

وقد غلا المعتزلة فى التمسك بهذا الأصل لحد كفروا به من خالفهم (١)، لأنه لو جاز الخلف فى عمومات الوعيد لجاز فى عمومات الوعد ، بل فى جميع الخطاب من الأوامر والنواهى ، والمعلوم خلافه . (٢)

الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين :

يمثل هذا الأصل البداية التاريخية للمعتزلة ، وهو كان من الأسباب فى تسميتهم بالمعتزلة ، كما سبق ومعناه : أن المرتكب للكبيرة ليس بمؤ من ولا كافر ، بل يسمى فاسقا ، فجعلوا الفسق مرتبة بين الكفر والايمان ، وقضوا بأن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين المنزلتين ، كبيرته تخرجه من الايمان ، ولا تدخله فى الكفر ، ولكنه يكون مخلدا فى النار ، الا أن عذابه فى جهنم أخف من عذاب الكافر المطلق . (٣)

الأصل الخامس : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

وهو من المبادئ المجمع عليها من المسلمين ، فيما عدا شرذمة من الامامية ، لا يعتد بقولهم . (٤)

والمعتزلة — فيما يذكر الأشعرى — تقول بوجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيما عدا الأصم ، وترى أن وسيلة ذلك اللسان واليد والسيف ، كيف قدروا على ذلك . (٥)

فالأمر عند القاضى عبد الجبار هو قول القائل لمن هو دونه فى الرتبة افعل ، والنهى هو قول القائل لمن دونه لا تفعل ، وأما المعروف : فهو كل فعل عرف فاعله حسنه أو دل عليه ، والمنكر هو كل فعل/عرف فاعله قبحه أو دل عليه . (٦)

---

(١) شرح الاصول الخمسة (ص ١٢٥) .

(٢) نفس المصدر (ص ١٣٦) .

(٣) الملل والنحل (١/ ٤٨) ، شرح العقيدة النسفية للتفتازانى (ص ٧١- ٧٢) شرح الاصول الخمسة (ص ١٢٦ ، ١٤٠) .

(٤) شرح الاصول الخمسة (ص ٧٤١) .

(٥) مقالات الاسلاميين (١/ ٢٧٨) .

(٦) شرح الاصول الخمسة (ص ١٤١) .

وهذا المبدأ هو الذى جعلهم يضطهدون مخالفيهم ، ويقسون عليهم ، لاعتقادهم أنهم بمخالفتهم قد أتوا منكرا ، ولا فرق عندهم بين مجاهدة الكافر والفاسق .

هذه بايجاز الأصول الخمسة المجمع عليها عند المعتزلة .

وتلك جملة مذاهب الفرق الرئيسية فى عصر ابن كلاب .

وقد أتى ابن كلاب الى الحياة وهذه الفرق موجودة منتشرة أفكارها بين الناس ، وكان للمعتزلة فى عصره جولة وصولة ، اذ تبنى الاعتزال فى عصره المأمون والمعتصم والواثق ، وحملوا الناس على ما اعتنقوه بقوة السلطان ، وأصبحت المعتزلة مذهبا رسميا للدولة العباسية قرابة قرن كامل من الزمن ، وهو من عهد المأمون حتى عهد المتوكل .

وقد قيض الله طائفة من علماء السلف وأئمتهم للدفاع عن هذه العقيدة بالقلم واللسان فى ذلك العصر ، فرأوا هذا الخطر الداهم من الفرق المنحرفة عموما ، ومن المعتزلة خصوصا ، على عقيدة الأمة ، فأشهروا ألسنتهم وأقلامهم ، وذلك بتصانيفهم ورسائلهم التى ألفوها فى الرد على أصحاب الأهواء والبدع ، وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة .

فتكلم ابن أبى شيبة (١) (ت ٢٣٥ هـ) ، وألف كتاب السنة ،

---

(١) هو أبو بكر ، عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عثمان بن أبى شيبة ، العبسى الكوفى سمع من شريك بن عبد الله قاضى الكوفة ، وعبد الله بن المبارك ، وسفيان بن عيينة وغيرهم ، وروى عنه البخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم .
قال الامام أحمد : أبو بكر صاحب المصنف صدوق ، وهو أحب الى من أخيه عثمان ، وقال الذهبى فى التذكرة : هو صاحب المسند والمصنف وغير ذلك وقال الخطيب البغدادى : كان متقنا حافظا مكثرا ، صنف المسند والأحكام والتفسير ، توفى سنة (٢٣٥ هـ) أنظر : تاريخ بغداد (١٠/٦٦) ، وتذكرة الحفاظ (٢/٤٣٢) .

والامام أحمد بن حنبل[(١)] (ت ٢٤١ هـ) ، وألف كتاب الرد على الزنادقة والجهمية ، وصنف البخارى[(٢)] (ت ٢٥٦ هـ) كتاب خلق أفعال العباد والرد على الجهمية ، كما ألف أبو بكر أحمد بن محمد الأثرم[(٣)] (ت ٢٧٣ هـ) كتاب السنة ، وألف عثمان ابن سعيد الدارمى[(٤)] (ت ٢٨٠ هـ) كتاب الرد على الجهمية وكتاب الرد على بشر المريسى ، كما ألف امام الأئمة ابن خزيمة[(٥)] (ت ٣١١ هـ) ،

---

(١) هو أحمد بن محمد بن حنبل ، امام أهل السنة والجماعة ، أعز الله به السنة وقمع به البدعة ، وهو امام جليل مشهور بالفقه والحديث ونصرة الدين ، وفضائله أكثر من أن تحصر ، توفى سنة (٢٤١ هـ) ، انظر تاريخ بغداد (٤١٢/٤) ، طبقات الشافعية (٢٧/٢) .

(٢) هو محمد بن اسماعيل البخارى ، الامام الحافظ ، صاحب الجامع الصحيح ، وشهرته تغنى عن التعريف به ، توفى سنة (٢٥٦ هـ) ، أنظر تاريخ بغداد (٤/٢) ، وتذكرة الحفاظ (٥٥٥/٢) .

(٣) هو أحمد بن محمد بن هانئ ، الطائى ، أبو بكر ، الأثرم ، البغدادى ، روى عن الامام أحمد ، وتفقه عليه ، وروى عنه النسائى والبغوى ، قال ابراهيم بن أورمة : الأثرم أحفظ من أبى زرعة وأتقن ، توفى سنة (٢٧٣ هـ) . أنظر تاريخ بغداد (١١٠/٥) ، تهذيب التهذيب (٧٨/١) .

(٤) هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمى السجستانى ، أبو سعيد ، الامام ، الحافظ ، صاحب التصانيف ، كان جذعا وقذى فى أعين المبتدعة ، قيما بالسنة ، ثقة ، حجة ، ثبتا ، صنف المسند الكبير فى الحديث ، توفى سنة (٢٨٠ هـ) ، أنظر : (تذكرة الحفاظ للذهبى ٦٢١/٢) والأعلام (٢٠٥/٤) .

(٥) هو محمد بن اسحاق بن خزيمة ، أبو بكر السلمى ، النيسابورى ، الحافظ ، صاحب التصانيف ، ولد سنة (٢٢٢ هـ) ، وروى عن على بن حجر ابن راهوية ، ومحمود بن غيلان وغيرهم ، وروى عنه البخارى ومسلم فى غير ==

كتـــاب التـوحيـــــد .(١)

واستمر هجوم الجيوش الاسلامية على بدعة المعتزلة ، حتى ظهر الحــــق وزهق الباطل ، فعلت كلمة أهل السنة والجماعة نتيجة لتوفيق الله تعالـــى أولا وآخرا ، ثم لصمود العلماء أمثال الامام أحمد بن حنبل ، ثم مساندة الدولـــــة من عهـــد المتـوكل .

== الصحيحين ، رحل الى الشام والحجاز والعراق ومصر ، وتفقه على المزنـــى وغيره ، من مصنفاته : الصحيح ، وكتاب التوحيد ، وتوفى سنة (٣١١ هـ) أنظر : شذرات الذهب (٢/٢٦٢) ، وتذكرة الحفاظ (٢/٧٢٠) ، وطبقات الشافعية (٣/١٠٩) .

(١) انظر مقدمة عقائد السلف للدكتور على سامى النشار (ص ٥ — ٧) .

الفصل الثانى

عبد الله بن كلاب ومدرسته

- **المبحث الأول** : حياة ابن كلاب .
- **المبحث الثانى** : مدرسة ابن كلاب .
- **المبحث الثالث** : منهج ابن كلاب .

المبحث الأول

حياة ابن كلاب

لم يحظ عبد الله بن كلاب بالعناية من جانب أصحاب التواريخ والتراجم ، أو بالمنصب الوافر عن حياته ونشأته وأسرته ،فكان حظه فى هذه المصادر قليلا جدا .

على أن ما ذكر فى هذه المصادر من شذرات قليلة لا تفى بترجمة وافية لحياته ، ولا تعطى وضوحا تاما .

اسمه وكنيته :

هو عبد الله بن سعيد بن كلاب ، القطان البصرى ، وكنيته : أبو محمد ، والمعروف بابن كلاب .(١)

---

(١) أنظر فى ترجمته :

- الفهرست للنديم (ص ١٧٩ — ١٨٠) .
- الأنساب للسمعانى (١٠/٥١١) .
- الوافى بالوفيات (١٧/١٩٧) .
- لسان الميزان لابن حجر (٣/٢٩٠) .
- المشتبه للذهبى (٢/٥٥٥) .
- سير أعلام النبلاء للمؤلف نفسه (١١/١٧٤) .
- طبقات الشافعية للعبادى (ص ٧٠) .
- طبقات الشافعية للأسنوى (٢/٣٤٤) .
- طبقات الشافعية للسبكى (٢/٢٩٩) .
- هدية العارفين للبغدادى (٥/٤٤٠) .
- الأعلام للزركلى (٤/٩٠) .
- معجم المؤلفين للكحالة (٦/٥٩) .
- تاريخ التراث العربى : لفؤاد سزكين (٢/٣٦٨) .

ويقال : عبد الله بن محمد ،[١] وقيل : عبد الله بن محمد بن سـعيد ،[٢] والأول ـ وهو : عبد الله بن سعيد بن كلاب ـ هو الأشهر والأرجح الذى عليه أكثر مترجميه .

---

(١) هكذا سماه النديم فى الفهرست (ص ١٨٠) ،وذكر القولين : السبكى فى طبقاته (٢/٢٩٩) ،والزبيدى فى اتحاف السادة (٢/٥) ،كما ترجمه الصفدى فى الوافى بالوفيات مرتين ،مرة باسم عبد الله بن سعيد (١٧/١٩٧) ومرة باسم عبد الله بن محمد (١٧/٤٩٢) .

(٢) الخطط للمقريزى (٢/٣٥٩) ،لسان الميزان لابن حجر (٣/٢٩٠) .

وهو القطان ، والقطان : بفتح القاف وتشديد الطاء المهملة فى آخرها نون ــ هذه النسبة الى بيع القطن والمشهور بها .(١)

وليس بمستبعد أن يكون قد زاول مهنة بيع القطن فى حياته ، فاشتهر بها ، أو أن تكون هذه الشهرة بالقطان قد ورثها عن آبائه وأجداده الذين قد يحتمل أنهم زاولوا هذه المهنة دون أن يزاولها هو ، فأصبحت أسرته تعرف بأسرة " القطان " .

كما لقب بالبصرى ، مما يدل على أنه ولد أو عاش بالبصرة ، ولم يحدثنا أحد ممن ترجم له عن ذلك بالتفصيل ، كما سيأتى بيانه .

ويلقب عبد الله بن سعيد بابن كلاب ، بضم الكاف وتشديد اللام ، مثل " خطاف " لفظا ومعنى ، لأنه كان لقوته فى المناظرة يجتذب من يناظره ، كما يجتذب الكلاب الشيئ .(٢)

قال ابن الصلاح : " وسمى كلابا وأصحابه كلابية ، لأنه كان يجر الخصوم الى نفسه بفضل بيانه ، كأنه كلاب " .(٣)

وقال الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) : " قيل له ابن كلاب ، لأنه كان يخطف الذى يناظره " .(٤)

أما قول الزبيدى فى اتحاف السادة : أن لقب "كلاب" ليس له ، وانما هو اسم أو لقب جد له ، بتعليل أن يقال له " ابن كلاب " وليس " كلاب "(٥) :

---

(١) الأنساب للسمعانى (١٠/١٨٤) .

(٢) طبقات الشافعية للسبكى (٢/٢٩٩) ، الأعلام (٤/٩٠) .

(٣) المعتبر للزركشى (ص ٢٦٩) ، والوافى بالوفيات (١٧/١٩٨) ، سير أعلام النبلاء (١١/١٧٤) .

(٤) لسان الميزان (٣/٢٩١) .

(٥) اتحاف السادة (٢/٥) .

فهو غلط ، لأنه قد جرت العادة من عهد بعيد باطلاق " ابن كلاب " عليه ، بدون اسقاط " ابن " ، مما يدل على أن المشهور به بين أهل العلم بابن كلاب ، وليس بكلاب .

يقول تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) : " فان قلت : كيف قيل ابن كلاب ، وهو على هذا : كلاب ، لا : ابن كلاب ، قلت : كما يقال ابن بجدة الشيء ، أو أبو عذرته ، وأنحاء ذلك " .(١)

اذن : ابن كلاب لقب خلع عليه ، لما اشتهر به من أسر الخصوم اليه بفضل بيانه للعقول ، وسيطرته على النفوس ، بما يمتلكه من قوة الحجة وبراعة المناظرة ، والكلابية جماعة انتسبوا الى ابن كلاب انتساب التلاميذ والأصحاب الى الشيخ والمعلم .

نسبه :

لم يحدثنا أحد ممن ترجم لابن كلاب عن نسبه ، فالكل متفق على اسمه عبد الله ، أما اسم ابيه : فقد اختلفت فيه على قولين : محمد أو سعيد ، كما ذكرنا ، وأما عن اسم جده أو أسرته فلم يذكر لنا أحد من المؤرخين شيئا فى ذلك .

ويقال : انه أخو يحيى بن سعيد القطان (ت ١٩٨هـ)(٢) ، كبير المحدثين وامام الجرح والتعديل فى عصره .

ذكر ذلك البغدادى (ت ٤٢٩هـ) فى كتابه أصول الدين ،(٣) وقال الزركشى بنفس الكلام ، وزعم أنه أخو الامام يحيى بن سعيد .(٤)

---

(١) طبقات الشافعية (٢/٢٩٩) .

(٢) هو يحيى بن سعيد بن فروخ القطان ، أبو سعيد ، من حفاظ الحديث وأئمة السنة ، ثقة حجة ، من أقران مالك وشعبة ، لم يعرف له تأليف الا ما فى كشف الظنون من أن له كتاب المغازى ، قال الامام أحمد : ما رأيت بعينى مثل يحيى القطان ، الأعلام (٨/١٤٧) ، وأنظر أيضا : تاريخ بغداد (١٤/١٣٥) .

(٣) أصول الدين للبغدادى (ص ٣٠٩) .

(٤) المعتبر (ص ٢٦٩) .

ونقل تاج الدين السبكى عن الخطيب ضياء الدين ، والد فخر الدين الرازى [١] أنه قال فى آخر كتابه " غاية المرام فى علم الكلام " : " ومن متكلمى أهل السنة فى أيام المأمون : عبد الله بن سعيد التميمى ، الذى دمر المعتزلة فى مجلس المأمون ، وفضحهم ببيانه ، وهو أخو يحيى بن سعيد القطان ، وارث علم الحديث وصاحب الجرح والتعديل " [٢] .

وهذا النص بتمامه يوجد فى كتاب أصول الدين للبغدادى ، ولعل والد الفخر الرازى نقله عنه ، لأنه توفى سنة (٥٥٩ هـ) ، والبغدادى توفى سنة (٤٢٩ هـ) .

وقال السبكى معلقا على ذلك : " وكشفت عن يحيى بن سعيد القطان ، هل له أخ اسمه عبد الله ؟ فلم أتحقق الى الآن شيئا ، وان تحققت شيئا الحقته ان شاء الله " [٣] .

والصواب : أن عبد الله بن كلاب ليس أخا ليحيى بن سعيد ، كما حققه ابن حجر والزبيدى .

قال الحافظ ابن حجر : " وقول الضياء : انه كان أخاً ليحيى بن سعيد القطان غلط ، وانما هو من توافق الاسمين والنسبة " [٤] .

وقال الزبيدى : " الرجل معروف بابن كلاب ، واسمه عبد الله ، واختلف فى اسم أبيه على قولين : " محمد " أو " سعيد " ، . . . ويحيى بن سعيد القطان

---

(١) هو عمر بن حسين بن الحسن ، الرازى ، الشافعى ، ضياء الدين ، أبو القاسم ، خطيب الرى ، توفى سنة (٥٥٩ هـ) ، من آثاره : غاية المرام المذكور فى النص ، أنظر : طبقات الشافعية للسبكى (٧/٢٤٢) ، معجم المؤلفين (٧/٢٨٢) .

(٢) طبقات الشافعية للسبكى (٢/٣٠٠) .

(٣) طبقات الشافعية للسبكى (٢/٣٠٠) .

(٤) لسان الميزان (٣/٢٩١) .

جده : فروخ ، وهو من موالى تميم ، ولم أر من ذكر له أخا اسمه عبد الله ، ولـم يأت بهذه الغريبة الا والد الفخر ، فيحتاج الى متابعة قوية " [(١)].

ونحن بدورنا بعد متابعة لهذه المسألة: لم نقف على أخ لابن كلاب باسم يحى ، والصواب أن الامام يحى بن سعيد القطان ليس أخا له ، كما قلناه .

مـولده ووفاتـه :

لم يذكر المؤرخون تاريخ مولد عبد الله بن سعيد ، كما لم يذكر أحد ممن ترجم له: أين ولد ، غير أن نسبته للبصرة ترجح أنه بصرى المولد والأسرة والنشأة الأولى .

يؤكد ذلك ما قاله السكسكى : "عبد الله بن سعيد بن كلاب، من أهـل البصرة" ، [(٢)] ولا يكون من أهل البصرة الا اذا استقرت أسرته فيها .

وأما بالنسبة لتاريخ وفاته : فيكاد يتفق كل من ترجم له على أن وفاته كانت بعد سنة أربعين ومائتين (٢٤٠) من الهجرة ، [(٣)] الموافق سنة أربع وخمسين وثمانمائة (٨٥٤) ميلادية . [(٤)]

وحددها صاحب هدية العارفين سنة احدى وأربعين ومائتين (٢٤١) للهجرة . [(٥)]

شيوخه وتلامذته :

لم تشر المصادر الى شيوخ ابن كلاب ، لذلك لا نعرف شيئا عمن أخذ ابـن كلاب العلم وعن نشأته العلمية ، أما تلامذته : فقد أشار الذهبى (ت ٧٤٨هـ) الـى أن ممن قيل انه أخذ عن ابن كلاب الكلام والجدل وعلم النظر داود الظاهـرى ، [(٦)]

---

(١) اتحاف السادة (٢/ ٦) .

(٢) البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان للسكسكى (ص ١٩) .

(٣) طبقات الشافعية للسبكى (٢/ ٢٩٩) ، اتحاف السادة للزبيدى (٢/ ٦) ، طبقات الشافعية للأسنوى (٢/ ٢٤٤ — ٢٤٥) ، المعتبر للزركشى (ص ٢٦٩) .

(٤) تاريخ التراث العربى : فؤاد سزكين (٢/ ٣٦٨) .

(٥) هدية العارفين للبغدادى (٥/ ٤٤٠) .

(٦) هو: داود بن على بن خلف ، الاصفهانى ، الملقب بالظاهرى ، امام مذهـب الظاهرية ، وأحد الأئمة المجتهدين ولد بالكوفة سنة (٢٠١هـ) ، وتوفى ببغداد ، ==

والحارث المحاسبي .[1]

ثم ذكر الذهبي أن ابن النجار ذكر لابن كلاب ترجمة لم يحررها ، وأنه ذكر فيها : أن ابن كلاب كان في أيام الجنيد ،[2] وسمع شيئا من عبارات الصوفية ، وتعجب منه ، وهابه .[3]

وذكر السبكي أنه وجد بخط الذهبي حاشية على تاريخ ابن النجار ، كتب فيها بإزاء ماذكره من حكاية طويلة بين ابن كلاب والجنيد مانصه : "لا يصح (ذلك) ، فان ابن كلاب له ذكر في زمان أحمد بن حنبل ، فكيف يتم له هذا مع الجنيد ؟" وقال السبكي مؤيدا قول الذهبي : "والأمر كما قال ".[4]

ولكننا نرى: ليس هناك مايدعو الى هذا الشك ، لأن ابن كلاب توفى بعد أربعين ومائتين بقليل ، أى قبل المحاسبي بثلاث سنوات تقريبا ، وتوفى الجنيد سنة (٢٩٧ هـ) ، أما ولادته فقد كانت سنة نيف وعشرين ومائتين ، والروايات تجمع على أن الجنيد الذى توفى بعد المحاسبي بنصف قرن اتفقت بينهما مناظرات.[5]

ومن ثم فليس مستبعدا أن التقى الجنيد بابن كلاب وهو فى شبابه .

== سنة (٢٧٠ هـ) ، كان زاهدا واماما ورعا ، له تصانيف ، أنظر: سير أعلام النبلاء (١٣ / ٩٧ - ١٠٩) ، طبقات الشافعية للسبكى (٢ / ٢٨٤ - ٢٩٣) ، والأعلام: (٣ / ٨ - ٩) .

(١) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٧٤) ، وانظر أيضا : الوافى بالوفيات (١٧ / ١٩٨) .

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندى البغدادى ، ذكر الذهبي أنه ولد سنة نيف وعشرين ومائتين ، وتوفى سنة (٢٩٧ هـ) وقيل سنة (٢٩٨ هـ) ، من شيوخ الصوفية ، له بعض التصانيف فى التصوف ، أنظر طبقات الصوفية للسلمى (ص ص ١٥٥ - ١٦٣) ، تاريخ بغداد (٧ / ٢٤١) ، سير أعلام النبلاء (١٤ / ٦٦ - ٧٧) .

(٣) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٧٥) .

(٤) طبقات الشافعية (٢ / ٢٩٩) .

(٥) نشأة الأشعرية (ص ٤٠) .

وذكر عبد القاهر البغدادى أن من تلامذة ابن كلاب : عبد العزيز المكى الكنانى الذى فضح المعتزلة فى مجلس المأمون ، والحسين بن الفضل البجلى (١) ، صاحب الكلام والأصول وصاحب التفسير والتأويل (٢) .

الا أن شيخ الاسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) قال فى درء تعارضه :
" قد يظن الظان أن كلامهم (أى المتكلمين) هو كلامه (أى عبد العزيز المكى) بعينه ، وأنه كان يقول بقولهم ، وأن الله لا يقوم بذاته ما يتعلق بقدرته ومشيئته ، وأن قوله من جنس قول ابن كلاب ، وليس الأمر كذلك ، فإن عبد العزيز ـ هذا ـ له فى الرد على الجهمية وغيرهم من الكلام مالا يعرف فيه خروج عن مذهب السلف وأهل الحديث (٣) " .

وقد حكى ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) عن ابن كلاب أنه كان لا يطأ لأهل البدع بساطا ، ولا يقصدهم بنفسه ، وقرن بينه وبين عبد العزيز المكى والحارث المحاسبى فى الزهد ومقاومة أهل البدع ، فقال بعد اشارته الى محنة خلق القرآن :
" وكان فى ذلك الوقت من المتكلمين جماعة كعبد العزيز المكى والحارث المحاسبى وعبد الله بن كلاب وجماعة غيرهم ، وكانوا أولى زهد وتقشف ، لم ير واحد منهم أن يطأ لأهل البدع بساطا ، ولا أن يداخلهم ، فكانوا يردون عليهم ، ويؤلفون الكتب فى ادحاض حججهم ، الى أن نشأ بعدهم وعاصر بعضهم بالبصرة أيام اسماعيل القاضى ببغداد : أبو الحسن على بن اسماعيل بن ابى بشر الأشعرى (٤) " .
وسياق هذا الكلام جاء لبيان فضائل الأشعرى .

---

(١) هو : أبو على البجلى ، الكوفى ، ثم النيسابورى ، الامام اللغوى ، توفى سنة (٢٨٢ هـ) ، أنظر : سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤١٤) ، والوافى بالوفيات (١٣/ ٢٧) .

(٢) أصول الدين للبغدادى (ص ٣٠٩) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٢٤٥) .

(٤) تبيين كذب المفترى لابن عساكر (ص ١١٦) .

وقد جاء الكلام نفسه عن الباقلاني،(١) في امتناع ابن كلاب والمحاسبي عن مناظرة المعتزلة في بلاط المأمون، لزهدهما وتورعهما عن مجادلتهم، وذلك لما كتب الملك عضد الدولة الى عامله بالبصرة، ليبعث اليه علماء أهل السنة والاثبات، ليحضروا مجلسه ويناظروا المعتزلة، امتنع شيخ الباقلاني عن الوصول فقال: هؤلاء القوم فسقة، لا يحل لنا أن نطأ بساطهم، وليس غرض الملك من هذا الا أن يقال: ان مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم، ولو كان ذلك لله عز وجل خالصا لنهضت، فأنا لا أحضر عند قوم هذه صفتهم، وقال له الباقلاني: «كذا قال ابن كلاب والمحاسبي ومن كان في عصرهما من المتكلمين أن المأمون لا يُحضَر مجلسَه، حتى ساق أحمد الى طرسوس..، وهؤلاء أسلموه، ولو مروا اليه وناظروه لكفوه عن هذا الأمر.. فلو مروا اليه وبينوا للمعتصم لا رتدع المعتصم، ولكن أسلموه، فجرى على أحمد بن حنبل رضي الله عنه ما جرى، وأنت أيها الشيخ، تسلك سبيلهم، حتى يجرى على الفقهاء ما جرى على أحمد..»(٢)

هكذا قال الباقلاني.

لكن قول الباقلاني يخالف الواقع الذي نعرفه، وهو: أن ابن كلاب كان يقصد المخالفين بنفسه، ويحضر مجالسهم، ويناظرهم، كما ذكر ذلك عنه بعض مترجميه، مثل البغدادي الذي قال عنه أنه ناقش المعتزلة، ودمر عليهم في مجلس المأمون، وفضحهم ببيانه، وآثار بيانه موجودة في كتبه المفقودة.(٣)

---

(١) هو: محمد بن الطيب بن محمد، أبو بكر، القاضي، المعروف بالباقلاني، من أعظم تلامذة الأشعري، ولد في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري، وعاش في بغداد، وتوفي سنة (٤٠٣ هـ)، وقد الف كتبا كثيرة في نقد الفلسفة والمنطق والمذاهب، أنظر: سير أعلام النبلاء (١٧/١٩٠-١٩٣) الوافي (٣/١٧٧)، الأعلام (٧/٤٦).

(٢) تبيين كذب المفترى (ص ١١٨ — ١٢٠)، ترتيب المدارك للقاضي عياض (٧/٥١ — ٥٧)، عيون المناظرات للسكوني (ص ٢٣٧ — ٢٣٨).

(٣) أصول الدين للبغدادي (ص ٣٠٩)، طبقات الشافعية للسبكي (٢/٣٠٠).

وكلام البغدادى صريح فى أن ابن كلاب كان يشارك فى المجالس التى يعقدها المأمون ، ولم يمتنع عن ذلك .

كما ذكر النديم (ت ٣٨٥ هـ) مناظرات ابن كلاب مع عباد بن سليمان فى كتابه الفهرست .(١)

وكذلك ناقش عبد العزيز المكى بشر المريسى ، أحد شيوخ المعتزلة فى عصره ، ورد عليه قوله بخلق القرآن ، وأثبت ذلك فى كتابه " الحيدة " ، وكل ذلك جرى أمام الخليفة المأمون فى بلاطه .(٢)

مكانته العلمية :

كان عبد الله بن كلاب ذو بيان وبلاغه وقوة فى المناظرة ، وأسلوب قوى فى الرد على المخالفين لعقيدة أهل السنة .

سبق وأن ذكرت أنه لقب بابن كلاب لقوته فى المناظرة ، فانه كان يرد على خصمه ، ويفند حججه ، الى أن يجتذب خصمه الى معتقده ، كما يجتذب الكلاب الشيئ .

وكل هذا بفضل بيانه وبلاغته وقوته فى الاقناع ، فله مقدرة فائقة فى الاحتجاج العقلى .

لذلك عده المؤرخون من أعظم أئمة المتكلمين وحذاق أهل الاثبات من أهل السنة ، بل وصفه ابن تيمية بأنه الشيخ الأول لهم ، كماسيأتى قوله فيما بعد .

وهو بحق كان فارسا فى هذا المجال ، مطلعا على آراء الفرق على إختلافها ، قويا فى الرد عليها .

وأما من ناحية التصنيف فهو ذو تصانيف كثيرة ، كلها فى العقيدة، والنصوص التى نقلها العلماء عن كتبه تدل على عمق بحثه وسعة أفقه .

---

(١) الفهرست للنديم (ص ١٨٠) .

(٢) انظر لمناقشة المكى :كتابه الحيدة له ، وانظر طبقات الشافعية للسبكى (٢/١٤٤) .

مناظراته مع المعتزلة وافتراءات المعتزلة عليه :

يذكر المترجمون لابن كلاب: أن له مناظرات مع رؤوس المعتزلة ، ومؤلفات في الرد عليهم.

ذكر الصفدى أن ابن كلاب كان يرد على المعتزلة ، وربما وافقهم ،[1] وقال الذهبي : " .. ابن كلاب ، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة "[2].

وذكر ابن النديم وغيره : كانت له مع عباد بن سليمان[3] مناظرات .[4]

وبسبب هذه المناظرات والمناقشات ، ومخالفة ابن كلاب للمعتزلة: هاجمه ابن النديم ، ونسب اليه بعض أقوال شنيعة ، نقلها عن عباد بن سليمان المذكور ، فقال : " وله مع عباد بن سليمان مناظرات ، وكان يقول : ان كلام الله هو الله ، وكان عباد يقول : انه نصراني بهذا القول "[5].

---

(١) الوافي بالوفيات (١٧ / ١٩٨) ، أما قوله : " ربما وافقهم " يحتمل أن يقصد به موافقة ابن كلاب للمعتزلة في نفي قيام صفات الأفعال بذاته تعالى ، أو بعض آرائه الاعتقادية التي وافق فيها المعتزلة ، وخالف السلف.

(٢) سير أعلام النبلاء (١١ / ١٧٤) .

(٣) عباد بن سليمان العمري ، من رؤوس المعتزلة ، قال عنه ابن المرتضى: في الطبقة السابعة عباد بن سليمان ، له كتب معروفة ، وبلغ مبلغا عظيما ، وكان من أصحاب هشام الفوطي ، أنظر: المنية والأمل لابن المرتضى (ص ١٦٩) ، والفهرست (ص ٢٥٥) .

(٤) الفهرست لابن النديم (ص ١٨٠) ، عيون المناظرات (ص ٣٥٨) ، لسان الميزان (٣ / ٢٩١) ، سير أعلام النبلاء (١١ / ١٧٥) ، طبقات الشافعية للسبكي (٢ / ٢٩٩) ، اتحاف السادة (٢ / ٦) .

(٥) الفهرست (ص ١٨٠) ، طبقات الشافعية (٢ / ٢٩٩) .

وذكر ذلك القول محب الدين النجار فى تاريخ بغداد ، ونقله عنه كثير من المؤرخين.[1]

وهكذا نرى بسهولة كيف يهاجم شيخ من شيوخ المعتزلة عالما من علماء أهل السنة ، ويتهمه باتباع النصارى ، بل ينسبه للكفر.

وكذلك عده النديم من أئمة الحشوية ،[2] لأن كل من أثبت الصفات فهو حشوى[3] عند المعتزلة.

غير أننا لا نعرف شيئا عن المناظرات والمناقشات التى جرت بين ابن كلاب وعباد بن سليمان أو غيره من شيوخ المعتزلة الذين عاشوا فى عصره ، لأنه لم يصل الينا أى تفصيل عنها فى كتب التراجم أو كتب العقيدة.

---

(١) انظر: لسان الميزان (٣/ ٢٩١) ، الوافى (١٧/ ٤٩٢) ، طبقات الشافعية (٢/ ٢٩٩).

(٢) الفهرست (ص ١٨٠).

(٣) أما فى حقيقة لفظ الحشوية ومعناه يقول شيخ الاسلام ابن تيمية: «ان مسمى الحشوية فى لغة الناطقين به ليس اسما لطائفة معينة ، لها رئيس ، قال مقالته فاتبعته ، كالجهمية ، والأشعرية وغيرهم ، ولا اسما لقول معين ، من قاله كان كذلك ، لهذا كان المؤمنون متميزين بكتاب الله وسنة رسوله ، فقولهم كتاب الله ، وإمامهم الذى يجب اتباعه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأول من عرف أنه تكلم فى الاسلام بهذا اللفظ هو: عمرو بن عبيد ، رئيس المعتزلة ، وذلك حين ذكر له عن ابن عمر رضى الله عنهما شئ يخالف قوله ، فقال: كان ابن عمر حشويا ، نسبة الى الحشو ، وهم العامة والجمهور ، وأخذ عنه متأخرو الرافضة - القرامطة الباطنية - ، فسموا بذلك كل من اعتقد صحة ظاهر الشريعة ، والفلاسفة تسمى من أقر بالمعاد الجسمى والنعيم الحسى حشويا ، والأشاعرة سموا من أقر بما ينكرونه من الصفات ، ومن يذم ما دخلوا فيه من بدع أهل الكلام والجهمية والارجاء حشويا» ، أنظر: مجموع الفتاوى (٣/ ١٨٥ - ١٨٦) ، ونقض تأسيس الجهمية (١/ ٢٤٢).

وقد رد العلماء على النديم ، وانكروا ما نسبه الى ابن كلاب .

وممن تصدى بالرد عليه ابن حجر والسبكى والزبيدى وابن تيمية وغيرهم .

قال الحافظ ابن حجر : " وقول ابن النديم " انه من الحشوية " يريد من يكون على طريق السلف فى ترك التأويل للآيات والأحاديث المتعلقة بالصفات ". (١)

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : " فالمعتزلة ونحوهم يسمون الصفاتية الذين يقولون ان الله تعالى حى بحياة ، عليم بعلم ، قدير بقدرة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام ، يسمونهم مجسمة مشبهة حشوية ، والصفاتية هم السلف والأئمة وجميع الطوائف المثبتة للصفات ، كالكلابية والكرامية والأشعرية والسالمية وغيرهم من طوائف الأمة ". (٢)

وذكر ابن تيمية فى موضع آخر أن نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة وغيرهم يصفون أهل الاثبات للصفات الثابتة بالنص ، والقائلين بأن القرآن غير مخلوق وأن الله يرى فى الآخرة وأنه تعالى فوق العالم ، يصفونهم بأنهم مجسمة مشبهة حشوية ، غير أن هذه الامور الثلاثة مما اتفق عليها سلف الأمة وأئمتها . (٣)

وتكفل تاج الدين السبكى برد مزاعم ابن النديم ، وذكر أن ابن النجار — الذى نقل أقوال عباد المعتزلى — ليس ما ذكره من شأنه ، لأنه ليس من فرسان هذا الميدان ، ولا من أهل هذه الصناعة ، فما كان أجدره أن لا يتعرض لما لا يحسن ، وأما محمد بن اسحاق النديم ، فقال عنه السبكى : "... محمد كان فيما أحسب معتزليا ، وله بعض المسيس بصناعة الكلام ". (٤)

---

(١) لسان الميزان (٣/ ٢٩١) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٠) ، مجموعة الرسائل والمسائل (١/ ٣٥٥) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٤٥) .

(٤) طبقات الشافعية (٢/ ٢٩٩) ، اشارات المرام للبياضى (ص ٢٣ — ٢٤) ، الهامش رقم (٥) .

فالسبكى يجعل النديم من عوام المعتزلة ،ويبين أنه نقل ما نقل عن ابن كلاب من عباد بن سليمان وعباد أحد رؤوس المعتزلة ، فما يذكره انما هو حقد صنيع عليه ، لأنه يريد بذلك أن يشوه مذهب ابن كلاب ، قال السبكى : " وعباد بن سليمان من رؤوس المعتزلة ، فانما يذكر ما يذكره تشنيعا على ابن كلاب " (١)، فرواية عباد بن سليمان اذن : رواية هوى ونفاق ، ومردودة أصلا . (٢)

ويقر السبكى أن ابن كلاب على كل حال من أهل السنة ، ولا يقول هو ولا غيره ممن له أدنى تمييز : ان كلام الله هو الله ، وانما ابن كلاب مع أهل السنة فى أن صفات الذات ليست هى الذات ولا غيرها . (٣)

وقال :" ولعل عبادا قال له فيها ما قال ، مع أن ما قاله عباد لا يلزمه ، وانما عباد يقول ذلك كما يقول سائر المعتزلة للصفاتية ، أعنى مثبتى الصفات : لقد كفرت النصارى بثلاث ، وكفرتم بسبع ، (٤) وهو تشنيع من سفهاء المعتزلة على الصفاتية ، ما كفرت الصفاتية ولا أشركت ، وانما وحدت وأثبتت صفات قديم واحد ، بخلاف النصارى ، فانهم أثبتوا قدما ، فأنى يستويان أو يتقاربان ؟ " . (٥)

وقال الزبيدى :" كان عباد ينسب ابن كلاب للكفر ، لعله لتلك المقالة (٦)، أو لأن المعتزلة بأسرهم يقولون للصفاتية : لقد كفرت النصارى بثلاث ، وكفرتم بسبع ..." ، ثم ذكر نفس الكلام الذى نقلناه عن السبكى آنفا . (٧)

---

(١) طبقات الشافعية : (٢/٢٩٩) .

(٢) نشأة الفكر الفلسفى للنشار (١/٢٦٧) .

(٣) طبقات الشافعية (٢/٢٩٩ - ٣٠٠) ، وقد جانب السبكى الصواب فيما ذهب اليه ، لأن ابن كلاب ، ان صح عنه هذا الكلام ، فهو يخالف أهل السنة فيه ، لانهم لا يوافقون على عبارة : الصفات ليست هى الذات ، ولا غيرها ، كما سيأتى الكلام فيها فى (ص ١٨٠ - ١٨١) من الرسالة.

(٤) أى : أن النصارى كفرت باعتبارها الاقانيم الثلاثة اصولا قديمة ثابتة بجانب الله ، وكفرت الصفاتية باثباتها سبع صفات الهية لله عز وجل .

(٥) طبقات الشافعية (٢/٣٠٠) ، نشأة الفكر الفلسفى للنشار (١/٢٦٧) .

(٦) أى مقالة ابن كلاب فى كلام الله تعالى بأنه تعالى لا يتصف بالامر والنهى والخبر فى الازل ، لحدوث هذه الامور ، وقدم الكلام النفسى ، وانما يتصف بذلك فيما لا يزال .

(٧) اتحاف السادة (٢/٦) .

وقال الشيخ محب الدين الخطيب فى ذلك : " ان ابن النديم انزلق مع الذين يفترون على ابن كلاب ما ليس فيه " .(١)

وهكذا تبيّن لنا أن عبد الله بن كلاب كيف واجه هجوما عنيفا من المعتزلة التى كانت أبرز فئة أتّهمته باتباع النصارى ، وذلك من أجل تحقيق الهدف الذى يسعون اليه وهو : تشويه سمعة علماء أهل السنة عن طريق الطعن فيهم ، وتشويه مذهبهم فانهم حريصون جدا على ذلك ، لذا وجهوا الى ابن كلاب هذه التهم الباطلة من أجل الطعن فيه وفى مذهبه .

وكذلك افترت المعتزلة والجهمية على ابن كلاب افتراءات عديدة ، ووضعوا فيه حكايات لا أصل لها ، لكون ابن كلاب يثبت الصفات والقدر ، ويرد عليهم بأنهم نفاة للصفات والقدر ، ويبين فساد قولهم ، ويكشف كثيرا من عوراتهم ، ويصنف فى الرد عليهم مصنفات .

فقد وضعوا فى مثالبه : أنه كان نصرانيا ، فأسلم ، وابتدع أقواله ليدس دين النصارى فى ملة المسلمين ، وغير ذلك من الحكايات ، لأنه أثبت الصفات، وعندهم أن من أثبت الصفات فقد أشبه النصارى ، كما سبق .

قال النديم :" قال أبو العباس البغوى : دخلنا على فثيون النصرانى ، وكان فى دار الروم بالجانب الغربى ، فجرى الحديث الى أن سألته عن ابن كلاب، فقال : رحم الله عبد الله ، كان يجنبى ، فيجلس الى تلك الزاوية ، وأشار الى ناحية من البيعة ، وعنا أخذ هذا القول ، ولو عاش لنصرنا المسلمين ، قال البغوى : وسأله محمد بن اسحاق الطالقانى ، فقال : ما تقول فى المسيح ؟ قال : ما يقوله أهل السنة من المسلمين فى القرآن " .(٢)

---

(١) المنتقى (ص ٩٣) ، الهامش رقم (١) لمحب الدين الخطيب .
(٢) الفهرست (ص١٨٠) ، الوافى بالوفيات (١٧/ ٤٩٢) .

ومما افتروا على ابن كلاب أيضا : ما وضعوه في أخته حكاية أنها نصرانية ، وأن ابن كلاب لما أسلم اعترضت على اسلامه ، وهجرته ، فاسترضاها بقوله : يا أختى ، انى أريد أن أفسد دين المسلمين ، فرضيت عنه بذلك .

قال السكسكي : " وكان — أى ابن كلاب — نصرانيا ، فأسلم ، وفارق قومه ، وكانت له أخت أكبر منه عالمة بدين النصرانية ، لها عندهم قدر عظيم ، فهجرته حين أسلم ، وأبعدته من المحلة ، لأنها كانت راهبة للنصارى ، مقبولة القول عندهم ، يصدرون عن رأيها ، فتحيل عليها كل أحد من المسلمين والنصارى من الجيران في أن تمكنه من الدخول اليها ، فلم تفعل ، فاحتال حتى تسلق عليها من بعض بيوت الجيران ، فلما رأته صاحت ، فقال لها : ياسيدتى ، اسمعى منى كلمة واحدة ، ثم افعلى ما بدا لك ، فقالت : هات ، فقال : اعلمى أنى وجدت هذا الاسلام ينشر ويزداد كل يوم ظهورا ، والنصرانية تضمحل آثارها ، فوضعت فصولا ، وعملت مسائل — ذكرها لها — أودعتها معنى النصرانية ، وأسسها في الاسلام ، وشوشت عليهم أصولهم ، فلما سمعت ذلك منه طابت نفسها " .(١)

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : " ومما افترته الجهمية على المثبتة : أن ابن كلاب لما كان من المثبتين للصفات ، وصنف الكتب في الرد على النفاة ، وضعوا على أخته حكاية أنها كانت نصرانية ، وأنه لما أسلم هجرته ، فقال لها : يا أختى انى أريد أن أفسد دين المسلمين ، فرضيت عنه بذلك " .(٢)

فقد رد علماء أهل السنة على هذه الحكايات أيضا ، وفندوها ، وكذبوها .

وقد تولى شيخ الاسلام ابن تيمية تكذيبها ، ودافع عن ابن كلاب ضد من يفترون عليه ، كما طعن في الرواية التي يحكيها هؤلاء الخصوم ، وبين أنها كذب عليه ، وانما افتراها عليه المعتزلة والجهمية لرد ابن كلاب عليهم ولاثباته الصفات ،

---

(١) البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان للسكسكي (ص ١٩) .

(٢) منهاج السنة (٢/٣٩٧) ، طبعة مكتبة العروبة ، المنتقى (ص ٩٣) .

ومقصودهم بوضع هذه الأكاذيب : أن يصلوا بين قول ابن كلاب فى اثبات الصفات وبين قول النصارى فى اثبات الأقانيم الثلاثة ، وأن ابن كلاب أخذ فكرته عنهم.

قال ابن تيمية رحمه الله : " ومن قال انه ابتدع ما ابتدعه ليظهر دين النصارى فى المسلمين ، كما يذكره طائفة فى مثالبه ، ويذكرون أنه أوصى أخته بذلك ، فهذا كذب عليه ، وانما افترى هذا عليه المعتزلة والجهمية الذين رد عليهم ، فانهم يزعمون : أن من أثبت الصفات فقد قال بقول النصارى ".(١)

ثم بين شيخ الاسلام أن مثل ذلك ذكر عنهم الامام أحمد فى كتابه الرد على الجهمية والزنادقة ، فقال : " ومن العجب أن الجهمية من المعتزلة وغيرهم ينسبون المثبتين للصفات الى قول النصارى ، كما قد ذكر ذلك عنهم أحمد وغيره من العلماء ، ولهذا السبب وضعوا على ابن كلاب حكاية راجت على بعض المنتسبين الى السنة ، فذكروها فى مثالبه ، ... وهذه الحكاية انما افتراها بعض الجهمية من المعتزلة ونحوهم ، لأن ابن كلاب خالف هؤلاء فى اثبات الصفات ، وهم ينسبون مثبتة الصفات الى مشابهة النصارى ، وهم أشبه بالنصارى ، لأنه يلزمهم أن يقولوا : انه فى كل مكان ، وهذا أعظم من قول النصارى ، أو أن يقولوا ما هو شر من هذا ، وهو أنه لا داخل العالم ولا خارجه ".(٢)

ونجد نفس التكذيب عند الذهبى ، حيث قال : " وقال بعض من لا يعلم : انه ابتدع ما ابتدعه ليدس دين النصارى فى ملتنا ، وانه أرضى أخته بذلك ، وهذا باطل ، والرجل أقرب المتكلمين الى السنة ، بل هو فى مناظريهم ".(٣)

---

(١) الفتاوى (٥/٥٥٥) ، (٨/١١٥) ، كتاب شرح حديث النزول (ص ١٧١) ، منهاج السنة ، طبعة العروبة (٢/٣٩٧) ، المنتقى (ص ٩٣) ، مجموعة الرسائل والمسائل (٤/٣١٣) ، منهج علماء الحديث والسنة فى أصول الدين للدكتور مصطفى حلمى (ص ١٦٧).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٦/١٥٥) ، مجموعة الرسائل والمسائل (٤/٣١٣) وانظر لقول الامام أحمد عن المعتزلة فى ذلك : الرد على الزنادقة والجهمية لأحمد بن حنبل ، ضمن عقائد السلف ، (ص ٩١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/١٧٥).

وكان لبعض المنتسبين الى أهل السنة أثر كبير فى ترويج هذه الحكايات واحيائها ، حيث ساهموا مساهمة كبيرة فى تناقلها ونشرها بين الناس ، مع أنها محض افتراء من المعتزلة على ابن كلاب، وما فعلوا ذلك الا لغرض التنفير عن ابن كلاب لما قاله من القول فى مسألة القرآن ، وممن قام بذلك : طائفة من السالمية وبعض أهل الحديث والسنة وبعض الفقهاء .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " وصار ينقل هذه الحكاية من ليس من المعتزلة من السالمية ، ويذكرها بعض أهل الحديث والسنة وبعض الفقهاء الذى يذم بها ابن كلاب، وينفر عنه لما أحدثه من القول فى مسألة القرآن ، ويستعينون بمثل هذا الكلام الذى هو من افتراء الجهمية والمعتزلة عليه ، ولا يعلم هؤلاء أن الذين اتهموه بمثل هذا : هم شر منه ، وهو خير وأقرب الى السنة منهم " (١) .

وكما طعن فى ابن كلاب طعن أيضا فى أبى الحسن الأشعرى حيث وضعت المعتزلة عليه كثيرا من حكايات غير صحيحة ، لأن الأشعرى رد عليهم ، وبين تناقضهم بشكل لم يبينه غيره .

يقول ابن تيمية : " وكان أبو الحسن الأشعرى ، لما رجع عن الاعتزال سلك طريقة أبى محمد ابن كلاب، فصار طائفة ينتسبون الى السنة والحديث من السالمية وغيرهم ... يذكرون فى مثالب أبى الحسن أشياء هى من افتراء المعتزلة عليهم وغيرهم عليه ، لأن الأشعرى بين من تناقض أقوال المعتزلة وفسادها مالم يبينه غيره ، حتى جعلهم فى قمع السمسمة " (٢) .

اذن : لم يكن ابن كلاب أول شخص من العلماء اتهم بهذه التهم ، ولا آخر شخص ألصقت به أمثالها ، بل اتهم معظم المثبتين للصفات بمثل هذه الأقوال من قبل المعتزلة أو غيرها من الفرق المنحرفة ، كما بينه شيخ الاسلام ابن تيمية .

---

(١) الفتاوى (٥/٥٥٥) ، (٨/١١٥) ، منهاج السنة (٢/٣٩٧ — ٣٩٨) ، طبعة العروبة ، مجموعة الرسائل والمسائل (٤/٣١٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٥٥٦) ، شرح حديث النزل (ص ١٧٢) .

وأخيرا يجدر بنا أن نشير الى موقف المعتزلة من ابن كلاب والكلابية في باب التصنيف والتأليف ، حيث اعتنى المعتزلة عناية ملحوظة بالرد على ابن كلاب فى مؤلفاتهم ، وهاجموه هجوما عنيفا / فيها ، يكاد يكون ذلك أشد من هجومهم على أبى الحسن الأشعرى .

يرى الدكتور النشار سبب ذلك : " أن ابن كلاب ظهر ممثلا لأهل السنة فى النقاش العقلى ، فقابل المعتزلة ، وقطعهم مرارا فى مسألة اثبات الصفات القديمة لله تعالى . (١)

فجعل ذلك المعتزلة يفردون أبوابا متعددة فى كتبهم للهجوم عليه وعلى مذهبه الكلابية ، ويحاولون ما وسعهم الجهد وصل فكرته فى الصفات بفكرة الأقانيم لدى النصارى ، كما مر معنا سابقا .

ومما ظهر من ذلك كتاب " المحيط بالتكليف " للقاضى عبد الجبار ، اذ أورد فيه بابا بعنوان " باب على الكلابية وغيرهم " ، حاول فيه نقض أصلهم فى الكلام ، كما ردد النقد والهجوم عليهم ، (٢) وكذا خصص فصلا كاملا فى كتابه " المغنى " ، بعنوان " فصل على الكلابية فى ابطال قولهم انه تعالى متكلم لم يزل بكلام مخالف لكلامنا " ، (٣) ثم أتبعه بفصل آخر باسم : " فصل فى ابطال قولهم : ان كلام الله سبحانه لا يوصف ، ولا يقال فيه انه غيره ، وما يتصل بذلك " . (٤)

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى للنشار (١/٢٦٨ ، ٢٧٨) .

(٢) المحيط بالتكليف (ص ٣١٧ — ٣٢١ — ، وص : ١٢٤ ، ١٧٢ ، ٢٢٤ ، ٣٠٩) ، نشأة الفكر الفلسفى (١/٢٦٨) .

(٣) المغنى : للقاضى عبد الجبار (٧/٩٥ — ١١٦) .

(٤) نفس المصدر (٧/١١٧ — ١٢٧) .

كما وجدنا بابين فى كتاب " المختصر فى أصول الدين " للمؤلف نفسه ، ضمن رسائل العدل والتوحيد خصصهما للكلابية ، أولهما بعنوان " باب على الكلابية " ، يرد فيه مذهب الكلابية فى اثبات الصفات العقلية ،[1] وثانيهما بعنوان : " باب فى الكلام على الكلابية " ، رفض فيه رأى ابن كلاب فى مسألة كلام الله تعالى .[2]

نختم بحثنا هذا بإيراد قول الدكتور النشار فى كتابه "نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام"، حيث يقول النشار : " وقد انبرى لهؤلاء : ابن تيمية ، أعظم رجل من مفكرى السلف المتأخرين ، . . . وكتب كتابا من أهم كتبه وهو : " منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية " ، ردا على كتاب ابن المطهر الشيعى ، وأورد عبارات ابن المطهر ، ثم رد عليها ، وقد كان ابن المطهر - وهو يمثل الاعتزال - الشيعى المتأخر - معنيا بالرد على ابن كلاب ، ومهاجمته أعنف هجوم ، وقد تتبع ابن تيمية هذه المواضع واحدا فواحدا ، ورد عليها " .[3]

---

(١) رسائل العدل والتوحيد (١/ ١٨٢ - ١٨٣) .

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٩٣ - ١٩٥) .

(٣) نشأة الفكر الفلسفى للنشار (١/ ٢٧٠ - ٢٧١) .

أقـوال العلمـاء فيـه

أثنى العلماء على ابن كلاب ، فجعله بعضهم من فقهاء الشافعية ، وذكره مثلا أبو عاصم العبادى فى الفقهاء الشافعية مختصرا ، وجعله من طبقة أبى بكر الصيرفى ،[1] ولم يزد على أنه من المتكلمين ،[2] وقال عنه الصفدى :" عبد الله ابن سعيد ، الفقيه . . . " ، وأشار الى أن شيخ الاسلام تقى الدين بن تيمية يمدحه .[3]

وعده بعضهم من أقرب المتكلمين لأهل السنة لاثباته الأسماء والصفات على طريقة أهل الكلام .

قال عنه ابن حزم (ت ٤٢٦ هـ) :" شيخ قديم للأشعرية "،[4] وقال السمعانى فى الأنساب : " المتكلم على مذهب المثبتة "،[5] وقال ابن حجر عند ترجمته :" أحد المتكلمين فى أيام المأمون "،[6] وقال الأسنوى :" من كبار المتكلمين ، ومن أهل السنة "،[7] وقد وصفه الجوينى (ت ٤٧٨ هـ) بأنه " من أصحابنا "،[8] كما وصفه البغدادى بأنه من " قدماء أصحابنا "،[9] وذكر اسمه أحيانا مقرونا بالنعت ، وقال عنه :" قال شيخنا . . " .[10]

---

(١) هو محمد بن عبد الله ، أبو بكر ، الصيرفى ، الامام الأصولى ، توفى سنة (٣٣٠ هـ) ، كانت له مناظرة مع أبى الحسن الأشعرى حول وجوب شكر النعم ، طبقات الشافعية للسبكى (١٨٦/٣) .

(٢) طبقات الشافعية للعبادى (ص ٦٩ — ٧٠) ، طبقات الشافعية للأسنوى (٣٤٤/٢ — ٣٤٥) ، طبقات الشافعية للسبكى (٢٩٩/٢) ، المعتبر للزركشى (ص ٢٦٩) ، لسان الميزان لابن حجر (٢٩١/٣) .

(٣) الوافى بالوفيات (١٩٧/١٧ — ١٩٨) .

(٤) الفصل لابن حزم (٧٧/٥) .

(٥) الأنساب للسمعانى (٥١١/١٠) . (٦) لسان الميزان (٢٩٠/٣) .

(٧) طبقات الشافعية للأسنوى (٣٤٤/٢ — ٣٤٥) .

(٨) كتاب الارشاد للجوينى (ص ١١٩) .

(٩) أصول الدين للبغدادى (ص ١٢٣) .

(١٠) نفس المصدر (ص ١٠٤) .

ونلاحظ مما تقدم : أن ابن كلاب من أئمة المتكلمين ، ولكنه من المنتسبين الى أهل السنة ، ولم يجتمع لأحد قبله هذا الوصف ، وذلك : لأن المتكلمين عموما قبله كانوا إما جهمية وإما معتزلة ، حيث كان أصحاب الحديث وأهل السنة يرفضون الكلام والخوض فيه ، والتعبير الأكثر دقة يقتضى منا القول بأنه أول متكلم ليس من الجهمية أو المعتزلة أو القدرية أو المرجئة أو الشيعة أو الخوارج .(١)

وتركز ثناء العلماء على ما قام به ابن كلاب من الرد على المعتزلة وغيرهم ، والدفاع عن عقيدة أهل السنة .

قال عنه البغدادى :" من متكلمى أهل السنة فى أيام المأمون : عبد الله ابن سعيد التميمى ، الذى دمر على المعتزلة فى مجلس المأمون ، وفضحهم ببيانه ، وآثار بيانه فى كتبه ".(٢)

وقال القاضى عياض (ت ٥٤٤ هـ) :" وانما كانوا يعرفون ــ أى الأشاعرة ــ قبل ذلك بالمثبتة ، سمة عرفتهم بها المعتزلة ، اذ أثبتوا من السنة والشرع ما نفوه ، فبهذه السمة أولا كان يعرف أئمة الذب عن السنة من أهل الحديث كالمحاسبى وابن كلاب وعبد العزيز بن عبد الملك المكى".(٣)

واعتبره الشهرستانى (ت ٥٤٨ هـ) من جملة السلف ، فقال :" وكانت بين المعتزلة وبين السلف فى كل زمان اختلافات فى الصفات ، وكان السلف يناظرونهم عليها ، لا على قانون كلامى ، بل على قول اقناعى ، ويسمون الصفاتية ، فمن مثبت صفات البارى تعالى معانى قائمة بذاته ، ومن مشبه صفاته بصفات الخلق ،

---

(١) القضاء والقدر فى الاسلام :د / فاروق الدسوقى (١/٢٠٣) ، ونشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام :د / على سامى النشار (١/٢٦٦) .

(٢) أصول الدين للبغدادى (ص ٣٠٩) .

(٣) ترتيب المدارك للقاضى عياض (٥/٢٥) .

وكلهم يتعلقون بظواهر الكتاب والسنة ، ويناظرون المعتزلة فى قدم العالم على قول ظاهر ، وكان عبد الله بن سعيد الكلابى وأبو العباس القلانسى والحارث ابن أسد المحاسبى أشبههم اتقانا وأمتنهم كلاما " (١) .

وجعل الشهرستانى فى موضع آخر عبد الله بن سعيد والمحاسبى والقلانسى: الأتباع المباشرين لمالك بن أنس وأحمد بن حنبل ، الذين ساروا على منهج السلف ، فلم يتعرضوا للتأويل ، ولا تهدفوا للتشبيه ، الا أنهم التزموا بمنهج عقلى كلامى بصفة عامة ، فقال : " وأما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ولا تهدفوا للتشبيه ، فمنهم مالك بن أنس رضى الله عنهما ، اذ قال : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، ومثل أحمد بن حنبل رحمه الله ، وسفيان الثورى ، (٢) وداود بن على الاصفهانى ، ومن تابعهم ، حتى انتهى الزمان الى عبد الله بن سعيد الكلابى ، وأبى العباس القلانسى ، والحارث بن أسد المحاسبى ، وهؤلاء كانوا من جملة السلف، الا أنهم باشروا علم الكلام ، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين أصولية ، وصنف بعضهم ، ودرس بعض" (٣) .

وذكر ابن عساكر فى " تبيين كذب المفترى " ، عن عبد الله بن أبى زيد القيروانى ، الفقيه المالكى ومقدم أصحاب الامام مالك بالمغرب فى زمانه ، قوله عن ابن كلاب بأنه كان ممن يتقلد السنة ، ويتولى الرد على الجهمية وغيرهم من أهل البدعة ،

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى (١/٣٢) .

(٢) هو : سفيان بن سعيد بن مسروق ، الثورى ، من بنى ثور ، من مضر ، أبو عبد الله ، الامام ، المحدث ، سيد أهل زمانه فى علوم الدين والزهد والورع ، ولد سنة (٩٧ هـ) فى الكوفة ، ونشأ فيها ، وتوفى بالبصرة سنة (١٦١ هـ) ، وفيات الأعيان (٢/٣٨٦ — ٣٩٠) ، تهذيب التهذيب (٤/١١١ — ١١٥) ، الأعلام (٣/١٠٤ — ١٠٥) .

(٣) الملل والنحل (١/٩٣)، نشأة الاشعرية وتطورها (ص ٣٧) .

فقال : " ونسبت ابن كلاب الى البدعة ، ثم لم تحك عنه قولا يعرف أنه بدعة ، فيوسم بهذا الاسم ، وما علمنا من نسب الى ابن كلاب البدعة ، والذى بلغنا أنه يتقلد السنة ، ويتولى الرد على الجهمية وغيرهم من أهل البدع " (١) .

وقال عنه الذهبى : " رأس المتكلمين بالبصرة فى زمانه ، . . . وصاحب التصانيف فى الرد على المعتزلة " (٢) .

وترجم له الزبيدى بقوله : " لا يخلو زمان من القائمين بنصرة الدين واظهاره ، وكيف لا ، وقد سبق الأشعرى فى ذلك الامام عبد الله بن سعيد القطان ، وله قواعد وكتب وأصحاب " (٣) .

أما ابن فورك (ت ٤٠٦ هـ) فى الكتاب الذى أفرده لمقالاته فقد مدحه كثيرا ، وأثنى عليه ثناء عظيما ، وكان مما قال فيه — كما نقل عنه شيخ الاسلام ابن تيمية — : " انه أحب من سماه من أعيان أهل عصره : أن أجمع له متفرق مقالات أبى محمد بن كلاب ، شيخ أهل الدين ، وامام المحققين ، المنتصر للحق وأهله ، المبين بحجج الله ، الذاب عن دين الله ، لما من به الله تعالى من معالم طرق دينه الحق ، وصراطه المستقيم ، السيف المسلول على أهل الأهواء والبدع ، الموفق لاتباع الحق ، والمؤيد بنصرة الهدى والرشد "، ثم قال : " ولما كان الشيخ الأول ، والامام السابق ، أبو محمد عبد الله بن سعيد ، الممهد لهذه القواعد ، المؤسس لهذه الأصول ، والفاصل بحسن ثناثه بين حجج الحق وشبه الباطل ، بالتنبيه على طرق الكلام فيه ، والدال على موضع الوصل والفصل ،

---

(١) تبيين كذب المفترى فيما نسب الى الامام أبى الحسن الأشعرى لابن عساكر : (ص ٤٠٥ — ٤٠٦) .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبى (١١ / ١٧٤) ، المشتبه له أيضا (٢ / ٥٥٥) .

(٣) اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احياء علوم الدين للزبيدى (٢ / ٥) ، اشارات المرام للبياضى (ص ٢٣) .

والجمع والفرق ، الفاتق لرتق الأباطيل ، والكاشف عن لبس ما زخرفوا وموهوا"، وذكر كلاما طويلا فى الثناء عليه .(١)

أما شيخ الاسلام ابن تيمية : فهو يمدحه فى غير موضع من كتبه ، فيجعله مرة صنوا للامام أحمد بن حنبل ، ويرى أنه مثل أحمد وغيره من أئمة السلف فى الاثبات ويقول مثلا : " وقد اتفق النظار من مثبتة الصفات على أنه يعلم بالعقل — عند المحققين — أنه حى عليم قدير مريد ، وكذلك السمع والبصر والكلام يثبت بالعقل عند المحققين منهم ، بل وكذلك الحب والرضا والغضب يمكن اثباته بالعقل وكذلك علوه على المخلوقات ومباينته لها مما يعلم بالعقل ، كما أثبتته بذلك الأئمة ، مثل أحمد بن حنبل وغيره ، ومثل عبد العزيز المكى ، وعبد الله بن سعيد بن كلاب".(٢)

ويعتبره مرة ثانية من حذاق المثبتة وأئمتهم ، ويقول : " انا لا نطلق على صفاته انها غيره ، ولا أنها ليست غيره على ما عليه أئمة السلف كالامام أحمد ابن حنبل وغيره ، وهو اختيار حذاق المثبتة كابن كلاب وغيره "،(٣) وفى موضع آخر يقول : " وقد نص الأئمة كأحمد بن حنبل وغيره ، وأئمة المثبتة كأبى محمد ابن كلاب وغيره على أن القائل . . . " .(٤)

ويراه أحيانا : أنه شارك أئمة السلف فى الرد على مقالات الجهمية ، ويقول : " وهذا مما احتج به سلف الأمة وأئمتها على الجهمية ، كما احتج به الامام أحمد فى رده على الجهمية ، وعبد العزيز الكنانى ، وعبد الله بن سعيد بن كلاب ، والحارث المحاسبى وغيرهم . . . " .(٥)

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ١٢١) .

(٢) التدمرية (ص ١٤٩ — ١٥٠) .

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل (٤/ ٢٠٦) .

(٤) نفس المصدر (٤/ ٢٠٧) .

(٥) منهاج السنة (٢/ ٤٤٥) ، طبعة مكتبة العروبة .

وكثيرا ما يشير الى أنه أقرب الناس الى السلف ، بل يفضله على الأشعرى فى ذلك ، ويقول : " والكلابية هم مشايخ الأشعرية ، فان أبا الحسن الأشعرى انما اقتدى بطريقة أبى محمد بن كلاب ، وابن كلاب كان أقرب الى السلف زمنا وطريقة " (١) .

وقال فى موضع آخر : " كل من كان الى الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم باحسان أقرب : كان أقرب الى كمال التوحيد والايمان والعقل والعرفان ، وكل من كان عنهم أبعد : كان عن ذلك أبعد ، فمتأخرو متكلمة الاثبات الذين خلطوا الكلام بالفلسفة كالرازى (٢) والآمدى (٣) ونحوهما : هم دون أبى المعالى الجوينى (٤) وأمثاله فى تقرير التوحيد واثبات صفات الكمال ،

---

(١) كتاب الاستقامة لابن تيمية (١/١٠٥) .

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين ، أبو عبد الله ، فخرالدين ، التميمى البكرى ، الرازى ، المعروف بابن الخطيب ، المفسر ، الفقيه الشافعى ، المتكلم ، صاحب التصانيف المشهورة ، القرشى النسب ، وأصله من طبرستان ، ولد بالرى سنة (٥٤٤) ، وتوفى فى هراة سنة (٦٠٦هـ) ، من مصنفاته : التفسير المعروف مفاتيح الغيب ، والمحصول فى علم الأصول ، والمطالب العاليه ، ونهاية العقول ، ومحصل . . . وغير ذلك . وفيات الأعيان (٤/٢٤٨- ٢٥٢) ، الأعلام (٦/٣١٣) .

(٣) هو على بن أبى على بن محمد بن سالم ، الآمدى ، أبو الحسن ، الفقيه الأصولى ، الملقب بسيف الدين ، ولد بآمد سنة (٥٥١هـ) ، وتوفى بدمشق سنة (٦٣١هـ) ، من مصنفاته : الاحكام فى أصول الأحكام ، أبكار الأفكار ، غاية المرام ، وغير ذلك . ميزان الاعتدال (٢/٢٥٩) ، لسان الميزان (٣/١٣٤ - ١٣٥) ، الأعلام (٤/٣٣٢) .

(٤) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف ، الجوينى ، الفقيه الشافعى ، من أعظم أئمة الأشاعرة ، تتلمذ عليه الغزالى ، ولد بنيسابور سنة (٤١٩هـ) ، وتوفى بها سنة (٤٧٨هـ) ، جاور مكة المكرمة ، فقيل له امام الحرمين ، من أشهر مصنفاته : الارشاد ، والشامل ، والبرهان فى أصول الفقه ، والرسالة النظامية ، وغياث الأمم ، وغير ذلك . تبيين كذب المفترى (ص ٢٧٨ — ٢٨٥) ، شذرات الذهب (٣/٣٥٨ — ٣٦٢) ، الأعلام (٤/٣٠٦) .

وأبو المعالى وأمثاله دون القاضى أبى بكر بن الطيب وأمثاله فى ذلك ، وهؤلاء دون أبى الحسن الأشعرى فى ذلك ، والأشعرى فى ذلك دون أبى محمد ابن كلاب ، وابن كلاب دون السلف والأئمة فى ذلك ". (١)

وقد علق الشيخ محب الدين الخطيب على ذلك بقوله : " هذه شهادة عظيمة بمنزلة كريمة لابن كلاب ، ولو اطلعنا عليها عند كتابة ما كتبناه عنه فى هامش رقم (٤١) لأشرنا اليها هناك ". (٢)

وقال ابن تيمية أيضا : " كل من كان الى طريق الرسالة والسلف أقرب : كان الى موافقة صريح المعقول وصحيح المنقول أقرب ، فالقاضى أبو بكر وان كان أقرب الى صريح المعقول وصحيح المنقول فى أصول الدين ــ بخلاف أصول الفقه ــ من أبى المعالى وأتباعه ، والأشعرى أقرب الى ذلك من القاضى أبى بكر ، وأبو محمد بن كلاب أقرب الى ذلك من أبى الحسن ، والسلف والأئمة أقرب الى ذلك من ابن كلاب ، فكل من كان الى الرسول صلى الله عليه وسلم أقرب : كان أولى بصريح المعقول وصحيح المنقول ، لأن كلام المعصوم هو الحق الذى لا باطل فيه ". (٣)

من خلال ما تقدم نلاحظ : أن شيخ الاسلام ابن تيمية يمدح ابن كلاب ، ويثنى عليه كثيرا ، ويجعله اكثر اثباتا واتباعا للسنة ممن جاء بعده من المتكلمين ولكنه لا يعده سلفيا خالصا ، لأن المذهب السلفى يرفض الخوض فى علم الكلام ، سواء على منهج المعتزلة ، أو للدفاع عن عقيدة أهل السنة ضد مخالفيها .

والمعروف عن ابن كلاب وأصحابه أنهم خاضوا علم الكلام ، وباشروه حول الصفات الالهية والمسائل الأخرى الاعتقادية ، ودافعوا عن عقيدتهم بالمنهج الكلامى .

---

(١) منهاج السنة (٢٩٣/٣) ، طبعة جامعة الامام .

(٢) المنتقى (ص ١٤٩) ، الهامش رقم (١) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٩١/٨) ، ومجموع الفتاوى (١٥٦/٤) .

ومع ذلك : يقر ابن تيمية بوجود تقارب بين المذهبين ، ويقرب اعتقاد ابن كلاب من عقيدة السلف ، لأن القارئ لأقوال شيخ الاسلام يلمس دقة في نقده لابن كلاب ، وذلك بسبب مواقف ابن كلاب المؤيدة لمذهب السلف في الكثير من المواضع من العقيدة ، وبسبب رد وده على المعتزلة والجهمية .

ولهذا يرى ابن تيمية : أنه ينبغي أن يعرف لهذا الامام حقه وقدره ، ويقر بما كان له من فضل وعلم ودين ، فيقول : " وكان ممن انتدب للرد عليهم — أي المعتزلة — أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب، وكان له فضل وعلم ودين " .(١)

ويقول في موضع آخر : " قد نبغ في أواخر عصر أبي عبد الله — أي الامام أحمد بن حنبل — من الكلابية ونحوهم : أتباع ابي محمد ، عبد الله بن سعيد ابن كلاب البصري ، الذي صنف مصنفات رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، وهو من متكلمة الصفاتية ، وطريقته يميل فيها الى مذهب أهل الحديث والسنة ، لكن فيها نوع من البدعة ، لكونه أثبت قيام الصفات بذات الله ، ولم يثبت قيام الأمور الاختيارية بذاته ، ولكن له في الرد على الجهمية — نفاة الصفات والعلو — من الدلائل والحجج وبسط القول مابين به فضله في هذا الباب ، وافساده لمذاهب نفاة الصفات بأنواع من الأدلة والخطاب ، وصار ما ذكره معونة ونصيرا وتخليصا من شبههم لكثير من أولي الألباب ، حتى صار قدوة واماما لمن جاء بعده من هذا الصنف الذين أثبتوا الصفات ، وناقضوا نفاتها ... " .(٢)

وهكذا استطاع شيخ الاسلام ابن تيمية باستخدامه لمنهج المعادلة والموازنة أن يقدر قدر ابن كلاب ، ويحدد مدى اقترابه أوابتعاده عن طريقة السلف .(٣)

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٥٥٥) ، شرح حديث النزول (١٧١) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٢/٣٦٦ — ٣٦٧) .

(٣) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين ، د / مصطفى حلمي ، (ص ٢٠٠ — ٢٠٢) .

وأما تلميذه ابن قيم الجوزية فهو يرى ابن كلاب أيضاً من اعظم أهل الاثبات، فيقول عنه : "كان من أعظم أهل الاثبات للصفات والفوقية وعلو الله على عرشه، منكرا لقول الجهمية "(١).

... وغيرهم من العلماء الذين مدحوه، وأثنوا على ما قام به من نصر السنة والرد على المبتدعة من المعتزلة وغيرهم .

لكن ابن كلاب ، في مقابل هذا المدح والثناء من جمهور العلماء ، لم يسلم من الانتقاد والذم ، وفي هذا الباب : نقل ابن تيمية عن أبي عبد الرحمن السلمي(٢)، أنه كان ينكر مذهب الكلابية ويبدعهم ، وصنف في ذم الكلام مصنفا ، وكذلك عامة مشايخ الصوفية ، لا يعرف عن شيخ منهم أنه كان ينصر طريقة الكلابية والأشعرية(٣)، بل قيل عن السلمي أنه كان يلعن الكلابية(٤) .

والسبب في ذم الصوفية والمشايخ منهم لابن كلاب يرجع الى أن ابن كلاب لا يرفض الاستعانة بالمنهج العقلي ، بل يأخذ به ، والصوفية يكرهون ذلك ، ويعتبرون المجادلة والمناظرة من أمور الكلام المذموم ، بل وصنفوا في ذلك مصنفات عدّة .

ومن الذين أنكروا على الكلابية منهجهم العقلي الكلامي : الامام أحمد وابن خزيمة وغيرهما من أئمة السلف .

---

(١) اجتماع الجيوش الاسلامية (ص ١١١) .

(٢) محمد بن الحسين بن محمد ، الازدي ، السلمي ، النيسابوري ، أبو عبد الرحمن من شيوخ الصوفية ، وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم ، ولد سنة (٣٢٥هـ) وتوفي سنة (٤١٢هـ) ، بلغت تصانيفه مائة أو أكثر ، منها : حقائق التفسير ، وطبقات الصوفية وآداب الصحبة وغيرها ، الأعلام (٦/٩٩) .

(٣) الاستقامة لابن تيمية (١/٨٣ – ٨٥) .

(٤) درء تعارض (٢/٨٢) .

موقف الامام أحمد وابن خزيمة من عبد الله بن كلاب وأصحابه :

روى عن الامام أحمد بن حنبل أنه كان دائم الانكار على ابن كلاب وأصحابه ، وكان يحذر منهم ، يقول ابن حجر رحمه الله : " نقل الحاكم فى تاريخه عن ابن خزيمة أنه كان يعيب مذهب الكلابية ، ويذكر عن أحمد بن حنبل أنه كان أشد الناس على عبد الله بن سعيد وأصحابه " .(١)

وقد اشتدت حملة أحمد بن حنبل على ابن كلاب ، حتى أمر بهجر الكلابية ، وهجر الحارث المحاسبى ، مع جلالة قدر الحارث، لأنه كان صاحب ابن كلاب ، وكان على مذهبه فى مسائل العقيدة .

والسبب الذى دفع أحمد الى ذلك : هو خوض ابن كلاب فى مسائل الكلام، وقوله فى مسألة قيام الأفعال بالله عز وجل،ورأيه فى كلامه سبحانه وتعالى من أن الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وأنه ليس فيما يقوم به شيئ يكون بمشيئته وقدرته ، لامتناع قيام الأمور الاختيارية به تعالى ، وهو بهذا مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة .

وفى الحقيقة : أن الامام أحمد رحمه الله كان شديد الانكار والمعارضة على عموم أهل الكلام الذين يستخدمون المنهج الكلامى العقلى فيما يعرضون من الآراء.(٢)

وهذا هو الذى دفع امام السنة الى ما نقلوه عنه من انكاره الشديد على ابن كلاب وعموم الكلابية .

يذكر ذلك عنه شيخ الاسلام ابن تيمية بقوله : " وهذا الأصل هو مما أنكره الامام أحمد على ابن كلاب وأصحابه ، حتى على الحارث المحاسبى ، مع جلالة قدر المحاسبى ".(٣)

---

(١) لسان الميزان (٣/ ٢٩١) .

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم (٤/ ١٢٦٩) .

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل (٣/ ٤١٠) ، درء تعارض العقل والنقل (٧/ ١٤٨ — ١٤٩) .

ويقول ابن تيمية أيضا : " قام أبو محمد ، عبد الله بن سعيد بن كلاب البصرى وصنف فى الرد على الجهمية والمعتزلة مصنفات ، وبين تناقضهم فيها ، وكشف كثيرا من عوراتهم ، لكن سلم لهم ذلك الأصل الذى هو ينبوع البدع ، فاحتاج لذلك أن يقول : ان الرب لا تقوم به الأمور الاختيارية ، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا نادى موسى حين جاء الطور . . . الخ ، مما أخبرت به نصوص الكتاب والسنة ".(١)

فالنتيجة أن ذكره الامام أحمد بن حنبل من ابن كلاب انكاره قيام الأفعال الاختيارية بذاته تعالى ، بمعنى أنه لا يقوم بذاته ما يتعلق بمشيئته وقدرته ، وهى المسألة التى خالف فيها أهل السنة .

يقول ابن تيمية رحمه الله : " وبهذا ذم السلف والأئمة أهل الكلام والمتكلمين الصفاتية ، كابن كرام وابن كلاب والأشعرى ، وما تكلم فيه من تكلم من أعيان الأمة وأئمتها المقبولين فيها من جميع الطوائف من الفقهاء وأهل الحديث والصوفية الا بما يقولون : خالفوا فيه السنة والحديث ، لخفائه عليهم ، أو اعراضهم عنه ، أو لاقتضاء أصل قياس - مهّدوه - ردّ ذلك كما يقع نحو ذلك فى المسائل العلمية ".(٢)

ومن الذين أنكروا على الكلابية ، وحملوا عليهم حملة شديدة : امام الأئمة الحافظ ابن خزيمة الذى كان يعيب على الكلابية، والذى كان ينقل عن الامام أحمد أنه كان يذم الكلابية ويحذر منهم ، كما أسلفناه آنفا .

وهذا التحامل من ابن خزيمة لم يكن قاصرا على الكلابية فقط ، بل كان يشمل جميع طوائف أهل الكلام أيضا ، فقد أظهر رحمه الله كراهيته لهم جميعا ، لأن الأئمة والعلماء لم يمارسوا الكلام فى أمور الدين ، بل كرهوا ذلك ، ونهوا عنه .

---

(١) منهاج السنة (١/٢٢٣) ، طبعة العروبة ، والفتاوى (٥/٥٥٧) ، وشرح حديث النزول (ص ١٧٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (٤/١٤) .

فقد ورد عنه قوله عن الكلام وأهله حينما سئل عن الكلام فى الأسماء والصفات، فقال : " بدعة ابتدعوها ، ولم يكن أئمة المسلمين وأرباب المذاهب وأئمة الدين ، مثل مالك وسفيان ، والأوزاعى ، والشافعى ، وأحمد واسحاق ويحيى بن يحيى، وابن المبارك ، ومحمد بن يحيى ، وأبى حنيفة ، ومحمد بن الحسن ، وأبى يوسف يتكلمون فى ذلك ، وينهون عن الخوض فيه ، ويدلون أصحابهم على الكتاب والسنة فاياك والخوض فيه والنظر فى كتبهم بحال " (١) .

فكان ابن خزيمة يكره الكلام ، وينهى أصحابه عن الاشتغال به ، ولما سمع أن نفرا من أصحابه يخوضون فيه ، ويخالفونه ، وهو لا يدرى ، وأنهم على مذهب الكلابية ، وابن خزيمة شديد على الكلابية : غضب عليهم غضبا ، ووقع بينه وبينهم نزاع ، وجرت لهم معه قصة طويلة سماها ابن تيمية بالفتنة الكلابية .

وذلك لما كان اثبات صفات الله تعالى هو المعروف عند علماء أهل السنة والحديث الذين أدركهم ابن خزيمة وتابعهم فى العقيدة ، حيث استقرت على الايمان بأن الله تعالى لم يزل متكلما اذا شاء ، وأنه يتكلم بالكلام مرة بعد مرة .

وكان جماعة من أصحاب ابن خزيمة ، مثل أبى على الثقفى ، (٢) وأبى بكر الصبغى (٣) وغيرهما، قد تلقوا طريقة ابن كلاب ، يقولون فى كلام الله بمقالته ،

---

(١) الاستقامة (١/١٠٨) .

(٢) هو : محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ، الثقفى ، النيسابورى ، الشافعى أبو على ، شيخ خرسان ، الواعظ ، الزاهد ، ولد سنة (٢٤٤ هـ) ، وتوفى سنة (٣٢٨ هـ) ، قال عنه الذهبى : (ومع علمه وكماله خالف ابن خزيمة فى بعض مسائل العقيدة ، فألزم البيت ، ولم يخرج منه الى أن مات ، وأصابه فى ذلك محن) ، انظر : سير أعلام النبلاء (١٥/٢٨٢) ، أصول الدين للبغدادى (ص ٣٠٠) ، طبقات الصوفية للسلمى (ص ٣٦١) .

(٣) هو : أبو بكر أحمد بن اسحاق ابن أيوب بن يزيد ، النيسابورى ، الشافعى، المعروف بالصبغى ، ولد سنة (٢٥٨هـ) ، وقد خلف ابن خزيمة فى الفتوى ==

ويذهبون الى ما ذهب اليه من أنه تعالى لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، بل كلامه المعين لازم لذاته أزلا وأبدا .(١)

وكان بنيسابور طائفة من الجهمية والمعتزلة قد عرفوا أصل قول ابن كلاب فى هذه المسألة ، فأرادوا التفريق بين ابن خزيمة وبين أصحابه ، فاطلعوه على حقيقة قول أصحابه،فنفر الامام منهم،(٢) وجمع أصحابه ، فقال لهم : " ألم أنهكم غير مرة عن الخوض فى الكلام؟ " ولما سألوه : " ما الذى انكرت من مذاهبنا أيها الامام ، حتى نرجع عنه ؟ " ، قال : " ميلكم الى مذهب الكلابية ، فقد كان الامام أحمد من أشد الناس على عبد الله بن سعيد وأصحابه " .(٣)

وصار الناس حينذاك حزبين ، فالجمهور من أهل السنة والحديث مع ابن خزيمة ، ومن وافق طريقة ابن كلاب مع الحزب الآخر .

وجرت بين ابن خزيمة وبين أصحابه محنة طويلة ، استتيبوا فيها من قولهم ، حتى رجعوا ، وأظهروا موافقتهم له .

وهى قصة طويلة جدا ، ذكرها الحاكم فى تاريخ نيسابور ، وأبو اسماعيل الأنصارى فى مناقب الامام أحمد ، ونقل بعض أحداثها عنهما : شيخ الاسلام ابن تيمية ،(٤) والحافظ الذهبى .(٥)

ونحن سنذكرها ان شاء الله بتفاصيلها فى فصل كلام الله عزوجل .

== بضع عشرة سنة ،وله مصنفات كثيرة ،منها : كتاب الأسماء والصفات ، كتاب الايمان ، كتاب القدر وغير ذلك ،وتوفى سنة (٣٤٢ هـ) ،أنظر : سير أعلام النبلاء (١٥/٤٨٣) ،وطبقات الشافعية للسبكى (٣/٩) .

(١) درء تعارض (٢/٨ - ٩) .

(٢) كتاب النبوات لابن تيمية (ص ٦٤ - ٦٥) .

(٣) مجموع الفتاوى (٦/١٧٠ - ١٧٢) .

(٤) مجموع الفتاوى (٦/١٦٩ - ١٧٥ ، ١٧٧) ، درء تعارض العقل والنقل (٢/٨ - ١٠ ، ٧٧ - ٨٢) ،كتاب النبوات لابن تيمية (ص ٦٥ - ٦٦) ، وكتاب الاستقامة له ايضا (١/١٠٩ - ١١٠) .

(٥) سير أعلام النبلاء (١٤/٣٧٧ - ٣٧٨) .

والذى يظهر لى مما تقدم : أن الكلابية وان كانوا موافقين لأهل السنة فى مسائل كثيرة فى العقيدة ، وفى الرد على المعتزلة والجهمية وغيرهم : الا أنهم تلبسوا بأشياء من أقوال النفاة ، ظنا منهم أنها صحيحة ، ومن ثم ذمهم السلف، وحذروا من أقوالهم التى خالفوا فيها أهل السنة .

فقد بين ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية ،وذكر فى درء تعارضه أن هؤلاء ــ أى ابن كلاب وأصحابه ــ كان لهم فى الاسلام مساع مشكورة ، وحسنات مبرورة ، مالا يخفى على من عرف أحوالهم ، ولكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ عن المعتزلة احتاجوا الى طرده ، والتزام لوازمه ، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكره المسلمون من أهل العلم والدين ، وصار الناس منهم من يعظمهم لما لهم من المحاسن والفضائل ، ومنهم من يذمهم لما وقع فى كلامهم من البدع والباطل .(١)

وهذا ما وقع لعبد الله بن كلاب وأصحابه ، وجعل الامام أحمد وابن خزيمة وغيرهما من أئمة السنة والحديث يحملون عليهم هذه الحملة ، مع ما فيهم من الفضائل والمحاسن والرد على أهل الالحاد والبدع ، حتى أنه لم يكن فى المنتسبين الى السنة من هو أقرب منهم الى السلف ، كما تقدم .

مؤلفاته :

صنف عبد الله بن سعيد كتبا كثيرة فى علم التوحيد ، وهو أقدم فى ذلك من أبى الحسن الأشعرى ، الا أن كتبه لم تصل الينا .

قال البزدوى :" قد صنف أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان كتبا كثيرة فى هذا النوع من العلم ، وهو أقدم من أبى الحسن الأشعرى ، فلم يقع فى يدى شيء من كتبه ".(٢)

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/٢٠١) .

(٢) أصول الدين للبزدوى (ص ٢) .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية :" وابن كلاب . . . قد بين فساد قولهم بنفى علو الله ونفى صفاته ، وصنف كتبا كثيرة فى أصل التوحيد والصفات ، وبين أدلة كثيرة عقلية على فساد قول الجهمية ". (١)

وقال الذهبى :" وصنف فى التوحيد ، واثبات الصفات ، وأن علو البارى على خلقه معلوم بالفطرة والعقل ، على وفق النص". (٢)

وأما مؤلفاته المذكورة فى بعض كتب المؤرخين : فهى كتاب الصفات ، وكتاب خلق الأفعال ، وكتاب الرد على المعتزلة ،(٣) وذكر صاحب هدية العارفين له كتابا فى الرد على الحشوية ، ولم يذكر الرد على المعتزلة .(٤)

هذه هى مؤلفات ابن كلاب التى لم يصل الينا شيء منها ، ولم يترك لنا للأسف كتاب من كتبه ، ولكن بقيت نصوص وآراء له مبثوثة فى كتب العلماء ، تسمح لنا بمناقشة مذهبه فى العقيدة .

ولذلك فالاعتماد فى بيان آرائه وأقواله فى هذا البحث انما كان بواسطة الناقلين عنه ، أو عن كتبه .

وأهم مصدر لنا فى ذلك : ما كتبه الأشعرى فى مقالاته ، وما نقله عنه شيخ الاسلام ابن تيمية فى مؤلفاته العديدة ، والنتف التى نقلها مؤرخو الفرق الآخرون فى كتبهم .

---

(١) الفتاوى (٥/٥٥٧) ، شرح حديث النزول (ص ١٧٢) ، منهاج السنة (٢٢٣/١) ، طبعة مكتبة العروبة .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧٥/١١) .

(٣) الفهرست (ص ١٨٠)، وفضل الاعتزال (ص ٢٨٦) ، وسير أعلام النبلاء (١٧٦/١١) ، والأعلام (٩٠/٤) .

(٤) هدية العارفين (٤٤٠/٥) .

وهناك كتاب مهم بالنسبة لآراء ابن كلاب الكلابية ، وهو كتاب ابن فورك (١) الذى جمع فيه مقالات ابن كلاب ، مع مقارنتها بأقوال الأشعرى ، وبين اتفاقهما فى عامة أصولهما .

وكتاب ابن فورك هذا اسمه : " مقالات أبى محمد بن كلاب وأبى الحسن الأشعرى " (٢) ، أو : " المقالات والخلاف بين الأشعرى وبين أبى محمد عبد الله بن سعيد ابن كلاب البصرى " (٣) .

ألف ابن فورك هذا الكتاب على اثر ما جمع من متفرق مقالات أبى الحسن الأشعرى ، حيث قال : " وكان ذلك على اثر ما جمعت من متفرق مقالات شيخنا الأشعرى " (٤) .

وقد اعتمد فيه ابن فورك على كتب ابن كلاب التى لم تصل الينا ، وخاصة كتابه الصفات ، ونقل منها نصوصا طويلة نطلع عليها بواسطة مؤلفات شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية .

وهذه النصوص تعطينا فكرة عن مضمون ما فى كتب ابن كلاب المفقودة ، وكيف أنه خاض فى كثير من المسائل الاعتقادية مستخدما المنهج الكلامى الجدلى .

---

(١) هو محمد بن الحسن بن فورك ، أبو بكر ، الأنصارى ، الاصبهانى ، فقيه شافعى ، ومتكلم أشعرى ، ولد حوالى سنة (٣٣٢ هـ) ، وتوفى سنة (٤٠٦ هـ) له تصانيف كثيرة ، منها مشكل الحديث وبيانه ، مجرد مقالات الأشعرى الذى راجعنا الى مخطوطه فى مكتبة مركز البحث العلمى ، تفسير القرآن ، رسالة فى علم التوحيد وغير ذلك ، أنظر : تبيين كذب المفترى (ص ٢٣٢ — ٢٣٣) ، طبقات الشافعية للسبكى (٤/١٢٧ — ١٣٥) ، الوافى بالوفيات (٢/٣٤٤) ، الأعلام (٦/٣١٣) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٦/١١٩) ، مختصر الصواعق المرسلة (ص ٣٤٩) الاستقامة لابن تيمية (١/٤٣ — ٤٤) .

(٣) العلو للذهبى (ص ١٦١) .

(٤) درء تعارض العقل والنقل (٦/١٢١) .

وقد أخذ ابن كلاب فيها بمبدأ الرد على المخالفين ، وبيان صحة مذهبه ، مؤيدا رأيه بما توفر له من الحجج العقلية والنقلية .

ونقل ابن تيمية كثيرا من هذه النصوص فى عدة مواضع من كتبه ليوضح قرب ابن كلاب من مذهب السلف ، وخصوصا فى مسألة العلو والاستواء ، وليبين أنه يختلف فى موقفه منها عن بقية المتكلمين من تلامذته ومن غيرهم ممن جاؤوا بعده .

نقل شيخ الاسلام ابن تيمية عنه نصوصا فى كتابه درء تعارض العقل والنقل[1]، ومجموع فتاويه[2]، كما نقل عنه الامام ابن القيم فى كتابه اجتماع الجيوش الاسلامية[3]، وفى كتاب الصواعق المرسلة[4]، كما ورد هذا أيضا فى مختصر الصواعق المرسلة[5] .

ولو وصل الينا كتاب ابن فورك بكامله لكان من أهم المراجع التى تدل على أقوال ابن كلاب ، بلا شك ، ولكن ضاع جميع كتب ابن كلاب ، ولم يصل الينا شيء منها غير ما ذكره بعض العلماء .

---

(١) درء تعارض (١١٩/٦ — ١٢٢، ١٣٣ — ١٣٥، و١٩٣ — ١٩٦) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣١٧/٥ — ٣٢٠) .

(٣) اجتماع الجيوش الاسلامية (ص ١١١ — ١١٢) .

(٤) الصواعق المرسلة لابن القيم (١٢٣٨/٤) .

(٥) مختصر الصواعق المرسلة (ص ٣٤٩ — ٣٥١) .

المبحث الثاني

مدرسة ابن كلاب

أشرنا فيما سبق الى أن ابن كلاب كان صاحب مدرسة ومذهب، وكان له أصحاب، ساروا على طريقه ، ودافعوا عن عقيدته ، أبرزهم الحارث المحاسبي وأبو العباس القلانسي ، ونحن نعتبر القلانسي زميلا لابن كلاب والمحاسبي وان تأخر عنهما زمنا ووفاة.

لأنه شاركهما في آرائهما الاعتقادية ، فهم الثلاثة الذين ذكرهم الشهرستاني في نص سابق بأنهم أول من باشروا علم الكلام من السلف ، أي أنهم قد ظهروا كفرقة كلامية تدعم عقائد السلف بحجج عقلية وبراهين أصولية.(١)

يقول الأشعري عن أصحاب ابن كلاب بأنهم " يقولون بأكثر ماذكرناه عن أهل السنة" ،(٢) ونستخلص من هذا القول شيئين : الشئ الأول : هو أن لابن كلاب أصحاب وأتباع ، ساروا على طريقته ، ودافعوا عن عقيدته ، والشئ الثاني : أن أصحابه كانوا موافقين لأهل السنة والحديث تمام الموافقة. لكننا لا نقر الأشعري على هذا القول باطلاقه ، لأن لأصحاب ابن كلاب مخالفات لأهل السنة في صفات الأفعال ، سيأتي الكلام فيما بعد .

---

(١) الملل والنحل (١/ ٩٣) ،لكنهم لم يلتزموا ما عليه السلف ،فقد خالفوهم في كثير من المسائل ،لذلك لا نوافق الشهرستاني على انتسابه الى السلف لمخالفة ابن كلاب وأصحابه لهم .

(٢) مقالات الاسلاميين (ص ٢٩٨ - ٢٩٩) .

ويبدو أن أتباع ابن كلاب قد اندمجوا فيما بعد اندماجا كليا في طائفة الأشعرية .[١]

يقول الذهبي : " كان لابن كلاب أصحاب ، لحق بعضهم أبو الحسن الأشعري ".[٢]

ويذكرهم البغدادي في كتبه مقرونين باسم ابن كلاب ، وخص بالذكر منهم أبا العباس القلانسي والحارث المحاسبي ، وكان يستخدم تعبير (عندنا) أو (أصحابنا) للدلالة على آرائهما ،[٣] ورأيه هو رأيهم ، وكان يفرق أحيانا بين أجيال منهم ، فيقول مثلا :" قال قدماء أصحابنا "،[٤] والبغدادي عندما يعرض مسائل العقيدة في كتبه يبتدئ أولا بايراد رأى شيخه الأشعري فيها ، ثم يتبعه برأى عبد الله بن سعيد والمحاسبي والقلانسي ، وينقل مذهبهم عن كتبهم التي ضاعت .[٥]

وهكذا تكونت المدرسة الكلابية ، وكان الثلاثة المذكورون آنفا أبرز رجالها . فهؤلاء الثلاثة يعتبرون من أقرب المتكلمين لأهل السنة في القرن الثالث الهجري الذين واجهوا المعتزلة والجهمية وغيرهما من الفرق الضالة ، ودافعوا عن عقيدة أهل السنة بالمناهج الكلامية والبراهين العقلية .

اذن : لم يكن ابن كلاب من أصحاب الآراء الفردية ، بل كان صاحب مدرسة وصاحب فرقة ، وصاحب مذهب .[٦]

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي للنشار (١/٢٦٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/١٧٤) .

(٣) أصول الدين للبغدادي (أنظر مثلا ص ٤٠، ٨٩ — ٩٠ ، ٩٧ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٣٢) .

(٤) نفس المصدر (ص ١٢٣) .

(٥) مذاهب الاسلاميين : د /عبد الرحمن بدوي (١/ ٦٧٤) .

(٦) مقدمة الشامل للدكتور النشار : (ص ٥٤) .

حيـاة الحارث المحاسـبى :

الشخصية الثانية التى تعود العلماء وضعها مع ابن كلاب ، وقرروا أنه شارك ابن كلاب فى آرائه الاعتقادية : هى شخصية الحارث بن أسد المحاسبى ، البغدادى ، أبى عبد الله ، الفقيه ، المتكلم ، الصوفى الشهير ، أحد الزهاد المتكلمـين فى العبـادة والزهد والورع .[1]

حظى الحارث المحاسبى بترجمات عديدة فى كتب الرجال والتراجم والطبقات ما لم يحظ به ابن كلاب والقلانسى وغيرهما من الكلابية .

ولد الحارث فى زمن الخليفة المهادى بالبصرة ، فى حدود سنة (١٦٥ هـ) ، وأقام فيها من الزمن ، ثم انتقل فى شبابه الى بغداد ، وعاش فيها ، وتعلم بها ، وتوفى سنة (٢٤٣ هـ) رحمه الله ، ولقد عاصر خلافة هارون الرشيد والأمـين والمأمون والمعتصم والواثق ، ثم المتوكل ، اذ توفى فى عهده ،
اذن : كان عصر المحاسبى من أبهى عصور الخلافة العباسية ، وأكثرها غنى ووفرة وازدهارا .

وتفيد الروايات : أن أباه كان رجلا موسرا ، ولكنه لم يكن على عقيدة أهـل السنة ، والمشهور أن أباه كان قدريا ،[2] يقول بالقدر ، أى كان من القدريـة

---

(١) أنـظر :
تاريخ بغداد (٨/ ٢١١) ، سير أعلام النبلاء (١٢/ ١١٠ — ١١٢) وطبقات الشافعية للسبكى (٢/ ٢٧٥) ، الوافى بالوفيات (١١/ ٢٥٧) ، البداية والنهاية (١٠/ ٣٧٣ — ٣٧٤) ، والرسالة القشيرية (ص ٢٠ — ٢١) ، وطبقات الصوفية للسلمى (٥٦ — ٦٠) ، وحلية الأولياء (٩/ ٧٣ - ١١٠) والطبقات الكبرى للشعرانى (١/ ٦٤) ، تهذيب التهذيب (٢/ ١٣٤-١٣٦) ميزان الاعتدال (١/ ٤٣٠ — ٤٣١) ، طبقات الشافعية للأسنـوى (١/ ٢٦ — ٢٧) ، طبقات الشافعية للعبادى (٢٧ — ٢٨) .

(٢) الرسالة القشيرية (ص ٢٠) ، أصول الدين للبغدادى (ص ٣٤١) ، الفرق بين الفرق له أيضا (٢١٦ — ٢١٧) .

القائلين بانكار القدر ـ كما هو معروف عن المعتزلة ـ الذى يجب الايمان بـــه ، حيث جعلوا الأفعال لفاعلين ، وزعموا أن الله يخلق الخير ، وأن العبد يخلـــق الشر ، فأثبتوا لأنفسهم قدرة وفعلا ، فسموا لذلك قدرية .

وقيل : بل كان واقفيا ، أى يتوقف فى مسألة القرآن ، فلايقول هو مخلـــوق أو غير مخلوق [(١)] .

وقال السبكى : ان أباه كان رافضيا [(٢)] .

وكان من آثار ذلك ما ورد من قصة الحارث معه ، حين دعاه أمام الناس الى أن يطلق أمه ، فقد رؤى المحاسبى بباب الطاق /بالبصرة/ فى وسط الطريق متعلقا بأبيـــه ، والناس قد اجتمعوا عليه ، يقول له : " طلق أمى ، فانك على دين ، وهى على ديـــن غـــيره " [(٣)] .

وكذلك لما توفى أبوه ترك له مالا كثيرا ، بلغ سبعين ألف درهم ، فأبى الحارث أن ينال منه حبة واحدة ، رغم شدة حاجته .

قال الجنيد وهو تلميذ المحاسبى : " مات أبو حارث المحاسبى يوم مـــات ، وان الحارث لمحتاج الى دانق فضة ، وخلف مالا كثيرا ، وما أخذ منه حبة واحدة ، وقال : أهل ملتين لا يتوارثان ، وكان أبوه واقفيا " [(٤)] .

تفيد هذه الرواية عن تلميذه الجنيد : أن الحارث كان فقيرا جدا ، بل كان محتاجا الى درهم ، ومع ذلك لم يأخذ من ميراث ابيه شيئا ، وذلك من قبيل الورع .

---

(١) تهذيب التهذيب (٢/١٣٥) ، تاريخ بغداد (٨/٢١٤) ، سير أعـــلام النبلاء (١٢/١١٠) ، الوافى (١١/٢٥٧) .

(٢) طبقات الشافعيـــة (٢/٢٧٧) .

(٣) تاريخ بغداد (٨/٢١٤) ، السير للذهبى (١٢/١١٠) ، الطبقـــات للسبكى (٢/٢٧٧) .

(٤) المصـــادر نفسهـــــا .

وكان الحارث له علم بالحديث ، فقد روى عن جماعة من المحدثين ، كما روى عنه بعض الأحاديث ،(١) وترجم له في كتب الرجال ، وقال فيه الذهبي : " المحاسبي العارف ، صاحب التواليف ، . . . صدوق في نفسه ، وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه "،(٢) والسبب في ذلك هو منهجه في كتبه ومجالسه الوعظية ، كما سنشير الى ذلك فيما بعد .

وقال ابن حجر : (مقبول) .(٣)

وكان المحاسبي فقيها على مذهب الامام الشافعي ، وقد وضعه بعضهم في الطبقة الأولى التي صحبت الشافعي ، وأخذ عنه .(٤)

ولكن شك ابن الصلاح في صحبة المحاسبي للشافعي ، ولم يرتض برواية البغدادي في ذلك .(٥)

ومال السبكي الى أن المحاسبي كان من معاصري الشافعي ومن الآخذين عنه ، وقال :" قلت : ان كان أبو منصور ــ أي البغدادي ــ صرح بأنه صحب الشافعي : فالاعتراض عليه لائح ، والا فقد يكون أراد بالطبقة الأولى من عاصر الشافعي ، وكان في طبقة الآخذين عنه،وقد ذكره في الطبقة الأولى أبو عاصم العبادي ، وقال : كان ممن عاصر الشافعي ، واختار مذهبه ،(٦) ولم يقل كان من صحبه ، فلعل هذا القدر مراد أبي منصور " .(٧)

---

(١) أنظر للتفصيل : تهذيب التهذيب لابن حجر (٢/١٣٥) ، ومقدمة تحقيق فهم القرآن للقوتلي (ص ١٣ ــ ١٨) .

(٢) ميزان الاعتدال للذهبي (١/٤٣٠) .

(٣) تقريب التهذيب (١/١٣٩) .

(٤) أصول الدين (ص ٣٠٨) .

(٥) طبقات الشافعية للسبكي (٢/٢٧٥) ، طبقات الشافعية للأسنوي (١/٢٧)

(٦) أنظر طبقات الشافعية للعبادي (ص ٢٧) .

(٧) طبقات الشافعية للسبكي (٢/٢٧٥) .

وسمى الحارث بالمحاسبى لكثرة محاسبته لنفسه .[١]

وكان من المشهود لهم بالفضل والعلم والورع .

ذكر ابن النديم أنه كان : " من الزهاد المتكلمين على العبادة والزهد والدنيا والمواعظ ، وكان فقيها متكلما مقدما ، كتب الحديث ، وعرف مذاهب النساك " .[٢]

وقال ابن الصلاح : " كان امام المسلمين فى الفقه والتصوف والحديث والكلام ، وكتبه فى هذه العلوم أصول من يصنف فيها ، واليه ينسب أكثر متكلمى الصفاتية " .[٣]

وقال عنه البغدادى : " ثم من بعد الشافعى : تلامذته الجامعون بين علم الفقه والكلام ، كالحارث بن أسد المحاسبى ، وغيره . . . وعلى كتب الحارث ابن أسد فى الكلام والفقه والحديث معول متكلمى أصحابنا وفقهائهم وصوفيتهم " .[٤]

وفيه يقول الخطيب : " أحد من اجتمع له الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن " .[٥]

ووصفه السبكى بأنه كان علم العارفين فى زمانه ، وأستاذ السائرين ، والجامع بين علمى الباطن والظاهر .[٦]

مؤلفاته :

ترك المحاسبى مجموعة من المؤلفات ، أكثرها ذو صبغة صوفية ، تتحدث عن أحوال النفس وتزكيتها ، وبيان عيوبها ، ومسائل الزهد والورع .

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى (٢/٢٧٥) .

(٢) الفهرست (ص ١٨٤) .

(٣) طبقات الشافعية للسبكى (٢/٢٧٥) .

(٤) أصول الدين للبغدادى (ص ٣٠٨) .

(٥) تاريخ بغداد (٨/٢١١) .

(٦) طبقات الشافعية (٢/٢٧٥) .

يذكر السبكى فى ترجمته أن مؤلفات المحاسبى بلغت المائتين ، ويقول :

" كتبه كثيرة الفوائد ، جمة المنافع ، وقال جمع من الصوفية : انها تبلغ مائتى مصنف " (١) .

ويقول الخطيب البغدادى : " للحارث كتب كثيرة فى الزهد وفى أصول الديانات ، والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهما ، وكتبه كثيرة الفوائد جمة المنافع " (٢) .

وأشهر كتبه التى وصلت الينا :

١ ـ رسالة المسترشدين : حققها عبد الفتاح أبو غدة .

٢ ـ الرعاية لحقوق الله عز وجل : حققها د . عبد الحليم محمود ، ثم صدر بتحقيق عبد القادر أحمد عطا .

٣ ـ المسائل فى الزهد .

٤ ـ المسائل فى أعمال القلوب والجوارح .

٥ ـ المكاسب .

٦ ـ العقل : هذه الكتب الأربعة حققها عبد القادر أحمد عطا ، ثم صدر كل واحد منها مستقلا .

٧ ـ فهم القرآن : وهو الكتاب الذى عرض المحاسبى فيه آراءه الكلامية ، ودافع عنها ، وبين فساد آراء المعتزلة ، ورد عليها ، حقق الكتاب : د / حسين القوتلى ، مع كتاب العقل .

٨ ـ التوبة : صدر بتحقيق عبد القادر أحمد عطا .

٩ ـ آداب النفوس : ،، ،، ،، ،، .

---

(١) طبقات الشافعية (٢/٢٧٦) .

(٢) تاريخ بغداد (٨/٢١١) .

١٠ ـ النصائح الدينية .

١١ ـ القصد والرجوع الى الله .

١٢ ـ بدء من أناب الى الله .

١٣ ـ فهم الصلاة : طبع هذه الكتب الأربعة الأخيرة باسم " الوصايا " بتحقيق عبد القادر أحمد عطا .

١٤ ـ التوهم : حققه المستشرق آربرى ، ثم صدر بتحقيق عبد القادر أحمد عطا .

١٥ ـ كتاب العلم : طبع بتحقيق محمد العابد مزالى .

١٦ ـ معاتبة النفس .

١٧ ـ البعث والنشور : طبع هذان الكتابان بتحقيق محمد عيسى رضوان .

قصة هجر الامام أحمد للمحاسبي

يعتبر الحارث من أبرز الأئمة المتكلمين[١] الذين قاموا في وجه المعتزلة والجهمية وغيرهم من الطوائف الأخرى المنحرفة ، وفندوا أقوالهم في مسائل الصفات والقرآن والقدر والرؤية وغيرها من مسائل العقيدة ، ودافعوا عن عقيدة أهل السنة فيها .

لذلك فالمحاسبي وأمثاله أكثر اثباتا وأحسن اتباعا للسنة ممن جاء بعدهم من الأشعريين .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " وأصحاب ابن كلاب كالحارث المحاسبي وأبي العباس القلانسي ونحوهما خير من الأشعرية في هذا وهذا ـ أي : الصفات والايمان ـ ، فكلما كان الرجل الى السلف والأئمة أقرب كان قوله أعلى وأفضل "[٢].

وكان المحاسبي جليل القدر عند ابن تيمية[٣] ، وكثيرا ما يصفه بأنه أعلم من المتأخرين بالسنن والآثار[٤] ، وكان له من العلم والفضل والزهد والكلام في الحقائق ما هو مشهور[٥] .

ولكن مع ذلك كله : يوجد في أقوال المحاسبي ما يخالف منهج السلف ومذهبهم ، وهو خوضه في مسائل الكلام ، واستخدامه المنهج الكلامي والأسلوب الجدلي في آرائه ، وهذا لا يتفق مع منهج علماء السلف ، وأدى ذلك الى موقف بعض أئمة السلف منه موقف الرفض والانكار .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢ / ٣٦٦ ـ ٣٦٨) .

(٢) الرسالة التدمرية (ص ١٩٢) .

(٣) مجموعة الرسائل والمسائل (٣ / ٤١) .

(٤) درء تعارض (٧ / ٩٧) ، ابن تيمية والتصوف : د / مصطفى حلمي (ص ٢٢)

(٥) مجموع الفتاوى (٦ / ٥٢٢) .

يقول الذهبى : " قلت : المحاسبى كبير القدر ، وقد دخل فى شيئ يسير من الكلام ، فنقم عليه ، وورد أن الامام أحمد أثنى على حال الحارث من وجـــه ، وحـذر منـــه " (١) .

وللمحاسبى قصة مع الامام أحمد بن حنبل ، نكاد نجدها فى جميع المراجع، وقل من يترجم له الا ويتعرض لها ، وهى هجر الامام أحمد بن حنبل للمحاسبى ، وأمره الناس بهجره ، حتى أنه لما مات لم يصل عليه الا أربعة نفر ، وهذه المسألـة تعتبر أبرز قضية فى حياة المحاسبى . يقول ابن الجوزى :

"وقد ذكر أبو بكر الخلال فى كتاب السنة عن أحمد بن حنبل أنه قال : " حذروا من الحارث أشد التحذير ، أصل البلية يعنى فى حوادث الكلام جهم ذاك جالسه فلان وفلان وأخرجهم الى رأى جهم ما زال مأوى أصحاب الكلام ، حارث بمنزلة الأسد المرابـط ، أنظر أى يوم يثب على الناس" (٢) .

وتختلف الروايات فى ذكر سبب هجره له واجتنابه اياه .

وقد تعود بعض المؤرخين أن يذكروا أن السبب فى ذلك هو تصوفه ، وتكلمه فى خطرات القلب ووساوس النفس ، وهذا ما كرهه أحمد ، باعتبار الحديث فـــى الخطرات والوساوس نوعاً من البدع .

وفى ذلك يحكى السبكى عن الحاكم فى كتابه " تاريخ نيسابور " رواية عـــن أبى بكر الصبغى ، وهو يروى عن اسماعيل بن اسحاق السراج ، تلميذ المحاسبى : أن أحمد حضر فى جلسة المحاسبى مع أصحابه متخفيـــاً ، وراقبه وأصحابه حـــتى الصباح ، فرآهم لم يخرجوا عن الشرع فى أقوالهم وأفعالهم ، بل أعجبه حالهـــم ، ولكن مع ذلك نهاه عن صحبتهم ، فقال : " ومع هذا فلا أرى لك صحبتهـــم ، وفى رواية أخرى قال : " لا أنكر من هذا شيئا " (٣) .

---

(١) سـير أعلام النبـلاء (١٢/١١١ — ١١٢) .

(٢) تلبيس ابليس لابن الجوزى (ص ١٨٧) ، بتحقيق خير الدين على (ط . دار الوعى العربى ، بيروت) ، وفى كتاب الاستقامة (١/٢٠٥ - ٢٠٦) : " ما البلية الا حارث ، حذروا عنه أشد التحذير" ، ولم أجد النص فى كتاب السنة لأبى بكر الخلال (ط . دار الراية ، الرياض ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م بتحقيق د/عطية الزهرانى) .

(٣) طبقات الشافعية (٢/٢٧٩) ، تاريخ بغداد (٨/٢١٤) ، ولكن قـال ====

ويرى السبكى أن أحمد بن حنبل لم ير صحبتهم لقصوره عن مقامهم ، فانهم فى مقام ضيق ، لا يسلكه كل أحد ، فيخاف على سالكه .(١)

أما ابن كثير فى ترجمة الامام أحمد ، بعد أن ذكر قصة سعى أحمد لحضور مجلس المحاسبى ، قال : " بل انما كره ذلك ، لأن فى كلامهم من التقشف وشدة السلوك التى لم يرد بها الشرع ، والتدقيق ، والمحاسبة الدقيقة البليغة ما لم يأت بها أمر ".(٢)

وقال ابن رجب الحنبلى ، أثناء شرحه لحديث " استفت قلبك ، وان أفتاك المفتون " : " وانما ذم أحمد وغيره المتكلمين على الوساوس والخطرات من الصوفية حيث كان كلامهم فى ذلك لا يستند الى دليل شرعى ، بل الى مجرد رأى وذوق ، كما كان ينكر الكلام فى مسائل الحلال والحرام بمجرد الرأى من غير دليل شرعى ".(٣)

ويتضّح من هذه النصوص أن السبب فى هجر امام السنة للمحاسبى راجع الى خروجه عن الزهد المألوف فى عصره ، وتكلمه فى وساوس النفس وخطراتها ، والامام أحمد بعيد عن هذا ، بل له موقف عام من مناهج الصوفية ومبادئهم ، فانه لا يغير موقفه القائل بعدم تجاوز النص وآثار السلف ، وليس فى آثار السلف هذا الحديث عن المحاسبة والمراقبة والرياء والخطرات والوساوس والاسراف فى ذلك مما نقرؤه فى كتب المحاسبى .(٤)

= الذهبى فى صحة هذه الحكاية : " قلت : ... هذه حكاية صحيحة السند ، منكرة ، لا تقع على قلبى ، أستبعد وقوع هذا من مثل أحمد " أنظر : ميزان الاعتدال (١/٤٣٠ — ٤٣١) .

(١) طبقات الشافعية (٢/٢٧٩) .

(٢) البداية والنهاية (١٠/٣٧٣ — ٣٧٤) .

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلى (ص ٢٢٣) .

(٤) مقدمة كتاب فهم القرآن للقوتلى (ص ٤٦) .

لكن الامام أحمد وان كان لا يعجبه تصوف المحاسبي الا أن هجرانه للمحاسبي انما كان من أجل تكلمه في مسائل الكلام ، وتصنيفه فيها ، لأنه كان شديد النكير على من تكلم في علم الكلام ، فقد ورد عنه قوله عن أصحاب الكلام : " لا يفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا تكاد ترى أحدًا نظر في الكلام الا وفي قلبه دغل " (١) .

ويجمع على ذلك معظم المترجمين للمحاسبي .

قال البيهقي بعد أن ذكر القصة : " يحتمل أن أحمد كره له صحبتهم لأن الحارث بن أسد — وان كان زاهدا — فانه كان عنده شيء من علم الكلام ، وكان أحمد يكره ذلك " (٢) .

وقال الخطيب البغدادي : " وكان أحمد بن حنبل يكره للحارث نظره في الكلام وتصنيفه الكتب فيه ، ويصد الناس عنه " (٣) .

وذكر السبكي أن الامام أحمد كان شديد النكير على من يتكلم في علم الكلام ، خوف أن يجر ذلك الى ما لا ينبغي ، ... وكان الحارث قد تكلم في شيء من مسائل الكلام ، قال أبو القاسم النصرآباذي : بلغني أن أحمد بن حنبل هجره بهذا السبب (٤) .

وحاول تقي الدين السبكي هنا أن يبرر مسلك المحاسبي بقوله : " والظن بالحارث أنه انما تكلم حين دعت الحاجة ، ولكل مقصد ، والله يرحمهما " (٥) .

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم (٤/١٢٦٩) ، والدغل بالتحريك : الفساد ، مثل الدخل ، والدغل : دخل في الأمر مفسد ، ومنه قول الحسن : اتخذوا كتاب الله دغلا ، (لسان العرب ، مادة دغل) .

(٢) البداية والنهاية (١٠/٣٧٣) .

(٣) تاريخ بغداد (٨/٢١٥) .

(٤) طبقات الشافعية (٢/٢٧٨) .

(٥) نفس المصدر (٢/٢٧٩) .

اذن : تبين لنا من الأقـوال السابقـة أن نقد أحمد للحـارث كان من أجل تكلمه أيضا فى مسائل الكلام ، وخوضه فيها ، والمعروف عن الامـام كراهيته الخوض فيها ، ونهيه عنها أضف الى ذلك أن الحارث كان من الصوفيـة .

ويبدو أن كلا الاحتمالين صحيحان ، اذ أننا نجد ضمن النصوص الـتى أوردتها المصادر ما يؤيد ذلك .

فقد ورد على لسان الامام أحمد أنه كان يكره الكلام فى الوساوس والخطرات، لأنه لم يتكلم بها الصحابة والتابعون ، والمعروف عنه أنه أحرص الناس على التقيـد بالسنة وأقوال الصحابة ، وأن منهجه يستند على هذا الأساس ، ولكنه يخشـى هذا التعمق الذى يؤدى الى الاختلاف ، مادام لم يأت به النقل .(١)

ثم ذكرنا عنه أيضا أنه كيف كان يكره الكلام والمشتغلين به .

ويذكر شيخ الاسلام ابن تيمية سببا آخر فى نهى أحمد عن المحاسبى ، ويرجع ذلك الى أن فى أقوال الحارث ما يخالف عقيدة أهل السنة ، وهو انكاره قيـام الأفعال الاختيارية بذات الله تعالى ، متابعا لابن كلاب ، مع أن السلف يقولـون بقيامها بذاته ، وهو الأصل الذى ذكرناه عند حديثنا عن انكار أحمد على ابن كلاب .

يقول ابن تيمية فى ذلك :" وكان الامام أحمد يحذر من الكلابية ، وأمـر بهجر الحارث المحاسبى ، لكونه منهم ".(٢)

وقال فى موضع آخر :" وهذا الأصـــــل

هـــــو مما أنكره الامام أحمد على ابن كلاب وأصحابه ، حتى علـى الحارث المحاسبى ، مع جلالة قدر المحاسبى ، وأمر بهجره وهجر الكلابيـة ،

---

(١) ابن تيمية والتصوف : د / مصطفى حلمى (ص ١٨٩) ، والزهاد الأوائل : لـه أيضا (ص ١٥٤ — ١٥٥) .

(٢) مجموع الفتاوى (٥ / ٥٣٣) ، كتاب شرح حديث النزول (ص ١٥٥) .

وقال : احذروا من حارث ، الآفة كلها من حارث . . "(١)

اذن : أن السبب فى هجر أحمد للمحاسبى ونهيه عن مجالسته هو :آراء المحاسبى الكلامية التى انتسب فيها الى مذهب ابن كلاب ، وخصوصا أخذه بمقالة ابن كلاب فى مسألة كلام الله ، الأمر الذى أدى بالامام أحمد الى انكاره على ابن كلاب .

ويؤكد ذلك ما قاله الحافظ ابن رجب :" ومن البدع التى أنكرها أحمد فى القرآن قول من قال : ان الله تكلم بغير صوت ، فأنكر هذا القول وبدع قائله ، وقد قيل : ان الحارث المحاسبى انما هجره أحمد لأجل ذلك ، قال أبو العباس ابن تيمية : وهذا سبب تحذير أحمد من المحاسبى ، فذكروا أن الحارث المحاسبى تاب من ذلك ، واشتهر علما وفضلا وحقائق وزهدا " (٢) .

وكما نقد أحمد بن حنبل المحاسبى وهجره ، كذلك نقده أبو زرعة الرازى (٣) ، ونقد كتبه أشد انتقاد ، وأنكر عليه تأليفه فى الخطرات والوساوس .

وقد حكى عنه : أنه حينما سئل عن الحارث المحاسبى وكتبه قال للسائل :
" اياك وهذه الكتب ، هذه كتب بدع وضلالات ، عليك بالأثر ، فانك تجد فيه مايغنيك"

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢/٩٥) ، (٦/٥٢٢) ، مجموعة الرسائل والمسائل (٣/٤١٠) ، كتاب النبوات لابن تيمية (ص ٦٤ — ٦٥) .

(٢) شرح الكوكب المنير فى أصول الفقه الحنبلى لتقى الدين الفتوحى ، من ضميمته المتممة له (ص ١٩٦) ، (طبعة السنة المحمدية ، ١٣٧٢ هـ) .

(٣) هو : عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ ، المخزومى بالولاء ، أبو زرعة الرازى ، من أئمة الحديث وحفاظه ، من أهل الرى ، زار بغداد وحدث بها ، وجالس أحمد بن حنبل ، كان يحفظ مئة ألف حديث ، توفى بالرى ، له مسند ، أنظر : الأعلام (٤/١٩٤) .

قيل له : " فى هذه الكتب عبرة " ، فقال : " من لم يكن له فى كتاب الله عبرة فليس له فى هذه الكتب عبرة ، بلغكم أن سفيان ومالكا والأوزاعى (١) صنفوا هذه الكتب فى الخطرات والوساوس ، ما أسرع الناس الى البدع " . (٢)

وقد بين أبو زرعة فيه : أن التأليف فى خطرات النفس ووساوسها مخالف لمنهج علماء السلف وأئمتهم ، ومن هذا يتبين أن أبا زرعة الرازى قد وقف على كتب المحاسبى ، واطلع على ما فيها ، ومن ثم ذم مسلك الحارث ، ولا شك : أن تحذير الامام أحمد وتنفيره من المحاسبى علم به أبو زرعة ، لذا حذر السائل حينما سأله عن الحارث وكتبه .

ولكن من بعد أبى زرعة جاء الذهبى يدافع عن المحاسبى ، ويقول : " وأين مثل الحارث ؟ فكيف لو رأى أبو زرعة تصانيف المتأخرين كالقوت لأبى طالب ؟ وأين مثل القوت ؟ كيف لو رأى بهجة الأسرار لابن جهضم ، وحقائق التفسير للسلمى : لطار لبه ، كيف لو رأى تصانيف أبى حامد الطوسى فى ذلك على كثرة ما فى الاحياء من الموضوعات ؟ كيف لو رأى الغنية للشيخ عبد القادر ؟ كيف لو رأى فصوص الحكم والفتوحات المكية ؟ " . (٣)

وبعد هذا يتبين لنا : أن الذين حذروا من حارث المحاسبى كان تحذيرهم بسبب قوله بمقالة ابن كلاب ، وموافقته له فى آرائه الاعتقادية ، ثم تكلمه فى مسائل صوفية .

---

(١) هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد ، الأوزاعى ، من قبيلة الأوزع ، أبو عمرو ، امام الشام فى الفقه والحديث ، ولد فى بعلبك سنة (٨٨ هـ) ، وتوفى فى بيروت سنة (١٥٧ هـ) ، من مصنفاته : السنن فى الفقه والمسائل ، وغير ذلك أنظر : وفيات الأعيان (١٢٧/٣) ، الأعلام (٣٢٠/٣) .

(٢) ميزان الاعتدال (٤٣١/١) ، البداية والنهاية (٣٧٤/١٠) ، سير أعلام النبلاء (١١٢/١٢) ، تاريخ بغداد (٢١٥/٨) ، تهذيب التهذيب (١٣٥/٢) .

(٣) ميزان الاعتدال ، الصفحة نفسها .

ومهما يكن السبب فى ذلك : فقد أجمع المؤرخون على أن أحمد بن حنبل هجر حارث المحاسبى ، وأمر أصحابه بتركه ، وذلك بعد أن زالت شوكة المعتزلة ، وقوى نفوذ السنة فى بغداد .

فاختفى الحارث — فى رواية — فى دار ببغداد ،[١] وفى رواية أخرى : رأى الجو العام لم يعد ملائما له ، فغادر بغداد ، والتجأ الى الكوفة ، ولم يعد الى بغداد الا عند ما سنحت له الظروف ، ثم قضى أيامه الأخيرة فى بغداد ، حتى توفى سنة (٢٤٣ هـ) .[٢]

وقد قيل : ان المشيعين لجنازة الحارث لم يتجاوزوا أربعة أشخاص .

ولكن هل كان هذا تنفيذا لوصيته بقلة المشيعين ؟[٣] أم أن الرأى العام تأثر بكراهة الامام أحمد له ، وخاصة أن هذا العصر قد اتسم بتقدير العلماء فى حياتهم وبعد مماتهم ، وهذا هو ما حدث بالفعل لمعظم العلماء الذين احتشد الناس لجنازتهم ؟ .

والذى نراه : أن لهذه الكراهية دخلا كبيرا فى تفسير ما جاءت به الروايات عن ذلك ، وأن السبب راجع الى هجران أحمد للمحاسبى ، وأمره بذلك .

---

(١) تاريخ بغداد (٨/٦/٢١) ، مناقب الامام أحمد بن حنبل لابن الجوزى (ص ١٨٦) ، مقدمة تحقيق كتاب العقل وفهم القرآن للقوتلى (ص ٤٨) .

(٢) تاريخ الأدب العربى : بروكلمان (٤/ ٥٨) ، مقدمة كتاب فهم القرآن للقوتلى (ص ٤٧) .

(٣) كما ذكره الدكتور موسى جلال فى كتابه " نشأة الأشعرية " (ص ٦٨) .

حياة أبي العباس القلانسي :

والشخصية الثالثة من شخصيات المدرسة الكلابية هي : أبو العباس القلانسي.

ولكن لا يجد الباحث الذى يريد معرفة حياته شيئا يذكر فى كتب التراجم المعروفة ، لأنها لم تصرح لا بالكثير ولا بالقليل عنه ، كما صرحت بعض التصريح عن ابن كلاب .

ولذلك فتاريخ ولادة القلانسي ووفاته غير معروفين .

والذى ذكر عنه ابن عساكر أنه : " أبو العباس ، أحمد بن عبد الرحمن ابن خالد ، القلانسي ، الرازى ، من معاصرى أبي الحسن رحمه الله ، لا من تلامذته ، وهو من جملة العلماء الكبار الاثبات ، واعتقاده موافق لاعتقاده فى الاثبات ـ أى لاعتقاد الأشعرى ـ " .(١)

وأما البغدادى فقد وصفه بأنه : امام أهل السنة(٢) الذى زادت تصانيفه فى الكلام على مائة وخمسين كتابا " ،(٣) وأشار البغدادى كثيرا الى آرائه فى ثنايا كتابيه أصول الدين والفرق بين الفرق .

كما ذكر البغدادى فى موضع آخر أن للقلانسي كتبا ورسائل فى نقض أصول النظام والرد عليه .(٤)

---

(١) تبيين كذب المفترى (ص ٣٩٨) .

(٢) لا نقر البغدادى على هذا القول باطلاقه ، لأن لابن كلاب مخالفات لأهل السنة فى صفات الأفعال ، سيأتى الكلام فيما بعد .

(٣) أصول الدين للبغدادى (ص ٣٠٩) ، والفرق بين الفرق له أيضا (ص ٣٦٤) .

(٤) الفرق بين الفرق (ص ١٣٣) .

وأما ما ذكره البياضى ،[(١)] وتابعه عليه الزبيدى[(٢)] من أن اسمه : " أحمد ابن ابراهيم القلانسى الرازى " : خطأ ، وهو قلانسى آخر ، التبس على البياضى والزبيدى ، لأن هناك قلانسى آخر فى الطبقة الثانية من الأشعرى ، وهو أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله القلانسى الرازى ، وقلانسى ثالث فى طبقة ابن فورك ، وهو أبو العباس أحمد بن ابراهيم القلانسى (ولد الثانى) ، وقد التبس هذا بالأول على البياضى والزبيدى .[(٣)]

والصحيح : هو أبو العباس ، أحمد بن عبد الرحمن بن خالد القلانسى ، على ما ذكره ابن عساكر .

واذا تتبعنا ما أورده مؤرخو الفرق أو شيخ الاسلام ابن تيمية فى مؤلفاتهم المختلفة عن ابن كلاب : لرأينا أن القلانسى يذكر فى أكثر المواضع مع ابن كلاب ، ويأتى رأيه مقرونا برأى شيخه ابن كلاب ، كما فعل ذلك الشهرستانى ،[(٤)] وكما فعل ابن تيمية ، فاننا نجد ابن تيمية لا يذكر القلانسى مستقلا ، وانما يذكره على أنه تلميذ لابن كلاب ، وفى بعض الأحيان يذكر الثلاثة ـ ابن كلاب والمحاسبى والقلانسى ـ ، وأحيانا يكتفى بذكر الكلابية ، ونفهم من هذا أنهم متفقون فى معظم مسائل العقيدة .[(٥)]

---

(١) اشارات المرام (ص ٢٤) .

(٢) اتحاف السادة (٢/٦) .

(٣) اشارات المرام للبياضى (ص ٣٩٨) ، الهامش رقم (١) للكوثرى ، وانظر للقلانسى الثانى وهو ابراهيم بن عبد الله القلانسى : معجم المؤلفين لكحالة (١/٥٤) .

(٤) انظر : الملل والنحل : (١/٤٠ ، و ١٢٦) .

(٥) انظر مثلا : منهاج السنة (١/٢١٧) ، طبعة دار الكتب العلمية ، ومجموع الفتاوى (٣/١٠٣) ، والتدمرية (ص ١٩١ ـ ١٩٢) ، ودرء تعارض (٦/٢٩٢) وكتاب النبوات لابن تيمية (ص ١٩٨ ـ ١٩٩) ، ومجموعة الرسائل والمسائل (٣/٤١٠) ، وشرح حديث النزول (ص ١٧٢) ، وغير ذلك من مواضع أخرى كثيرة ، كما سيأتى ذكرها فيما بعد ، وانظر أيضا : نشأة الفكر الفلسفى للنشار (١/٢٧٩) ، ونشأة الأشعرية (ص ٥٧) .

وفى كتاب " الأسماء والصفات " للبيهقى ، وكذلك فى " مجموع الفتـــاوى " ، لابن تيمية : نص مهم عن القلانسى ، وذلك عند حديثهما عن النزاع الذى وقـــع بين ابن خزيمة وأصحابه ، والذى مر معنا قريبـا .

يقول ابن تيمية : " قال الحاكم : سمعت أبا الحسن ، على بن أحمـــــد البوشنجى الزاهد ، يقول فى ضمن قصة : لما انتهى الينا ما وقع بين مشايـــــخ نيسابور من الخلاف ، خرجت من وطنى ، حتى قصدت نيسابور ، فاجتمع علـــــى جماعة يسألون عن تلك المسائل ، فلم أتكلم فيها بقليل ولا كثير ، ثم كتبت : القـــول ما قاله أبو على " . (١)

ويقول البيهقى مكملا للقصة : " يقول البوشنجى : ودخلت على عبد الرحمـــن ابن ابى حاتم الرازى (٢) بالرى ، فأخبرته بما جرى بنيسابور بين أبى بكر بن خزيمـة وبين أصحابه ، فقال : ما لأبى بكر والكلام ؟ انما الأولى بنا وبه أن لا نتكلم فيما لـــم نتعلمه ، فخرجت من عنده ، حتى دخلت على أبى العباس القلانسى ، فقال : كــان بعض القدرية من المتكلمين وقع الى محمد بن اسحاق ، فوقع لكلامه عنده قبول ، ثـم خرجت الى بغداد ، فلم أدع بها فقيها ولا متكلما الا عرضت عليه تلك المسائـــــل ، فما منهم أحد الا وهو يتابع أبا العباس القلانسى على مقالته ، ويغتم لأبى بكـــر محمد بن اسحاق فيما أظهره " . (٣)

والقصة تدل بالنسبة للقلانسى على أن القلانسى كان مقيما بالرى ، احـدى المدن الكبرى المشهورة قرب خراسان ، وأن مقالته كانت منتشرة وأقواله معروفـــة ،

---

(١) مجمـوع الفتـاوى (٦/ ١٧٥) .

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد أبى حاتم بن ادريس بن المنذر ، التميمى ، الحنظلى الرازى ، أبو محمد ، من كبار حفاظ الحديث ، ولد سنة (٢٤٠ هـ) ، وتوفـى سنة (٣٢٧ هـ) ، له تصانيف منها : الجرح والتعديل ، والتفسير ، والـرد على الجهمية ، وعلل الحديث ، والمسند ، والكنى وغير ذلك ، أنظر : الأعـلام (٣/ ٣٢٤) .

(٣) الأسماء والصفات للبيهقى (ص ٣٢٤) ، مجموع الفتاوى (٦/ ١٧٥ – ١٧٦) .

وأنه كان يقول بقول الكلابية ، وهو لم يتراجع عن مقالته ، رغم تراجع أبي علي الثقفي وأبي بكر الصبغي عن مذهبهما حين أعلن ابن خزيمة فتواه ، وحين أخبر أن أحمد كان من أشد الناس على ابن كلاب .(١)

لكن مع ذلك يقر شيخ الاسلام ابن تيمية في نص آخر أن العراقيين المنتسبين الى أهل الاثبات من أتباع ابن كلاب أقرب الى السنة وأتبع لأحمد ابن حنبل في مذهبه ، من أهل خراسان المائلين الى طريقة ابن كلاب، ويجعل القلانسي من العراقيين ، وان كان جميعهم على مذهب ابن كلاب .

يقول ابن تيمية :" كما أن العراقيين المنتسبين الى أهل الاثبات من أتباع ابن كلاب كأبي العباس القلانسي ، وأبي الحسن الأشعري ، وأبي الحسن علي ابن مهدي الطبري ،(٢) والقاضي أبي بكر بن الباقلاني وأمثالهم : أقرب الى السنة وأتبع لأحمد بن حنبل وأمثاله ، من أهل خراسان المائلين الى طريقة ابن كلاب ".(٣)

ومن نص ابن تيمية رحمه الله نلاحظ أيضا : أن أتباع الكلابية في خراسان كانوا أكثر منهم في بغداد ، وأما الغلبة والانتشار في العراق فكان لمذهب الامام أحمد ، لأن أكثر أتباعه من العراقيين .

وذكر البياضي والزبيدي ، نقلا عن أبي المعين النسفي :(٤) أن ابن فورك ألف كتابا باسم " كتاب اختلاف الشيخين القلانسي والأشعري "(٥)، لكن لم يصلنا الكتاب الى الآن .

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي (١/ ٢٨١) .

(٢) هو : علي بن مهدي الطبري ، أبو الحسن ، من كبار أصحاب الأشعري وممن تخرج به ، نشر مذهب الأشعري في بلاد الشام ، وسمع من أبي جعفر الطبري المفسر ، توفي في حدود سنة (٣٨٠ هـ) ، انظر تبيين كذب المفتري (ص ١٩٥) ، طبقات الشافعية (٣/ ٤٦٦) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٧٠) ، نشأة الفكر الفلسفي (١/ ٢٨٠) .

(٤) هو : ميمون بن محمد بن محمد بن معتمد ، أبو المعين ، النسفي ، المكحولي ، توفي سنة (٥٠٨هـ) ، له تصانيف كثيرة ، منها : التمهيد وتبصرة الأدلة وغيرهما ، أنظر : الفوائد البهية (ص ٢١٦ — ٢١٧) .

(٥) اشارات المرام للبياضي (ص ٢٤ — ٢٥) ، اتحاف السادة (٢/ ٥ — ٦) .

هذا هو أبو العباس القلانسي .

وهذه هي ترجمة حياته على حسب ماجاءت به كتب التراجم .

وهؤلاء الثلاثة الذين ترجمنا لحياتهم : هم أهم أعلام المدرسة الكلابية الذين انحاز اليهم الأشعري ، في الطور الثاني من حياته ، ووافقهم في أبرز أقوالهم مع زيادة في الشرح والتفصيل .

ولما كان الأشعري بعد رجوعه عن الاعتزال قد سلك طريقتهم واتبع آراءهم فاننا نعتبره من تلامذة ابن كلاب ، كما قلنا سابقا ، لذلك سنعرض هنا باختصار لحياة الأشعري ، ونبرز أطوارها التي عاشها ، لأجل معرفة الصلة بينه وبين الكلابية .

حياة أبى الحسن الأشعرى :

مولده ونشأته :

هو : أبو الحسن ، على بن اسماعيل بن أبى بشر اسحاق بن سالم[(١)]، وينتهى نسبه الى الصحابى الجليل أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

ولد الأشعرى سنة (٢٦٠ هـ) على أرجح الروايات ، توفى والده وهو صغير ، وأوصى بابنه أبى الحسن الى زكريا الساجى[(٢)] الذى كان اماما فى الحديث والفقه فى عصره ، وفيه دلالة على أن أباه كان من أهل السنة والحديث ، وعلى حرصه وتمسكه بمذهبه .

---

(١) أنظر فى ترجمته :

- الفهرست لابن النديم (ص ١٨١) .
- تاريخ بغداد (١١/٣٤٦ — ٣٤٧) .
- سير أعلام النبلاء (١٥/٨٥) .
- طبقات الشافعية للسبكى (٣/٣٤٧) .
- الخطط للمقريزى (٢/٣٥٨) .
- ترتيب المدارك (٥/٢٤) .
- البداية والنهاية (١١/٢١٠) .
- تبيين كذب المفترى ، لابن عساكر .
- أبو الحسن الأشعرى : د / حمودة غرابة .
- مقدمة تحقيق الابانة للدكتورة فوقية حسين (ص ٩) وما بعدها .
- الأعلام (٤/٢٦٣) .
- معجم المؤلفين (٧/٣٥) وغيرها .

(٢) هو : زكريا بن يحيى الساجى ، الحافظ ، محدث البصرة ، وشيخها ، ومفتيها ، توفى سنة (٣٠٧ هـ) ،أخذ عنه الأشعرى مقالة السلف فى الصفات ، ==

وكان مولد الأشعرى بالبصرة ، واقامته فى بغداد ، وظل بها الى أن توفى سنة (٣٢٤ هـ) .

أخذ الفقه عن أبى اسحاق المروزى ، (١) فكان يجلس الأشعرى فى حلقة المروزى فى بغداد ، يتلقى عنه ، ويأخذ منه الفقه الشافعى ، حتى برع فيه .

كما تعلم أيضا على يد الساجى الذى أوصاه والده ، وحدث عنه ، كما روى عن بعض المحدثين البصريين الآخرين .

كما أخذ الكلام عن أبى على الجبائى ، (٢) أحد أكبار رجال الاعتزال فى عصره ، وذلك بعد وفاة أبيه ، فلما مات أبوه تزوجت أمه بأبى على الجبائى ، ومن ثم : تأثر به الأشعرى ، واتجه منذ حداثة سنه الى الاعتزال ، للعلاقة التى نشأت بينه وبين الجبائى المعتزلى .

وبذلك نحا الأشعرى نحو المعتزلة فى الأمور الاعتقادية ، حتى برع فيها لدرجة أن شيخه وزوج أمه الجبائى كان ينيبه عنه فى المجالس والمناظرات . (٣)

== واعتمد عليها فى عدة كتبه ، أنظر : سير أعلام النبلاء (١٤ / ١٩٨) ، طبقات الشافعية للسبكى (٣ / ٢٩٩) ، تبيين كذب المفترى (ص ٤٠٠) .

(١) هو : ابراهيم بن أحمد المروزى ، انتهت اليه رئاسة المذهب الشافعى فى وقته ، صاحب ابن سريج واكبر تلامذته ، توفى سنة (٣٤٠ هـ) ، أنظر : تاريخ بغداد (٦ / ١١) .

(٢) هو : محمد بن عبد الوهاب بن سلام ، الجبائى ، البصرى ، أبو على ، ولد سنة (٢٣٤ هـ) ، وتتلمذ على شيوخ المعتزلة فى عصره ، حتى انتهت اليه رئاسة المعتزلة ، وصار اماما لهم ، له كتب وردود على مخالفيه ، لكن لم يصل الينا شيء منها ، انظر : كتاب المنية والأمل (ص ١٧٠) ، الفرق بين الفرق (ص ١٨٣) ، الملل (١ / ٧٨) ، سير أعلام النبلاء (١٤ / ١٨٣) .

(٣) تبيين كذب المفترى (ص ٩١) .

وتذكر لنا المصادر أن الأشعرى بقى فى الاعتزال أربعين عاما [١] ، والمراد بهذا التعبير أنه بقى على مذهب المعتزلة من صغره حتى بلوغه سن الأربعين من عمره ، اذ تحوله عن الاعتزال كان عام ثلاثمائة . [٢]

ولقد كان لهذا الاتجاه أثره البالغ فى هضم الأشعرى لآراء المعتزلة واحاطته بها ، ومن ثم تمكن بعد رجوعه عنها من الرد عليها ونقدها نقد الخبير العارف بأخبارها وأوزارها .

مؤلفاته :

لأبى الحسن الأشعرى مؤلفات كثيرة ، قال ابن حزم : انها خمسة وخمسون مصنفا [٣] ، وقال غيره : انها أكثر من ثلاثمائة مصنف . [٤]

ولا حاجة بنا الى سرد هذه المصنفات كلها ، وقد سبق أن ذكرها غير واحد من الباحثين [٥] ، ونحن سنكتفى هنا بالاشارة الى مؤلفاته التى وصلت الينا .

فمصنفاته التى وصلت الينا :

١ ـ مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين : فقد ذكر فيه الأشعرى عقائد الفرق الاثنتين وسبعين فرقة ، مع اختلافها وأنواعها ، وأفرد فيه فصلا للفرقة الثالثة وسبعين تحت عنوان " فصل فى عقيدة أهل الحديث " ، والكتاب مطبوع باسم " مقالات الاسلاميين " ، طبعه المستشرق ريتر ، ثم طبعه محمد محيى الدين عبد الحميد باضافة بعض الحواشى اليه .

---

(١) تبيين كذب المفترى (ص ٣٩) ، طبقات الشافعية (٣/٣٤٧) .

(٢) تبيين كذب المفترى (ص ٥٦) .

(٣) نفس المصدر (ص ٩٢) .

(٤) المصدر نفسه (ص ١٣٦) ، الأعلام (٤/٢٦٣) .

(٥) أنظر : مذاهب الاسلاميين (١/٥٠٥ ـ ٥٣٣) ، مقدمة الابانة للدكتورة فوقية (ص ٣٨ ـ ٩٢) .

٢ ـ اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع : الكتاب طبع مرتين ، مرة بتحقيق مكارثى ، ومرة ثانية بتحقيق حمودة غرابة الذى قدم له وعلق عليه ، وقد بين الأشعرى فيه كثيرا من القضايا الاعتقادية التى رد فيها على المعتزلة ، وشرح فيها مذهبه .

٣ ـ رسالته الى أهل الثغر : طبعت هذه الرسالة بتحقيق الدكتور محمد السيد الجليند ، وقد أجاب فيها الأشعرى عن أصول معتقد أهل السنة الذى سأل عنه أهل الثغر .

٤ ـ رسالة استحسان الخوض فى علم الكلام : طبعت الرسالة مرتين ، طبع فى الهند بحيدر آباد الدكن سنة (١٣٢٣ هـ) ،ثم طبعها مكارثى مع كتاب اللمع سنة (١٩٥٢ م) ، وقد شكك بعض الباحثين فى نسبة هذه الرسالة الى الأشعرى ، لعدم ورود اسمها فى القائمة التى ساقها ابن عساكر عن الأشعرى وابن فورك فى كتابه التبيين .(١)

٥ ـ رسالة فى الايمان : فى ورقتين ، حققهما شبيتا .(٢)

٦ ـ العمد فى الرؤية : وصلت قطعة منه ، ذكرها ابن عساكر فى التبيين .(٣)

٧ ـ كتاب تفسير القرآن : وصلت قطعة منه ، أثبتها ابن عساكر .(٤)

٨ ـ الابانة عن أصول الديانة : هى من أهم كتب الأشعرى ،وأكثرها اشارة للجدل لأنها تحوى جوانب من العقيدة تخالف ما عليه متأخرو الأشاعرة ، خاصة فى مسائل الصفات الخبرية .

---

(١) مذاهب الاسلاميين (١/٥١٨ ـ ٥٢١) ، ومقدمة الغوقية (ص ٧٢- ٧٤) .

(٢) تاريخ التراث لفؤاد سزكين (م ١ ، جـ ٤ ، ص ٣٨) .

(٣) تبيين كذب المفترى (ص ١٢٩ ـ ١٣٤) .

(٤) المصدر نفسه (ص ١٣٧ ـ ١٣٩) .

ولأن كتاب الابانة يمثل الطور الأخير لدى أبى الحسن الأشعرى ، فهو بهذا آخر كتبه ، وهو الذى استقر عليه أمره فيما كان يعتقده ، وأما ما ذكره الدكتور غرابة فى مقدمته لكتاب اللمع ،[١] وكذلك الدكتورة فوقية فى مقدمتها للابانة ،[٢] من أن اللمع متأخر عن الابانة : قول ينقصه الدليل ، ولا يعتمد على البحث العلمى ، حيث أن معظم المصادر تذكر أنها من آخر كتبه ،[٣] وهو ما يتفق مع أطوار الأشعرى وعقيدته التى ستأتى الاشارة اليها .

ولقد طبع الكتاب أكثر من مرة ، وأخيرا قامت الدكتورة فوقية حسين بتحقيقه والتعليق عليه ، مع مقدمة واسعة عن الأشعرى .

هذه هى مؤلفات الأشعرى التى وصلت الينا ، وهى قليلة بالنسبة لمؤلفاته الكثيرة التى عرفت أسماؤها .

أطوار حياته العقدية :

مر أبو الحسن الأشعرى فى حياته بأطوار مختلفة ،نظرا لاختلاف البيئة التى نشأ فيها ، وتربى بينها ، وقد أشرنا الى ذلك سابقا ، وتكاد المراجع تتفق على أن الأشعرى نشأ على مذهب المعتزلة ، ثم هداه الله الى الحق ، ورجع الى مذهب أهل السنة والحديث .

يقول ابن النديم :" كان ـ أى الأشعرى ـ أولا معتزليا ، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن فى المسجد الجامع بالبصرة فى يوم الجمعة[٤] ، وقول ابن النديم هذا سار عليه معظم المؤرخين ،القدامى والمحدثين ،الا أن

---

(١) اللمع ، مقدمة الدكتور غرابة (ص ٧) .

(٢) الابانة ، مقدمة الدكتورة فوقية حسين (ص ٩١) .

(٣) أنظر فى ذلك : رسالة الشيخ حماد الأنصارى عن الأشعرى وعقيدته (ص ٨ ـ ١٥) ، حيث سرد فيها أسماء العلماء الذين نصوا على أن الابانة آخر مؤلفات الأشعرى .

(٤) الفهرست لابن النديم (ص ١٨١) .

الحذاق منهم ، وأهل الفقه والعلم بعقيدة السلف ذكروا أنه تنقل فى أطواره ، فكان أولا معتزليا ، ثم سلك الطريقة الكلابية التى نحن فى صدد البحث عنها ، وأخيرا رجع الى عقيدة السلف.

وعلى هذا : فالأطوار التى مر بها الأشعرى ثلاثة:

١ ـ الطور الأول : الاعتزال الذى أخذه عن زوج أمه الجبائى ، رئيس المعتزلة فى عصره ، وكان الأشعرى فى هذا الطور يقول بقول المعتزلة ، ويأخذ بأصولهم ، حتى صار اماما لهم.

٢ ـ الطور الثانى : خرج فيه على الاعتزال ، وأعلن براءته عن جميع أقواله السابقة ، ومال الى أهل السنة والحديث ، وفى هذا الطور سلك الأشعرى طريقة عبد الله بن كلاب ، حيث أخذ عقيدته الكلابية عن بعض أتباعه . وخير كتاب يمثل هذا الطور عند الأشعرى هو كتاب اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ، وذلك : أن الأشعرى يهاجم فيه المعتزلة هجوما شديدا ، ويدخل معهم فى مناقشات جدلية تصل أحيانا الى حد التعقيد ، فهو بهذا يتخلص من مذهب الإعتزال ، ويرد عليه ويفنده ، ومع ذلك نجد فى هذا الكتاب أنه لا يذكر الامام أحمد ، ولا يشيد بمذهبه ، كما فعل فى الابانة فيما بعد .

وقد أشار شيخ الاسلام ابن تيمية الى هذا الطور للأشعرى بقوله : " وأبو الحسن الأشعرى لما رجع عن مذهب المعتزلة سلك طريقة ابن كلاب ، ومال الى أهل السنة والحديث ، وانتسب الى الامام أحمد ، كما قد ذكر ذلك فى كتبه كلها كالابانة والموجز والمقالات وغيرها " . (١)

ونلاحظ أن ابن تيمية هنا ذكر طورين للأشعرى ، دون أن يفصل بينهما ويوضح ، وأن كان يفرق بين طريقة ابن كلاب ومذهب الامام أحمد .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/١٦) .

ولكن ابن تيمية فى موضع آخر جاء بتفصيل أكثر ، وذكر أن الأشعرى كان من المعتزلة ، " وكان قد درس الكلام على أبى على الجبائى أربعين سنة ، وكان ذكيا، ثم رجع عنهم ، وصنف فى الرد عليهم ، ونصر فى الصفات طريقة ابن كلاب،لأنها أقرب الى الحق والسنة من قولهم ، ولم يعرف غيرها وتفسير السلف للقرآن ، والعلم بالسنة المحضة انما يستفاد من هنا " (١).

وقد فصل أطوار الأشعرى وأوضحها الحافظ ابن كثير فيما نقله عنه الزبيدى فى شرح الاحياء ، حيث قال : قال ابن كثير : " ذكروا للشيخ أبى الحسن الأشعرى ثلاثة أحوال : أولها : حال الاعتزال التى رجع عنها ، لا محالة ، والحال الثانى : اثبات الصفات العقلية السبعة ، وهى : الحياة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكلام ، وتأويل الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك ، والحال الثالث : اثبات ذلك كله ، من غير تكييف ولا تشبيه ، جريا على منوال السلف ، وهى طريقته فى الابانة التى صنفها آخرا " (٢).

وقال المقريزى : " ان الأشعرى خرج على الاعتزال ، وأخذ فى الرد عليهم ، وسلك بعض طريق أبى محمد ، عبد الله بن محمد بن سعيد بن كلاب القطان ، وبنى على قواعده " (٣).

وقد أكد تلك النقول الشيخ محب الدين الخطيب ، فى تعليقه على المنتقى من منهاج الاعتدال ، فقال : " أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى من كبار أئمة الكلام فى الاسلام ، نشأ فى أول أمره على الاعتزال ، وتتلمذ فيه على الجبائى ، ثم أيقظ الله بصيرته وهو فى منتصف عمره وبداية نضجه ، فأعلن رجوعه عن ضلالة الاعتزال ، ومضى فى هذا الطور نشيطا يؤلف ويناظر ويلقى الدروس فى الرد على

---

(١) منهاج السنة (٥/٢٧٧) ، طبعة جامعة الامام .

(٢) اتحاف السادة للزبيدى (٤/٢) .

(٣) الخطط للمقريزى (٣٥٩/٢) .

المعتزلة سالكا طريقا وسطا بين طريقة الجدل والتأويل وطريقة السلف ، ثم محض طريقته وأخلصها الله بالرجوع الكامل الى طريقة السلف فى اثبات كل ما ثبت بالنص من أمور الغيب التى أوجب الله على عباده اخلاص الايمان بها ، وكتب بذلك كتبه الأخيرة ، ومنها فى أيدى الناس كتاب الابانة ، وقد نص مترجموه على أنها آخر كتبه ، وهذا ما أراد أن يلقى الله عليه ، وكل ما خالف ذلك مما ينسب اليه ، أو صارت تقول به الأشعرية ، فالأشعرى رجع عنه الى ما فى كتاب الابانة " (١) .

ونقطة تحول الأشعرى هذه هى أهم شيئ حدث له فى حياته ، وكان لها أثر كبير فى نصرة مذهب السلف ، ودحض الباطل الذى كان عليه قبل ذلك ، وخاصة بعد ما رجع رجوعا كاملا الى مذهب الامام أحمد ، وكان ذلك فى :

٣ ـ الطور الثالث : وهو طوره الأخير الذى أعلن فيه انتسابه الى الامام أحمد ابن حنبل ، كما ذكره فى مقدمة كتابه الابانة ، واعلانه بذلك يدل على أنه وقف على كتب الامام أحمد ، واستقى منها كثيرا من العقائد ، وهذا يظهر فى كلامه على الصفات ، وصفة الكلام خصوصا ، ومطابقته لكلام الامام أحمد فيها .

ويروى ابن عساكر روايات كثيرة حول تحول الأشعرى عن مذهب المعتزلة ، ويذكر فى سبب رجوعه عنه : أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام عدة مرات، فى كل مرة كان يأمره باتباع منهجه وسلوك طريقته (٢) .

ويربط بعض المراجع بين تحول الأشعرى عن الاعتزال وبين المناظرة التى جرت بينه وبين الجبائى حول قضية الصلاح والأصلح .

وقد ذكرها السبكى فى الطبقات (٣) ، كما ذكرها غيره من المؤرخين (٤) .

---

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال ، تعليق الشيخ الخطيب (ص ٤٣،٤١) .

(٢) تبيين كذب المفترى (ص ٣٨) وما بعدها .

(٣) طبقات الشافعية للسبكى (٣٥٦/٣) .

(٤) الملل والنحل (٩٤/١) .

وفيها سأل الأشعرى الجبائى عن ثلاثة : مؤمن وكافر وصبى .

فقال الجبائى : المؤمن من أهل الدرجات ، والكافر من أهل الهلكات، والصبى من أهل النجاة .

فقال الأشعرى : فان أراد الصبى أن يرقى الى درجات عليا هل يمكن ؟ .

فقال الجبائى :لا ، لأن المؤمن نال درجته بالطاعة ، والصبى لا طاعة له .

قال الأشعرى : فاذا قال الصبى : التقصير ليس منى ، فلو أحييتنى لأطعتك ؟

قال الجبائى : يقول الله : كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ، فتدخل النار، فراعيت مصلحتك ، وأمتك قبل سن التكليف .

قال الأشعرى : فلو قال الكافر : يا رب ، ولو لم تمتنى قبل سن البلوغ ، حتى لا أعصاك ، وهلا راعيت مصلحتى كما راعيت مصلحته ..؟

فانقطع الجبائى عن الجواب .

وقد رويت هذه المناظرة فى أكثر من مرجع، وكلها تذكر مفارقة الأشعرى للجبائى على أثر ذلك .

وكان الأشعرى بلا شك يعيش مرحلة صعبة فى المرحلة السابقة مباشرة على اعلان خروجه من الاعتزال ، لدرجة أنه اعتزل الناس خمسة عشر يوما فى بيته ، خرج بعدها بالقرار الذى أعلنه على الناس فى المسجد الجامع بالبصرة فى يوم الجمعة ، حيث رقى كرسيا ، ونادى بأعلى صوته : " من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى وأنا أعرفه بنفسى ، أنا فلان بن فلان ، كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا يرى بالأبصار وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة " (١).

---

(١) الفهرست (ص ١٨١) ، تبيين كذب المفترى (ص ٣٩) .

ويلاحظ من هذا القرار أن الأشعرى يعلن براءته صراحة عن المعتزلة ، وينص على بعض الأصول الاعتقادية التى خرج عليهم فيها ، ويسلك فيها سبيل أهل الهدى والرشاد .

وظل الأشعرى بعد ذلك يدافع عن عقيدة السلف ، ويحارب المعتزلة بكل ما أوتى من لسان وبيان ، الى أن توفاه الله تعالى .

المبحث الثالث

منهج ابن كلاب

سبق وأن ذكرت قيام عبد الله بن كلاب فى وجه المعتزلة والجهمية مثبتا لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، مدافعا عن عقيدة أهل السنة ، مبينا فساد قولهم بأنواع شتى من الأدلة والحجج ، النقلية منها والعقلية ، وتصنيفه كتبا كثيرة فى أصل التوحيد والصفات ، فيها من الدلائل وبسط القول ما يبين فضله .

وقبل الخوض فى الحديث عن منهجه فى ذلك : أحب أن أتحدث عن منهج المعتزلة الذين عاصرهم ابن كلاب .

ففرقة المعتزلة من أهم الفرق الكلامية المعاصرة لابن كلاب ، بل كانت الفرقة المؤسسة للكلام ، وكانوا من الأوائل الذين أدخلوا عنصر العقل فى دائرة العقيدة ولم يكتفوا بذلك ، بل ذهبوا الى تمجيده والايمان بأن له سلطة لا تحد ، ومن ثم قدموه على النقل ، وقالوا بالفكر قبل السمع ، فأولوا الآيات ، ورفضوا الأحاديث التى لا تقرها عقولهم ، وبهذا أخضعوا النص للعقل ، وقالوا بوجوب معرفة الله بالعقل ولو لم يرد الشرع بذلك ، والحسن والقبيح تجب معرفتهما بالعقل ، فالعقل بذلك موجب وآمر وناه [١] .

ويتضح من هذا : ايمان المعتزلة المطلق بالعقل ، وهذا الايمان المطلق لم يخل من اسراف وغلو ، مما أدى بدوره الى ظهور متكلمى أهل السنة ، محاولين أن يخففوا من ذلك الغلو ، وأن يواجهوا نزعة المعتزلة العقلية المفرطة ، مدركين أن الأصول الاعتقادية تعلو على مناقشات العقل ومتناقضاته ، وأن العقل الانسانى محدود ، مع أن الايمان لا يلغى العقل كليا .

---

(١) فى الفلسفة الاسلامية : د / ابراهيم مدكور (٢ / ٣٧) ، علم الكلام ومشكلاته : د / أبو الوفا التفتازانى (ص ١٥٤ — ١٥٥) .

ومن أوائل متكلمى أهل السنة : عبد الله بن سعيد بن كلاب ، الذى لاحظ ذلك الغلو العقلى ، فهاجمهم غلوهم المغرط فى جانب العقل ، وخالفهم فى المسائل التى اشتهروا فيها بمخالفة أهل السنة ، ولم يكتف ابن كلاب بخلافه مع المعتزلة ومحاولته ابطال آرائهم ، بل أورد عليهم من الأدلة التى تفرض عليهم التزامات تقتضيها أقوالهم ، وذلك مما يبين فساد آرائهم .

وتسلح فى ذلك بسلاحهم ، واستعمل نفس الأسلوب الذى كانوا به يناظرون ويجادلون ، واستخدم الطرق العقلية الكلامية ، لتأييد عقيدة أهل السنة ودفع الشبه التى يثيرونها .

يقول أستاذنا الدكتور فاروق الدسوقى : " تسلح الجهمية والمعتزلة كخصوم لأتباع النص وحفاظه بفنون الكلام من مناظرة وجدل ومناقشة وأصول عقلية ، يقيمون بها مذاهبهم ، ويدافعون عنها ، مما جعل أهل السنة والجماعة فى حاجة ماسة الى من يتسلح بهذه الأسلحة ، للدفاع عن عقيدتهم النابعة من الكتاب والسنة ، فكان أول من فعل ذلك منهم : هو عبد الله بن سعيد القطان " (١) .

وكما أوردنا سابقا أراد ابن كلاب ضرب المعتزلة والجهمية وغيرها من الفرق الضالة بسلاحهم نفسه ، وهدم آرائهم وافحامهم بالأسلوب ذاته .

وهكذا كانت الرغبة فى الدفاع عن عقيدة أهل السنة ، والتصدى للرد على المعتزلة والجهمية والمشبهة والمجسمة وسائر الفرق الكلامية : هى التى دفعت ابن كلاب وأصحابه الى اتخاذ هذا الموقف من الكلام ، وخوضهم فيه ، واستعمالهم الطرق العقلية والبراهين المنطقية فى أمور العقيدة (٢) .

الا أن ابن كلاب لم يخرج من هذه المعركة سالما ، كما خرج أئمة السلف ، فتأثر بمنهج المعتزلة ، وتحت وطأة الردود الكلامية والمناقشات العقلية اضطر أن

---

(١) القضاء والقدر فى الاسلام : د / فاروق الدسوقى (٢ / ٢٠٢) .

(٢) منهج علماء الحديث والسنة فى أصول الدين : د / مصطفى حلمى (ص ١٩٦) .

يسلم ببعض أصولهم ، وأن يلتزم لوازمها ، فأدى به ذلك الى بعض المقالات التي لا تتفق مع مذهب السلف ، فأصبح يخالف السلف في بعض المسائل الاعتقادية التي سبق ذكرها .

لذلك نجد شيخ الاسلام ابن تيمية لا يعتبر ابن كلاب سلفيا خالصا ، ولا يجعل أقواله كلها بمنزلة واحدة في قربه من مذهب السلف .

لأن علماء السلف : لا يهملون العقل والاستدلال به في تقرير مسائل العقيدة ، وفي الوقت نفسه لا يقدمونه على النقل ، وقاعدتهم في ذلك : ان العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح .

لكنهم يكرهون الخوض في الكلام ، ولا يرون استعماله في أمور العقيدة ، ولا يفرقون في ذلك بين من مارس الكلام للرد على المعتزلة ومن مارسه كواحد منهم ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين لم يمارسوا شيئا منه ، بل أثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام في النهي عن الحديث في القدر.(١)

وبذلك يظهر الفرق بين موقف السلف ومذهب الكلابية من الكلام من حيث أنه لم يثبت أن السلف قد استخدموا الكلام في شرح العقيدة ، أو مالوا الى التأويل في تفسيرها ، أو استخدموه للدفاع عنها ، بينما كان الكلابية يستخدمونه ويعتمدون عليه .

وعلى الرغم من ذلك كان لابن كلاب عناية بالادلة النقلية في الاستدلال على المسائل العقدية ، فالنقل هو الأساس الأول عنده ، وهو المقدم .

وليس أدل على ذلك من اثباته للصفات الالهية لله تبارك وتعالى عموما ، والصفات الخبرية خصوصا ، استنادا على النصوص الشرعية ، ومخالفته للمعتزلة ، نفاة الصفات ، وتأويلاتها العقلية الباطلة .

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١١٤ — ١١٥).

وفى ذلك نأخذ مثلا اثباته لصفة الوجه والعين واليد بين حيث قال ابن كـــــلاب:
" ان وجه الله . . . ، وكذلك يداه وعينه وبصره : صفات له ، لا هى هو ، ولا غيره " (١)،
وقال أيضا : " أطلق اليد والوجه والعين خبرا ، لأن الله أطلق ذلك ، ولا أطلق
غيره ، فأقول : هى صفات الله عز وجل ، كما قال فى العلم والقدرة والحياة " (٢).
وقال شيخ الاسلام ابن تيمية فى اثبات ابن كلاب لصفة الاستواء والعلـــو:
" لما ظهرت مقالة الجهمية : جاء بعد ذلك عبد الله بن سعيد بن كلاب ، يوافق
السلف والأئمة على اثبات صفات الله تعالى ، وعلوه على خلقه ، ويبن أن العلو على
خلقه يعلم بالعقل ، واستواءه على العرش يعلم بالسمع " (٣).
واستشهد ابن كلاب مثلا على اثبات صفة الاستواء لله تبارك وتعالى بحديـــث
الرسول صلى الله عليه وسلم مع الجارية التى قالت عند سؤاله : " ان الله فى السماء
وأن محمدا عبده ورسوله " فقال ابن كلاب: " ورسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صفوة الله
من خلقه ، وخيرته من بريته ، وأعلمهم جميعا به : يجيز السؤال بأين ، ويقـــول ،
ويستصوب قول القائل : إنه فى السماء ، ويشهد له بالايمان عند ذلك " ، ثم قـــال
ابن كلاب : " ولو كان خطأ لكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق بالانكار لـــه ،
وكان ينبغى أن يقول لها : لا تقولى ذلك ، . . . ولكن قولى : انه فى كل مكـــان ،
لأنه هو الصواب دون ما قلت ، كلا ، فلقد أجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم مـــع
علمه بما فيه ، وأنه من الايمان ، . . . ومن أجله شهد لها بالايمان حين قالتـــه ،
وكيف يكون الحق فى خلاف ذلك ، والكتاب ناطق بذلك ، وشاهد له " (٤).

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ١٦٩) .
(٢) المصدر نفســـه (ص ٢١٨ ، ٥٤٨) .
(٣) مجموع الفتـــاوى (٦/٥٢٠) ، (١٦/٩١) .
(٤) اجتماع الجيوش الاسلامية (ص ١٢١) ، مجموع الفتاوى (٥/٣١٨ — ٣١٩) ، درء تعارض (٦/١٩٣ — ١٩٤) .

وبذلك يثبت ابن كلاب الصفات الخبرية ، ويبين أن طريق ثبوتها هو النص الصحيح من الكتاب والسنة ، وهذا هو الذى ارتضاه السلف فى باب الصفات الخبرية . وفعل ابن كلاب الشيء نفسه فى الصفات العقلية ، حيث أثبتها الله عزوجل ، وأورد الأدلة النقلية والعقلية على ثبوتها ، والتزم بالمنهج نفسه .

وعلى هذا يمكن أن نقرر : أن ابن كلاب كان يذهب الى ما ذهب اليه السلف فى هذه الصفات ، وينطلق من منطلقهم ، ويقدم النقل على العقل ، ويجعل العقل تابعا له ، ويؤمن بالآيات والأحاديث ، ويستدل بها فى العقائد ، ثم يستخدم الحجج العقلية ، ليرد آراء الخصوم ، ويؤيد النص المنزل من عند الله ، وقد شهد له ابن تيمية بذلك ، كما تقدم .

وكان ينبغى أن يكون منهج ابن كلاب على نمط واحد فى جميع المسائل الاعتقادية ، وأن تكون نتيجته : الاثبات لجميع الصفات ، لأن ما يقال فى بعض الصفات ينبغى أن يقال فى بعضها الآخر ، واذا ثبت بعضها كان لابد من ثبوت بعضها الآخر ، اذ كل صفة من صفات الله ورد اثباتها بالكتاب والسنة أو بهما معا ، مع توفر الاجماع من جانب السلف على وصفه سبحانه وتعالى بها .

الا أن ما حصل من ابن كلاب كان بخلاف ذلك ، حيث لم يطبق منهجه هذا على جميع الصفات ، بل خالفه فى اثبات الصفات الاختيارية ، وسلك فيها مسلكا آخر ، حيث لم يثبتها كما جاءت فى الكتاب والسنة ، بل جعلها من صفات الذات ، لئلا يقال : ان الله تعالى تحل فيه الحوادث وقد أخذ بذلك كل من المحاسبى والقلانسى فى آرائهما .

وبذلك خالفت الكلابية السلف ، وخالفوا منهجهم ، وكانت هذه المسألة هى من أهم الأسباب فى موقف علماء السلف منهم ، وتحذيرهم الناس منهم ، وهجرهم لهم .

الفصــل الثالــث

مذهب ابن كلاب فى أسـماء الله الحسنى

فى ضوء عقيدة السلف

المبحث الأول

مذهب ابن كلاب في أسماء الله الحسنى

ـ ان ابن كلاب أثبت لله تعالى أسماء وصفات ، وبين أن الله تعالى قديم بها ، قال ابن كلاب : " ان الله تعالى قديم لم يزل بأسمائه وصفاته "[١] ، وقال أيضا : "ان أسمائه وصفاته لذاته ، وهى قائمة به "[٢] .

ويعنى ابن كلاب بقوله هذا : إن الله عز وجل له أسماؤه الحسنى وصفاته العليا ، وهو مع أسمائه وصفاته أزلى ، لا بداية له ، والأسماء والصفات لذاته ، قائمة بذاته .

وقال ابن كلاب فى معرض آخر : " ان الله واحد بصفاته "[٣] ، أى وجود صفات له لا يقتضى تعدد الآلهة ، فانه واحد فرد صمد ، مع أسمائه وصفاته .

ونستخلص من هذا كله : أن عبد الله بن كلاب من المثبتين للأسماء والصفات ، والرادين على النفاة قولهم بالنفى .

ولكن لم نعثر على رأى مفصل له فى الأسماء الحسنى ، ولا نعرف ماذا قال فى عدد الأسماء ، وهل وقف عند العدد الوارد فى الأحاديث الشريفة فى الأسماء ، أم ذهب مذهب الجمهور فى أن العدد لا يفيد الحصر ؟ .

كما لم ينقل لنا أحد من مؤرخى الفرق رأيه فى الأسماء : هل هى توقيفية أم لا ؟ اذ لم يرد عنه فى كتب الفرق ما يجيب على هذا السؤال .

أما بالنسبة لمذهبه فى العلاقة بين الأسماء والصفات : فهو يرى أن أسماء الله تعالى هى صفاته ، حيث يقول : " ان أسماء الله تعالى هى صفاته ، وهى العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر وسائر صفاته "[٤] ، ويقول أيضا :

---

(١) مقالات الاسلاميين للأشعرى (ص ١٦٩ ، ٥٤٦) .
(٢) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(٣) كتاب الشامل للجوينى (ص ٣٥٠) .
(٤) مقالات الاسلاميين (ص ١٧٣) ، أصول الدين للبزدوى (ص ٨٩) .

" الأسامى صفات الله تعالى فى الحقيقة ، فالله تعالى عليم على تقدير أن له العلم ، وكذا القدير ، والقدرة والعلم من صفات الله تعالى " . (١)

الا أنه لا يريد بذلك أن يقول: إن الأسماء هى الصفات بعينها ، والا لما كان ثمة حاجة الى تفريق بين الأسماء والصفات ، بل يقصد أن هناك علاقة بين الأسماء والصفات ، وهى : دلالة تلك الأسماء على اتصافه تعالى بما تتضمنه من صفات.

ففى اثبات أسمائه اثبات لصفاته ، لأنه اذا ثبت أن الله حى فقد وصف بصفة زائدة على الذات وهى صفة الحياة .

لأن أسماء الله تعالى مشتقة من صفاته تعالى ، فاذا كانت الأسماء مشتقة من الصفات فلابد من اثبات هذه الصفات لله تعالى ، فقولنا " عالم " مشتق من " علم " ، وقولنا " قادر " مشتق من قدرة . . . الخ وفى هذا القول رد على الجهمية والمعتزلة وابطال لنفيهم الباطل .

وأما رأيه فى حقيقة الاسم والمسمى والفرق بينهما ، فقد ذهب ابن كلاب الى القول بأن الاسم لا عين المسمى ولا غيره ، لأن الاسم والمسمى والتسمية عنده أمور ثلاثة متغايرة ، لذا : لا يقال ان الاسم هو عين المسمى ، ولا يقال انه غير المسمى . (٢)

يقول البزدوى : " ووجه قول ابن كلاب وهو أن فى الصفات وصفا وصفة وموصوفا ، وقد بينا أن الوصف غير الموصوف ، والصفة ليست بغير الموصوف ولا عين الموصوف ، فكذا هنا تسمية واسم ومسمى ، فيجب أن تكون التسمية غير المسمى ، والاسم لا يكون غير المسمى ولا عينه " . (٣)

وقال البزدوى فى موضع آخر : " وابن كلاب يقول أيضا : ان اسم الله تعالى ليس الله تعالى ، ولا غير الله تعالى ، كما قلنا جميعا فى الصفات " . (٤)

---

(١) أصول الدين للبزدوى (ص ٨٩) .

(٢) أصول الدين للبزدوى (ص ٨٨ — ٨٩) .

(٣) المصدر نفسه (ص ٨٩) .

(٤) المصدر نفسه : (ص ٢٤٦) .

المبحث الثانـي

المطلب الأول :

التعريف بالسلف والمنهج الذى ساروا عليه فى تقرير العقيدة وتدوينها :

معنى كلمة السلف (أهل السنة والجماعة)

قبل الخوض فى مسألة أسماء الله الحسنى عند السلف يجدر بنا بادئ ذى بدء تحديد المراد بكلمة السلف .

هل تختص هذه الكلمة بمن شهد لهم بالعدالة ممن عاشوا فترة محـــددة ؟

أو تشمل من التزم بالكتاب والسنة فى المسائل الاعتقادية ممن جاء بعد هذه الفـترة من ثقات هذه الأمة ؟

فى الحقيقة أن الثابت فى السنة يدل على أن كلمة السلف تختص بفترة زمنيـة محددة ، وهى القرون الثلاثة الأولى ، أخذا بقوله عليه الصلاة والسلام : (خـــير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته) (١) .

اذن المراد بالسلف هم أصحاب القرون الثلاثة الأولى المفضلة الذين جـــاء ذكرهم فى الحديث النبوى الشريف .

لكن هذا التحديد الزمنى لايكفى فى بيان معنى السلف ، لأن السلـــف يطلق باعتبارين ، باعتبار الفترة الزمنية وباعتبار المنهج ، فلابد اذن أن يضاف الى هذا السبق الزمنى الموافقة التامة لكل ما جاء فى كتاب الله تعالى وسنة رسولـــه صلى الله عليه وسلم من غير مخالفة ، فمن خالف رأيه الكتاب والسنة فليس بسلفـــى ، وان عاش بين أظهر الصحابة والتابعين وتابعى التابعين (٢) .

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم (٤/١٨٩) حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، وصحيح مسلم ، كتاب الفضائـــل ، باب فضل الصحابة (٤/١٩٦٣) ، رقم الحديث (٢١٢) .

(٢) فى العقيدة الاسلامية ، د / محمود خفاجى ، (ص ٢٠- ٢١) .

بناء على ذلك : يكون المراد بمذهب السلف هو: " ما كان عليه الصحابة الكرام ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وأعيان التابعين لهم باحسان ، وأتباعهم ، وأئمة الدين ممن شهد له بالامامة ، وعرف عظم شأنه في الدين ، وتلقى الناس كلامهم خلف عن سلف ، دون من رمي ببدعة ، أو شهر بلقب غير مرضي " .(١)

لأن أصحاب البدع ، مثل الخوارج والمرجئة والجهمية والمعتزلة وغيرهم ، وان كانوا في القرون المفضلة فليسوا من السلف في شيء ، لخروجهم على منهجهم ، وسلوكهم طريقا غير طريقهم ، بل السلف الصالح قد حذروا منهم أشد التحذير ، فأنكر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على الخوارج ، وناظرهم ، وأنكر علي ابن أبي طالب رضي الله عنه على من فضله على الشيخين رضي الله عنهما ، ولما ظهرت بدعة القدرية في أواخر عصر الصحابة أنكرها متأخروهم ، وتبرؤوا منها ، مثل عبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وأبي هريرة وأنس بن مالك وأقرانهم رضوان الله عليهم .(٢)

وأما من جاء من بعد السلف الصالح ، واعتقد معتقدهم ، وسلك مسلكهم ، وابتعد عن كل ما استحدثه المخالفون لهم فانه ينسب اليهم ، ويقال له " سلفي " .

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسفاريني (١/ ٢٠ ، ٢٥) ، (٢/ ٣٩٠) ، قواعد المنهج السلفي ، د/ مصطفى حلمي (ص ٢٣ ، ٣٥) ، (ط . دار الدعوة ، الاسكندرية ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م) .

(٢) الفرق بين الفرق (ص ١٩) ، مجموع الفتاوى (٤/ ٤٢٢) ، وانظر في انكار ابن عمر للقدرية : سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب في القدر ، حديث رقم (٤٦٩٥) .

منهج السلف فى تقرير العقيدة :

" كان منهج السلف فى تقرير العقيدة نابعا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، حيث تلقى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين العقيدة من مصدرها الصحيح .

وقد مكث القرآن الكريم ثلاثة وعشرين عاما يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرسول يقوم بتبليغه للناس ، ويبينه ، حتى كمل الدين ، وتمت النعمة ، واختار الله عز وجل رسوله عليه الصلاة والسلام الى جواره .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمعون القرآن منه ، ويفهمون معناه ، ثم يؤمنون به ، ويعملون بمقتضاه .

وكان فيما نزل من القرآن الكريم الإخبار عن الأمور الغيبية ، كالاخبار عن ذات الله تعالى وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وعن اليوم الآخر وأهواله ، وعن الجنة والنار وما أعد الله فيهما من ثوابه وعقابه ، كل ذلك وما فى معناه من مسائل العقيدة كان القرآن يتنزل به ، والرسول عليه الصلاة والسلام يبلغه ويبينه ، والصحابة رضى الله عنهم يتلقونه ، ويفهمون معانيه ، ويؤمنون به ، ويعملون بأحكامه ، ولم يعرف عن أحد منهم أنه تردد أو استشكل شيئا من ذلك " (١) .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " فقد تبين أن الواجب طلب علم ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة ومعرفة ما أراد بذلك ، كما كان على ذلك الصحابة والتابعون لهم باحسان ، ومن سلك سبيلهم فكل ما يحتاج الناس اليه فى دينهم فقد بينه الله ورسوله بيانا شافيا ، فكيف بأصول التوحيد والايمان " (٢) .

---

(١) مقدمة تحقيق كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/١٨) .

(٢) تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية (ص ١٥٤) .

وكانت أدلة السلف من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين وأتباعهم على مسائل العقيدة هى أدلة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، فلم يتجهوا الى الطرق الكلامية والمناهج العقلية والفلسفية فى الاستدلال على أمور العقيدة .

يقول ابن تيمية : " قد ذكرنا فى غير موضع أن أصول الدين الذى بعث الله به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم قد بينها الله فى القرآن أحسن بيان ، وبين دلائل الربوبية والوحدانية ، ودلائل أسماء الرب وصفاته ، وبين دلائل نبوة أنبيائه ، وبين المعاد بين امكانه وقدرته عليه ، فى غير موضع ، وبين وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية " .(١)

ويقول المقريزى : " ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى ، وعلى اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله ، ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة ، فمضى عصر الصحابة رضى الله عنهم على هذا " .(٢)

وقال ابن عقيل لبعض أصحابه : " أنا أقطع أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ماتوا وما عرفوا الجوهر والعرض ، فان رضيت أن تكون مثلهم فكن ، وان رأيت أن طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبى بكر وعمر فبئس ما رأيت " ، وقال : " وقد أفضى الكلام بأهله الى الشكوك وكثير منهم الى الالحاد ، تشم روائح الالحاد من فلتات كلام المتكلمين ، وأصل ذلك أنهم ما قنعوا بما قنعت به الشرائع ، وطلبوا الحقائق وليس فى قوة العقل ادراك ما عند الله من الحكمة التى انفرد بها ولا أخرج البارى من علمه لخلقه ما علمه هو من حقائق الأمور " .(٣)

---

(١) كتاب النبوات لابن تيمية (ص ٢١٤) .

(٢) الخطط للمقريزى (٢/٣٥٦) .

(٣) تلبيس ابليس لابن الجوزى (ص ٩٣ — ٩٤) .

وليس معنى هذا القاء العقل جانبا واهماله تماما ، لأن البحث العقلي ليس مذموما على الاطلاق ، ولكنه يذم عند السلف اذا اكتفى به عن الأدلة الشرعية ، أو قدم عليها ، أو عورض به نصوص الدين ، والعقل لا مجال له في باب السمعيات من أمور العقيدة ، أما أبحاث العقيدة التي يستدل بها على وحدانية الله ، وافراده بالعبادة ، وعلمه وقدرته وحكمته ، والبعث والجزاء فقد طالب القرآن الكريم العقل البشري أن يهتدي اليها ، فهي أدلة تدعم النصوص ، وتزيد في تثبيت الاعتقاد ، ولهذا يجد المتأمل في كتاب الله تعالى آيات كثيرة تحث العقل البشري على التأمل والتبصر والتفكر والتدبر .(١)

يقول أبو المظفر السمعاني في وصفه لأهل السنة : " وأما أهل السنة فجعلوا الكتاب والسنة أمامهم ، وطلبوا الدين من قبلهما ، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم وآرائهم عرضوه على الكتاب والسنة ، فان وجدوه موافقا لهما ، قبلوه وشكروا الله حيث أراهم ذلك ، ووفقهم له ، وان وجدوه مخالفا لهما تركوا ما وقع لهم ، وأقبلوا على الكتاب والسنة ،وجعلوا بالتهمة على أنفسهم ، فان الكتاب والسنة لا يهديان الا الى الحق ، ورأى الانسان قد يكون حقا وقد يكون باطلا ".(٢)

وسبب اقتصار علماء السلف في معرفة أمور العقيدة والاستدلال عليها على ما ورد في الكتاب والسنة نابع من ايمانهم بأن الله تعالى قد بينها أحسن بيان ، وأن رسوله عليه الصلاة والسلام قد وضحها توضيحا شافيا كافيا ، وبلغها البلاغ الأمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،(٣) لذلك اكتفى السلف رحمهم الله في معرفة مسائل أصول الدين وفي الاستدلال عليها بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، وكانوا يرون أن السلامة في الاتباع لما أمروا به ، والاعراض عن طلب ما زوى عنهم علمه وطوى عنهم خبره .

---

(١) علاقة الاثبات والتفويض بصفات رب العالمين (ص ٢٤) .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (ص ٤٩٦) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٧ - ٢٨) .

يقول الشاطبي : " لم ينكر أحد منهم ما جاء من ذلك ، بل أقروا وأذعنوا لكلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يصادموه ، ولا عارضوه بأشكال ، ولو كان شيء من ذلك لنقل الينا ، كما نقل الينا سائر سيرهم وما جرى بينهم من القضايا والمناظرات في الأحكام الشرعية ، فلما لم ينقل الينا شيء من ذلك دل على أنهم آمنوا به وأقروه ، كما جاء ، من غير بحث ولا نظر " (١) .

وانا نعتقد أنهم كانوا يفهمون ما يخاطبون به من مسائل العقيدة ، والا لسألوا عنها ، واستفسروا عن معناها ، لتعلقها بالجانب الرئيسي في حياتهم وهو جانب العقيدة ، وقد رأينا أنهم حملوا سيوفهم في وجه الاسلام عندما لم يقتنعوا به ، ثم صاروا يفدونه فيما بعد بأنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك في سبيل دين يجهلون عقيدته ، ولا يعرفون معناها " (٢) .

وكان السلف يكرهون الجدل والخوض في المسائل الاعتقادية ، ويتجنبون منه ، لأنهم وجدوا أن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن الخوض والجدال في آياته ، وحذر من اتباع المتشابه ، وكذلك فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحذر من ضرب الكتاب بعضه ببعض (٣) .

يقول ابن القيم : " وقد تنازع الصحابة رضي الله عنهم في كثير من مسائل الأحكام — وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة ايمانا — ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال " (٤) .

وقد مضى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن خلاف بين المسلمين في مسائل العقيدة ، وانما كانوا على عقيدة واحدة هي ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ولم يكن عندهم شبهة أو شك فيما أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) الاعتصام (٢/٣٣١ — ٣٣٢) .
(٢) مقدمة تحقيق كتاب شرح أصول اعتقاد اهل السنة والجماعة (١/١٨) .
(٣) الشرح والابانة لابن بطة (ص ١٠٨) ، و (ص ١٣٠ — ١٣١) .
(٤) أعلام الموقعين (١/٥١) ، مختصر الصواعق المرسلة (ص ١٧) .

" وقد كانت بعض الانحرافات أن تظهر رأسها في ذلك المجتمع ، الا أنها عولجت في وقتها ، وقضى عليها في مهدها ، فلم تظهر بعد ذلك في تلك الفترة ، فقد تكلم بعض الصحابة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في القدر ، وغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، ونهاهم عن ذلك ، فانتهوا ، وكان نزاعا عارضا لم يتكرر فيما بعد " (١) .

" ونخلص الى القول بأنه كان لعلماء السلف منهجا مميزا في تقرير مسائل العقيدة والرد على أهل الأهواء والبدع ، ومنهجهم يقوم على عدة أسس :

١ — تحكيم كتاب الله سبحانه وتعالى والسنة النبوية الصحيحة في كل مسألة من مسائل العقيدة ، وعدم رد شيئ منهما ، أو تأويله .

أما الاستشهاد بالقرآن فهو بلا ريب أمر متفق عليه بين المنتسبين الى الاسلام ، الا أن أصحاب الاتجاه العقلي يؤولون كثيرا من الآيات المتعلقة باثبات صفات الله تعالى على غير ظاهرها .

يقول القاضي عبد الجبار : " واذا ورد في القرآن آيات تقتضي بظاهرها التشبيه وجب تأويلها ، لأن الألفاظ معرضة للاحتمال ، ودليل العقل بعيد عن الاحتمال " (٢) .

" بينما نجد أهل السنة والجماعة يحملون آيات الصفات على ظاهرها ، ولا يؤولون شيئا منها ، ويرجع ذلك الى أنهم وقفوا من قضية التأويل موقفا حازما ، معتمدين في ذلك على الكتاب والسنة ، فما وجدوه موافقا للوحي أقروه ونبهوا اليه ، وما وجدوه معارضا له نبذوه مهما كان مصدره " (٣) .

فان السلف يطلقون التأويل على معنيين :

أحدهما : التفسير والبيان ، وهذا هو التأويل في كلام كثير من المفسرين ، اذ معنى التأويل عندهم بيان معنى اللفظ سواء وافق ظاهره أو خالفه ، وهذا التأويل كالتفسير تماما يحمد حقه ويرد باطله .

---

(١) مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٩/١) .

(٢) المصدر نفسه (٥٣/١) ، المحيط بالتكليف (ص ٢٠٠) .

(٣) مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥٣/١) .

ومن ذلك قول ابن عباس رضى الله عنهما حين قرأ قوله تعالى : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم ، يقولون آمنا به . . .) (١) : قال ابن عباس : " أنا من الراسخين فى العلم الذين يعلمون تأويله " (٢) .

والمعنى الآخر للتأويل : هو الحقيقة التى يؤول اليها الشيء ، فتأويل ما أخبر الله به عن نفسه وعن اليوم الآخر هو نفس الحقيقة التى أخبر عنها ، وذلك فى حق الله هو كنه ذاته وصفاته لا يعلمها الا هو ، ولهذا قال الامام مالك : " الاستواء معلوم ، والكيف مجهول . . " ، وهذا هو التأويل المذكور فى قول الله عز وجل : (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) (٣) ، وقوله تعالى : (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) (٤) .

فقد جعل الله سبحانه وتعالى الحقيقة الواقعة تأويلا ، لا ما يتصور من معانيها فى الأذهان ، ويعبر عنه باللسان .

كذلك تأويل الكلام الطلبى والأمر والنهى هو تنفيذ فعل المأمور به ، وترك المنهى عنه ، كما قالت عائشة رضى الله عنها : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى ، يتأول القرآن " (٥) .

---

(١) سورة آل عمران (٧) .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢٣٤) ، درء تعارض العقل والنقل (١/٥ ٢١) .
(٣) سورة يوسف (١٠٠) .
(٤) سورة الأعراف (٥٣) ، أنظر: درء تعارض العقل والنقل (١/٢٠٦-٢٠٧) .
(٥) مجموع الفتاوى (٥/٣٥ - ٣٦) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢٣٣) ، مختصر الصواعق المرسلة (ص ١٢)

وأما التأويل بالمعنى الذى سار عليه المتأخرون من المتكلمين وأمثالهم وهو صرف اللفظ عن ظاهره الى معنى آخر يحتمله اللفظ : فهذا اصطلاح مستحدث ، لم يكن معروفا فى العصور الأولى ، والتأويل بهذا المعنى بغير صارف للمعنى الظاهر هو نوع من التغيير فى معانى الآيات .

قال شارح الطحاوية : " والتأويل فى كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك ، وهذا هو التأويل الذى تنازع الناس فيه فى كثير من الأمور الخبرية والطلبية ، فالتأويل الصحيح منه : الذى يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد " . (١)

وقد ركز علماء السلف على دحض التأويل بالمعنى الذى أراده المتكلمون ، وشددوا القول فى الانكار عليهم .

يقول ابن القيم : " ومن كيده بهم ــ أى الشيطان ــ وتحيله على اخراجهم من العلم والدين : أن ألقى على ألسنتهم أن كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ظواهر لفظية ، لا تفيد اليقين ، وأوحى اليهم أن القواطع العقلية والبراهين اليقينية فى المناهج الفلسفية والطرق الكلامية ، فحال بينهم وبين اقتباس الهدى واليقين من مشكاة القرآن ، وأحالهم على منطق يونان ، وعلى ما عندهم من الدعاوى الكاذبة العرية عن البرهان ، وقال لهم : تلك علوم قديمة صقلتها العقول والأذهان ، ومرت عليها القرون والأزمان ، فانظر كيف تلطف بكيده ومكره حتى أخرجهم من الايمان ، كاخراج الشعرة من العجين " . (٢)

" وأما الاستشهاد بالسنة : فقد وقع فيه الخلاف أيضا بين علماء السلف من جهة ، وبين أصحاب الاتجاه العقلى من جهة أخرى " . (٣)

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢٣٥) .

(٢) اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم (١/١٣٩) .

(٣) مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٥٤) .

" أما السلف فانهم يستشهدون بما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث الصحيحة ، ولا يردون شيئا منها أو يؤولونه ، ويتضح لنا ذلك من خلال بعض النصوص الواردة عن علمائهم .

وفي ذلك نأخذ مثلا قول الامام أحمد في أحاديث الرؤية : أحاديث صحاح ، نؤمن بها ونقر ، وكلما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم بأسانيد جيدة نؤمن به ونقر" (١) .

اذن : " المنهج السلفي هو قبول الأحاديث الصحيحة دون الضعيفة والموضوعة ، وتقديمها على المقررات العقلية ، وأما أصحاب الاتجاه العقلي فانهم خالفوا هذه المنهج ، ورفضوا السنة الصحيحة الا المتواترة منها ، وأخذوا بما قررته عقولهم .

يقول القاضي عبد الجبار في الأحاديث النبوية : وأما ما لا يعلم كونه صدقا ولا كذبا فهو كأخبار الآحاد ، وما هذه سبيله يجوز العمل به اذا ورد بشرائطه فأما قبوله فيما طريقه الاعتقادات فلا .. فإن كان موافقا لحجج العقول قبل ، واعتقد موجبه ، لا لمكانه ، بل للحجة العقلية ، وان لم يكن موافقا لها فان الواجب أن يرد ، ويحكم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقله ، وان قاله فانما قاله على طريق الحكاية عن غيره ، هذا اذا لم يحتمل التأويل الا بتعسف ، فأما اذا احتمله فالواجب أن يتأول ... " (٢) .

٢ ـ " الأخذ بما ورد عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيان الأمور الاعتقادية ، وتقديم أقوالهم على أقوال من جاء بعدهم ، وذلك لأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلوا على غيرهم بمشاهدة التنزيل ومعاصرة الوحي الالهي

---

(١) مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٥٤) ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، اللالكائي (٢/٥٠٧) .

(٢) مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٥٥) ، وشرح الأصول الخمسة (ص ٧٦٩ - ٧٧٠) .

وشرف صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصفاء عقولهم مما جاء بعدهم من البدع الباطلة والتأويلات المنحرفة ، اضافة الى ما كانوا يتمتعون به رضوان الله عليهم أجمعين من الفهم اللغوى للنصوص الشرعية" (١) .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف : أن خير قرون هذه الأمة — فى الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة — أن خيرها القرن الأول ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما ثبت ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم من غير وجه ، وأنهم أفضل من الخلف فى كل فضيلة من علم وعمل وايمان وعقل ودين وبيان وعبادة ، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل ، هذا لا يدفعه الا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الاسلام ، وأضله الله على علم ، كما قال عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه : من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات ، فان الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، أبر هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، واقامة دينه فأعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم " (٢) .

وقال الامام أحمد : " أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاقتداء بهم ، وترك البدع ، وكل بدعة ضلالة ، والسنة عندنا آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٣) .

٣ — " عدم الخوض فى المسائل الاعتقادية ، وبخاصة فيما يتعلق بالغيبيات ، لأن العقل البشرى عاجز عن معرفة الأمور الغيبية بنفسه استقلالا ، وأن وظيفة العقل هى الفهم والاتباع والاعتقاد لما جاء به الوحى ، وليس الرد والاعتراض" (٤) .

---

(١) مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٥٥) .
(٢) نقض المنطق لابن تيمية (ص ١٢٩ — ١٣٠) .
(٣) المصدر نفسه (ص ١٢٨) ، مختصر الصواعق المرسلة (ص ٤٤٧) .
(٤) مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/٥٦) .

٤ ــ عدم مجادلة أهل البدع ، ومخالطتهم ، والجلوس معهم ، والنهي عن نقل شبههم أو عرضها على المسلمين ، وذلك لخوفهم من ضعف الناقل وقلة حيلته وعجزه عن ابطالها وتزييفها ، فيفتتن بعض من يسمعها أو يقرؤها ، وفي عدم مجادلة أهل البدع وعرض شبههم صيانة لقلوب المسلمين ، وحماية لعقولهم وأفكارهم ، كما أن فيه اهانة للمبتدعين ومحاصرة لآرائهم المنحرفة عن الطريق المستقيم .

جاء ذلك في كلام كثير من علماء السلف وأئمتهم .

قال الامام الثوري : " من سمع بدعة فلا يحكها لجلسائه ، لا يلقيها في قلوبهم " .(١)

وكان الفضيل بن عياض يقول : " صاحب البدعة لا تأمنه على دينك ، ولا تشاوره في أمرك ، ولا تجلس اليه ، فمن جلس الى صاحب بدعة ورثه الله العمى " .(٢)

---

(١) مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة .. (١/٥٦) بتصرف ، شرح السنة للبغوي (١/٢٢٧) .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/١٣٨) .

منهج السلف في تدوين العقيدة :

لا شك أن ظهور البدع بين صفوف المسلمين ، وازدياد شرها يوما بعد يوم على معتقد المسلمين ، وظهور فتنة خلق القرآن ، وتعرض علماء السلف للاهانة والتنكيل من قبل أتباعها : كان له أثر فعال في يقظة المذهب السلفي .

اذ نبهت هذه الفتن والبدع علماء السلف بالخطر القادم على عقيدة الأمة الاسلامية من قبل الفرق الضالة ، وبالأخص المعتزلة الذين نصرهم بعض الخلفاء العباسيين ، ومكنوا لهم في الأرض ، وثبتوا أقدامهم ، فأصبح لهم من القوة والتمكن ما أفسدوا به البلاد والعباد .

لكن الله عز وجل أبى أن تعلو كلمة المنحرفين ، وأن يظهر الباطل على الحق ، فقيض لهذه الأمة مجموعة من علماء السنة الذين أعز بهم دينه ، فاتجه هؤلاء العلماء لنصرة الحق ومحاربة الفرق الباطلة ، وبيان شبهاتها وتأويلاتها الفاسدة ، وتحذير الأمة من شرها .

وعملوا على اعلاء راية العقيدة الصحيحة ، المستمدة من الكتاب والسنة ، ونشطوا في ذلك ، حتى ساد مذهب أهل السنة في الأرض ، وتلاشى مذهب الاعتزال ، واختفى .

وبدأت مرحلة جديدة وهي مرحلة التصنيف والتأليف وتدوين عقيدة أهل السنة ، والرد على أهل الاهواء والبدع ، فصار العلماء فيها على منهجين : منهج الرد ومنهج العرض .

أما منهج الرد : فهو يتمثل في عرض شبهة الخصوم ، وبيان الحق في ذلك ، معتمدا على الأدلة النقلية من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين ومن اتبعهم باحسان ، من علماء السنة والحديث والفقه .

ويمثل هذا النوع من التأليف المؤلفات الآتية :

كتاب الايمان لأبى عبيد ، القاسم بن سلام (ت ٢٤١ هـ) ، والرد على الجهمية والزنادقة للامام أحمد بن حنبل ، والرد على الجهمية لعبد الله بن محمد ابن عبد الله الجعفى (ت ٢٢٩ هـ) ، والرد على الجهمية للامام محمد بن اسماعيل البخارى ، والاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لعبد الله بن مسلم ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ، والرد على الجهمية لعثمان بن سعيد الدارمى ، والرد على بشر المريسى للمؤلف نفسه ، والرد على الجهمية لعبد الرحمن بن أبى حاتم (١) ، وجميع هذه الكتب مطبوعة ، ما عدا الكتاب الأخير منها .

وأما منهج العرض فهو عرض معتقد السلف من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من الأئمة والعلماء .

ويمثل هذا القسم من التأليف المؤلفات التالية :

كتاب السنة ، رسالة للامام أحمد بن حنبل ، والسنة لعبد الله بن أحمد ابن حنبل ، والسنة لمحمد بن نصر المروزى (ت ٢٩٤ هـ) ، والسنة لأحمد بن محمد ابن هارون الخلال (ت ٣١١ هـ) ، وكتاب التوحيد لابن خزيمة ، وكتاب الشرح والابانة على أصول السنة والديانة لابن بطة (ت ٣٨٧ هـ) ، وكتاب الايمان لابن مندة (ت ٣٩٥ هـ) ، وكتاب التوحيد للمؤلف نفسه ، وشرح السنة لأبى عبد الله بن محمد ابن عبد الله بن أبى زمنين (ت ٣٩٩ هـ) (٢) .

ومعظم هذه المؤلفات مطبوعة ، وتوجد هناك مؤلفات أخرى فى العقيدة الى جانب هذه المؤلفات : فقد بعضها ، أولا يزال فى أعماق المكتبات لم يطبع الى اليوم (٣) .

---

(١) أنظر : مجموع الفتاوى (٥/ ٢٤) .

(٢) المصدر نفسه .

وقد استفدت فى هذا البحث من مقدمة شرح أصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٤٩ — ٥١) .

المبحث الثانى

المطلب الثانـــــى

مذهب السلف فى الأسماء الحسنى

أسماء الله الحسنى وطريق اثباتها عند السلف :

ان أسماء الله تعالى هى أعلام عليه ، مثل : الله ، الحى ، الملك ، العزيز ، الجبار . . . وغير ذلك مما أخبرنا بها الله فى كتابه ، ورسوله صلى الله عليه وسلم فى سنته .

قال الله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى ، فادعوه بها)[(١)] ، وقال تعالى : (هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى . . .)[(٢)] .

وقال رسوله عليه الصلاة والسلام : " ان لله تسعة وتسعين اسما ، مائة الا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة "[(٣)] .

وأسماء الله تعالى كلها حسنى ، سميت بذلك لدلالتها على أقدس مسمى وأشرف مدلول[(٤)] .

والاسم الجامع لمعانى أسماء الله تعالى كلها هو : " الله " ، فانه يتضمن جميع الأسماء والصفات .

يقول ابن القيم رحمه الله : " فاسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا "[(٥)] .

---

(١) سورة الأعراف (١٨٠) .

(٢) سورة الحشر (٢٤) .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ، باب أن لله مائة اسم الا واحد (١٦٩/٨) فتح البارى (٢١٨/١١ – ٢١٩) ، ومسلم فى كتاب الذكر والدعاء ، باب فى أسماء الله تعالى (٢٦٧٧/٤) ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٤) الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية (ص ٤٤) .

(٥) مدارج السالكين لابن القيم (٣٢/١) .

وهذا الاسم لم يطلق على غيره ، لأنه دال على الهيته المتضمنة لجميع معانى الأسماء الحسنى ، دال عليها بالاجمال .(١)

وكان ثبوت أسماء الله تعالى بما ورد من أدلة صريحة واضحة مصدرها الكتاب والسنة واجماع الأمة أمرا واضحا اذ أصبح بذلك من المسلمات التى لا تحتاج الى امعان نظر ولا تقبل المراء .

واثبات أسماء الله تعالى كما جاءت فى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم هو مذهب السلف الصالح ، وهو ما قالت به جماهير الأمة ، وهو أمر واجب وجزء من عقيدة المسلم .

قال أبو عبد الله ابن أبى زمنين (٢) من أئمة المالكية ، كما نقل عنه شيخ الاسلام ابن تيمية : " أعلم أن أهل العلم بالله وبما جاءت به أنبياؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به عن نفسه علما ، والعجز عن ما لم يدع اليه ايمانا ، وانهم انما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه الى حيث انتهى فى كتابه على لسان نبيه" .(٣)

فالاثبات لأسماء الله تعالى وصفاته من تمام التوحيد ، ومن كمال معرفة الرب سبحانه وتعالى .

ومع ذلك فاننا نجد هناك من نفى عن الذات المقدسة حقيقة الأسماء والصفات ، فمن هؤلاء النافين فرقة الجهمية الذين يرون أن اثبات ذلك يؤدى الى تشبيه الله بخلقه .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٣٢) .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عيسى المرى ، أبو عبد الله ، المعروف بابن أبى الزمنين فقيه مالكى ، من الوعاظ والأدباء ، من أهل البيرة ، سكن قرطبة ، ثم عاد الى البيرة ، فتوفى بها سنة (٣٩٩ هـ) ، الأعلام للزركلى (٧/ ١٠١) .

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥/ ٥٧) .

يقول فخر الدين الرازى فى بيان ذلك : " اعلم أن من الناس من نفى ثبوت الأسماء لله تعالى وسلم بثبوت الصفات ، ومنهم من عكس ، سلم ثبوت الأسماء وانكر ثبوت الصفات ، ومنهم من اعترف بالأسماء والصفات لله تعالى " (١) .

فالجهمية انكرت ثبوت الأسماء والصفات لله تعالى ، ونفوا كل اسم عنه يجوز اطلاقه على المخلوق ، كموجود وحى وعالم ومريد ، وأثبتوا له تعالى أسماء تختص به وحده دون غيره ، كالقادر والموجود والفاعل والخالق والمحيى والمميت (٢) .

والمبرر الوحيد لهذا عندهم : ان اثبات هذه الأسماء وتلك الصفات على حقائقها يستلزم تشبيه الله بخلقه ، فى زعمهم (٣) .

ويرد السلف عليهم رأيهم هذا ، يقول الامام ابن خزيمة رحمه الله : " وليس فى تسميتنا بعض الخلق ببعض أسامى الله بموجب عند العقلاء الذين يعقلون عن الله خطابه ، أن يقال : انكم شبهتم الله بخلقه ، اذ أوقعتم بعض أسامى الله على بعض خلقه ، وهل يمكن عند هؤلاء الجهال حل هذه الأسامى من المصحف ، أو محوها من صدور أهل القرآن ، أو ترك تلاوتها فى المحاريب والكتاتيب وفى الجدور والبيوت ، أليس قد أعلمنا منزل القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم أنه الملك ، وسمى بعض عبيده ملكا ، وخبرنا أنه السلام ، وسمى تحية المؤمنين بينهم سلاما فى الدنيا وفى الجنة ، فقال : "(تحيتهم يوم يلقونه سلام) (٤) ، ونبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم كان يقول بعد فراغه من تسليم الصلاة : " اللهم أنت السلام ومنك السلام " (٥) ، فثبت بخبر الله أن الله هو السلام ، كما فى قوله : (السلام المؤمن المهيمن) (٦) ،

---

(١) شرح الأسماء الحسنى للرازى (ص ٣٢) .

(٢) الفرق بين الفرق (ص ٢١١ — ٢١٢) .

(٣) كتاب التوحيد : لابن خزيمة (ص ٢٨) .

(٤) سورة الأحزاب (٤٤) .

(٥) رواه مسلم فى كتاب المساجد ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (١/٤١٤) ، وابن ماجه فى كتاب الصلاة ، باب ما يقال بعد التسليم (١/٢٩٨) من حديث عائشة وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٦) سورة الحشر (٢٤) .

وأوقع هذا الاسم على غير الخالق البارى ، وأعلمنا عز وجل (أنه المؤمن ، وسمى بعض عباده المؤمنين ...) (١) ، الى آخر ما قاله رحمه الله فى الرد على النفاة . (٢)

فان تسمية الخلق ببعض أسامى الله عز وجل لا يقتضى تشبيها أو تمثيلا ،لأن معناها فى حق الله تعالى على ما يليق به ، وفى حق خلقه على ما يليق بهم .

ان أسماء الله توقيفيه عند السلف :

ذهبت المعتزلة والكرامية الى أن مصدر معرفة أسماء الله عز وجل هو العقل فهى غير توقيفية ، وأن التوقيف وحده ليس مجال الاثبات لها ، يقول الرازى فى بيان ذلك : " وقالت المعتزلة والكرامية : ان اللفظ اذا دل العقل على أن المعنى ثابت فى حق الله سبحانه جاز اطلاق ذلك اللفظ على الله تعالى ، سواء ورد التوقيف به أو لم يرد ، وهو قول القاضى أبى بكر الباقلانى من أصحابنا " . (٣)

لكن علماء السلف قد أجمعوا على أن أسماء الله توقيفية ، فقالوا : لا يجوز اطلاق اسم على الله تعالى من جهة ثبوت المعنى الا اذا ورد به الشرع ، فما جاء اطلاقه عليه فى الكتاب والسنة الصحيحة هو الذى يطلق عليه ، (٤)

والدليل على ذلك قوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملئكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك أنت العليم الحكيم ...) . (٥)

وفى هذه الآية بيان أن أسماء المخلوقين كانت بتعليم الله ، فكيف بأسماء الله عز وجل ؟ .

---

(١) سورة الحشر (٢٣) .

(٢) كتاب التوحيد (ص ٢٨ — ٢٩) .

(٣) شرح الأسماء الحسنى للرازى (ص ٤٠) .

(٤) أصول الدين : للبغدادى (ص ١١٦) .

(٥) سورة البقرة (٣١ — ٣٣) .

قال أبو عثمان الدارمي :" وادعت الجهمية مكذبين لله ولرسوله أنهم أعاروه الاسم الذى شقها منه ، ومن أين علم الخلق أسماء الخالق قبل تعليمه اياهم ، فانه لم يعلم آدم ولا الملائكة أسماء المخلوقين ، حتى علمهم الله من عنده ، وكان بدء علمهما منه " (١) .

وهكذا بين الدارمى أن أسماء المخلوقين لم يكن ليعلمها أحد لولا تعليم الله سبحانه ذلك لآدم ، فيكون حينئذ من باب أولى أن لا يعلموا أسماء الله تعالى الا من بعد تعليم الله لهم تلك الأسماء .

اما بالنسبة لابن كلاب :فقد سبق أن ذكرت أننى لم أعثر على أثر له يبين لنا مذهبه فى هذه المسألة ،أى طريق اثبات أسمائه تعالى ،كما لم يتعرض ابن كلاب الى مسائل أخرى تتعلق بأسماء الله الحسنى ، لم أعثر على شيء من ذلك أيضا فى مؤلفات مؤرخى الفرق .

بيد أننا يمكن أن نقرر مطمئنين الى انه كان : يذهب مذهب السلف فى أسماء الله تعالى وصفاته ، حيث يثبت لله تعالى أسماء وصفات بقوله : (ان الله قديم بأسمائه وصفاته) ،ويرى (أن أسماء الله هى صفاته) يعنى مشتقة من صفاته ،وكان يقول :" ان أسماءه تعالى وصفاته لذاته وقائمة به " .

وهو بآرائه هذه لا يخالف مذهب السلف ، بل نجده يدافع عنه ضد النفاة من الجهمية والمعتزلة .

عدد أسماء الله تعالى :

وأما عدد أسماء الله تعالى فيما رواه البخارى ومسلم وغيرهما :فهو تسعة وتسعون اسما .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه ،قال :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" ان لله تسعة وتسعين اسما ،مائة الا واحدا ،من أحصاها دخل الجنة " (٢) .

---

(١) الرد على البشر: للدارمى (ص ٣٦٩) ،ضمن عقائد السلف .

(٢) قد سبق تخريجه فى صفحة (١٤٩).

ولم يرو البخارى هذه الأسماء التسعة والتسعين ، الا أن الترمذى وابن ماجة (١) ،

---

(١) الحديث رواه الحاكم (١/١٦ - ١٧) ، والترمذى فى كتاب الدعوات ، باب (٨٣) ، (٥/٥٣٠) رقم الحديث (٣٥٠٧) من حديث صفوان بن صالح ، قال : " حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا شعيب بن أبى حمزة ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة " ، وقال : " هذا حديث غريب ، حدثنا غير واحد عن صفوان بن صالح ، ولا نعرفه الا من حديث صفوان بن صالح ، وهو ثقة عند أهل الحديث ، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا نعلم فى كثير شيئ من الروايات له اسناد صحيح ذكر الأسماء الا فى هذا الحديث (٥/٥٣٢) .
وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الدعاء ، باب أسماء الله عز وجل ، (٢/١٢٦٩) من طريق آخر ، عن موسى بن عقبة ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا نحو لفظ الترمذى بزيادة ونقصان .
قال البوصيرى فى (مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجه) : (٢/٢٧٣) ، (ط . دار الجنان ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، بتحقيق : كمال يوسف الحوت) : " لم يخرج أحد من الأئمة الستة عدد أسماء الله الحسنى من حديث أبى هريرة ، ولا من غيره ، سوى ابن ماجة والترمذى وابن حبان " ، ثم قال : " وطريق الترمذى أصح شيئ فى هذا الباب . . . ، واسناد طريق ابن ماجة ضعيف لضعف عبد الملك بن محمد الصنعانى " .
وقال ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم (٢/٢٦٩) : " والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه ، ===

والبيهقى ،[١] والدارمى ،[٢] وغيرهم رووا هذه الأسماء التسعة والتسعين ...

فهل نأخذ هذا الحديث على ظاهره فى حصر أسماء الله تعالى فى هذا العدد ، أم لا ؟

يكاد ينعقد الاجماع على أن العدد الوارد فى هذا الحديث لا يفيد الحصر لأسماء الله تعالى فى تسعة وتسعين فقط ، ولا يفيد أنها محصورة فى ذلك العدد .

قال أبو سليمان الخطابى : " فى هذا الحديث اثبات هذه الأسماء المحصورة بهذا العدد ، وليس فيه منع ما عداها من الزيادة ،

= = وانما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أى أنهم جمعوها من القرآن ، كما روى عن جعفر ابن محمد وسفيان بن عيينة وأبى الزيد اللغوى ، والله أعلم " .

وقد ضعفه الألبانى فى تحقيقه مشكاة المصابيح (٧٠٨/٢) ، رقم الحديث (٢٢٨٨) .

(١) الأسماء والصفات للبيهقى (ص ١٦) .

(٢) رد الامام الدارمى على المريسى ، ضمن عقائد السلف (ص ٣٧٠) .

وانما التخصيص لكونها أكثر الأسماء وأبينها معانى ". (١)

وقد ثبت أن عدد أسماء الله تعالى أكثر مما هى مذكورة فى الحديث السابق .

يقول ابن الوزير اليمنى (ت ٨٤٠ هـ) : " وقد ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروى بالضرورة والنص ، أما الضرورة : فان فى كتاب الله أكثر من ذلك ، وأما النص فحديث ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما قال عبد أصابه هم أو حزن : اللهم انى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضائك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى الا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكان حزنه فرحا " . (٢)

---

(١) ذكره ابن حجر فى فتح البارى (١١/٢٢٠) .

(٢) ايثار الحق على الخلق (ص ١٥٨) ، والحديث أخرجه أحمد فى المسند (٥/٣٧١٢) ، (ط . دار المعارف بمصر ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧م ، بتحقيق : أحمد محمد شاكر) ، والحاكم فى المستدرك (١/٥٠٩ — ٥١٠) ، وقال : " حديث صحيح على شرط مسلم " ، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد : (١٠/١٣٦) : " رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبرانى ، ورجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح ، غير أبى سلمة الجهنى وقد وثقه ابن حبان " ، والحديث صححه أحمد شاكر فى تحقيقه المسند (٥/٣٧١١) .

وبهذا ثبت أن أسماء الله تعالى فى القرآن الكريم والأحاديث الأخرى أكثر مما هى مذكورة فى حديث التسعة والتسعين .

وقد ذهب الى القول بعدم الحصر شيخ الاسلام ابن تيمية [١] ، وتلميذه ابن قيم الجوزية [٢] ، وقد تبنى هذا الرأى البيهقى [٣] والبغوى [٤] ، وعبد القاهر البغدادى [٥] ، وغيرهم من علماء السلف وأئمتهم .

وبهذا اتضح لنا أن حديث التسعة والتسعين لم يورد بصدد احصاء أسماء الله الحسنى ، ولكنه ورد بصدد بيان جزاء من يحصى هذه العدة المذكورة فى الحديث .

وقد ذهب ابن حزم الظاهرى الى حصر أسمائه تعالى كما ورد النص فقط ، وقال فى كتابه " المحلى " ما نصه : " أن له عز وجل تسعة وتسعين اسما ، مائة غير واحد ، وهى أسماؤه الحسنى ، من زاد شيئا من عند نفسه فقد ألحد فى أسمائه ، وهى الأسماء المذكورة فى القرآن والسنة . . . وقد صح أنها تسعة وتسعون اسما فقط ، ولا يحل لأحد أن يجيز أن يكون له اسم زائد ، لأنه عليه السلام قال : " مائة غير واحد " ، فلو جاز أن يكون له تعالى اسم زائد لكانت مائة اسم ، ولو كان هذا لكان قوله عليه السلام " مائة غير واحد " ، كذبا ، ومن أجاز هذا فهو كافر " [٦] .

وقد رد عليه الحافظ ابن حجر فى كتابه " فتح البارى " : بأن الحصر المذكور باعتبار الوعد الحاصل لمن أحصاها ، فمن ادعى أن الوعد وقع لمن أحصى زائدا على ذلك فقد أخطأ ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون هناك اسم زائد [٧] .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/٤٨٢ — ٤٨٦) .

(٢) بدائع الفوائد (١/١٦٦) .

(٣) كتاب الاعتقاد (ص ٣٢) .

(٤) شرح السنة (٥/٣٥) .

(٥) أصول الدين (ص ١٢٠) .

(٦) المحلى : لابن حزم (١/٣٦) .

(٧) فتح البارى (١١/٢٢١) .

ونتيجة القول : ان رأى ابن حزم غير صائب ، ومخالف لجمهور العلماء ، لأن أسماء الله تعالى أكثر من أن تحصر ، وان العدد الوارد في الحديث لا يقتضي الحصر ، وانما المقصود منه : أن تلك الأسماء الواردة هي أشهر أسماء الله تعالى، وأبينها معاني ، وهي التي من أحصاها دخل الجنة .

حقيقة الاسم والمسمى عند السلف :

ذهبت الجهمية والمعتزلة الى أن الاسم غير المسمى ،[(١)] وبنوا رأيهم هذا على أن أسماء الله تعالى مستعارة مخلوقة من وضع البشر ،[(٢)] وهي ليست توقيفية ،[(٣)] وما دامت كذلك فهي غيره .

قال القاضي عبد الجبار : " اعلم أن جميع ما ذكرناه في الدلالة على حسن اجراء الاسم على المسميات من غير اذن يدل على حسن اجرائها على القديم تعالى ذكره من غير اذن ، لأنا اذا علمناه بالعقل وعلمنا ما يستحقه من الأوصاف وعلمناه فاعلا لم يمتنع أي تجرى عليه من الأسماء ما يفيد ما هو عليه في ذاته ، وما أوجده من فعله " .

وقال في معرض آخر : " ان استعمال الأسماء والأوصاف يحسن من جهة اللغة ، وان لم يرد بها التوقيف ، واذا صح ذلك صارت اللغة هي الأصل فيه ".[(٤)]

فالذي يراه القاضي : أن أسماء الله تعالى ليست ألفاظا جامدة ، لا تدل على صفات هو عليها في ذاته أو أوجدها من فعله ، وهذا بخلاف ما ذهب اليه بعض الجهمية : من أن أسماء الله تعالى ألفاظ جامدة لا تدل على معان .

---

(١) المغنى (٥/ ١٧٩) ، متشابه القرآن (٤٧٠) ، مجموع الفتاوى (٦/ ١٨٦) ، أصول الدين للبغدادي (١١٥) .

(٢) الرد على المريسي : للدارمي (ص ٣٦٣) ، ضمن عقائد السلف .

(٣) المغنى (٥/ ١٧٩) ، مجموع الفتاوى (٦/ ١٨٦) .

(٤) المصدر نفسه (٥/ ١٧٩ ، ١٤٧) .

والذى دفع الجهمية الى هذا : اتفاقهم على استحالة اثبات اسم لله تعالى من غير أن يكون له صفة فى الأزل ، لأن الصفات غير الموصوف ، فلو كان متصفا بصفات أزلا لزم تعدد القدماء ، ومن هنا قالوا هى مستعارة مخلوقة ، وأنها لم تزده شيئا ، كما أن الاسم لا يزيد مسماه ، ولا ينقص عنه . (١)

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية : أن الخلاف فى حقيقة الاسم والمسمى قد وقع على خمسة مذاهب هى : ان الاسم عين المسمى ، وهو رأى أكثر المنتسبين الى السنة ، وأن الاسم غير المسمى ، وهو رأى الجهمية والمعتزلة ـ كما بيناه آنفا ـ ، والتوقف ، وهو رأى جماعة من السلف ، وان الاسم للمسمى ، وهو اختيار أكثر المنتسبين الى السنة ، والتفصيل ، وهو المشهور عن السلف . (٢)

والرأى الأصح منها هو رأى التفصيل الذى أورده شارح الطحاوية ، فهو رأى جمهور أهل السنة ، فقال : " الاسم يراد به المسمى تارة ، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى ، فاذا قلت : قال الله كذا أو سمع الله لمن حمده ونحو ذلك فهذا المراد به المسمى نفسه ، واذا قلت : الله اسم عربى ، والرحمن اسم عربى والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك : فالاسم ههنا هو المراد ، لا المسمى ، ولا يقال غيره ، لما فى لفظ الغير من الاجمال ، فان أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق ، وان أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء ، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم ، فهذا من أعظم الضلال والالحاد فى أسماء الله تعالى " . (٣)

ومن هنا يحق لنا أن نقول : اذا قيل : الاسم هو المسمى أو غيره : يلزم أن يفصل القول فى ذلك ، فلا تستعمل الألفاظ مجملة ، دون تحديد المراد بها ، لأن ذلك قد يؤدى بالمتخاصمين أن يجحد كل منهما الحق الذى مع خصمه .

---

(١) شرح الأسماء الحسنى للرازى ، (لوامع البينات) (ص ٣٢) ، الرد على المريسى للدارمى (ص ٣٦٥) ، ضمن عقائد السلف ، معارج القبول (١ / ٨٠ - ٨١) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦ / ١٨٥ - ١٨٩) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٣١) .

قال ابن تيمية ، موضحا مذهب السلف أكثر من ذلك : " واذا قيل لهم أهو المسمى أم غيره ؟ فصلوا ، فقالوا : ليس هو نفس المسمى ، ولكن يراد به المسمى ، واذا قيل : أنه غيره ، بمعنى أنه يجب أن يكون بيانا له فهذا باطل ، فان المخلوق قد يتكلم بأسماء نفسه ، فلا تكون بائنة عنه ، فكيف بالخالق وأسمائه من كلامه ، وليس كلامه بائنا عنه ، ولكن قد يكون الاسم بائنا ، مثل أن يسمى الرجل غيره باسم ، أو يتكلم باسمه ، فهذا الاسم نفسه ليس قائما بالمسمى ، لكن المقصود به المسمى ، فان الاسم مقصوده اظهار المسمى وبيانه .

فالاسم يتناول اللفظ والمعنى المتصور فى القلب ، وقد يراد به مجرد اللفظ ، وقد يراد به مجرد المعنى ، فانه من الكلام ، و " الكلام " اسم للفظ والمعنى ، وقد يراد به أحدهما ، ولهذا كان من ذكر الله بقلبه أو بلسانه فقد ذكره ، لكن ذكره بهما أتم " (١) .

أما بالنسبة لعبد الله بن كلاب ، فقد أوضحنا فيما مضى أنه كان يذهب الى أن الاسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة متباينة ، وأن الاسم لا عين المسمى ولا غيره .

وهو بهذا مخالف لما عليه جمهور السلف .

وأما صاحبه الحارث المحاسبى فقد افترق عنه فى هذه المسألة ، وقد نسب اليه الرأى القائل بأن الاسم هو عين المسمى ، حكى ذلك عنه البيهقى ، نقلا عن شيخه ابن فورك ، وقال : " والى هذا ذهب الحارث بن أسد المحاسبى ، فيما حكاه عنه الأستاذ أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك ، قال : ويصح ذلك عندى بما يشهد له اللسان بذلك ، ألا ترى الى قوله عز وجل (بغلام اسمه يحيى) (٢) ، فأخبر أن اسمه يحيى ، ثم قال : يايحيى ، فخاطب أسمه ، فعلم أن المخاطب يحيى ، وهو أسمه ،

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/٢٠٧ — ٢١٣) .

(٢) سورة مريم (٧) .

واسمه هو ، وكذلك قال : (ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها ..) (١) ، وأراد المسميات ، ولأنه لو كان غيره أو لا هو المسمى ، لكان القائل اذا قال : عبدت الله ، والله اسمه ، أن يكون عبد اسمه ، اما غيره ، واما لا يقال له : انه هو ، وذلك محال ، وقوله : (ان لله تسعة وتسعين اسما) ، معناه : تسميات العباد لله ، لأنه في نفسه واحد . (٢)

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية : أن هؤلاء الذين قالوا بهذا الرأي لم يوفقوا الى الصواب ، وذكر أن السبب الذي أدى بهم الى مجانبة الصواب: أنهم لم يقتصروا على أن أسماء الشيء اذا ذكرت في الكلام فالمراد بها المسميات، كما ذكروه في قوله "يا يحيى" ، ونحو ذلك ، ولو اقتصروا على ذلك لكان صحيحا ، لأنه معنى واضح ، لا ينازع فيه من فهمه ، ولعدم اقتصارهم على ذلك أنكر قولهم جمهور أهل السنة لاشتماله على أمور باطلة ، مثل دعواهم أن لفظ اسم الذي هو " اسم " معناه ذات الشيء ونفسه ، وان الأسماء مثل زيد وعمرو هي المسميات ، ليست هي أسماء المسميات ، وكلاهما باطل ، مخالف لما يعلمه جميع الناس من جميع الأمم ، ولما يقولونه ، فانهم يقولون : ان زيدا وعمرا ونحو ذلك هي أسماء الناس ، والتسمية جعل الشيء اسما لغيره ، وهي مصدر سميته تسمية ، اذا جعلت له اسما ، والاسم هو القول الدال على المسمى ، ليس الاسم الذي هو لفظ اسم هو المسمى ، بل قد يراد به المسمى ، لأنه حكم عليه ، ودليل عليه . (٣)

ثم رد شيخ الاسلام كل دليل من أدلتهم منفردا عن الآخر بعد أن ساق الرد مجملا ، وبين أن جميع ما استدلوا به لا دليل لهم أصلا فيه ، لأنه لا يوجد في واحد منها ما يدل على أن اسم الشيء هو ذات الشيء بعينه ، لأن هذا لا يتفق مع الواقع. (٤)

---

(١) سورة يوسف (٤٠) .

(٢) الجامع لشعب الايمان للبيهقي ، (١ / ٣٣٧ - ٣٣٨) ، بتحقيق د / عبد العلي عبد الحميد حامد ، (ط . الدار السلفية ، بومباي ، الهند ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) .

(٣) مجموع الفتاوى (٦ / ١٩١ - ١٩٢) .

(٤) المصدر نفسه (٦ / ١٩٢ - ١٩٥) .

علاقة الأسماء بالصفات عند السلف :

هناك تلازم بين الاسم والصفة ، فكما أن الاسم تحقيق للصفات فان الصفات تدل على الأسماء .

يقول الامام الدارمي : " واذا قلت الرحمن فهو الرحمن ، وهو الله ، سواء لا يخالف اسم له صفته ، ولا صفته اسما " ، وقال : " لأن أسماء الله هي تحقيق صفاته " . (١)

وقول الدارمي هذا رد على الجهمية الذين نفوا الأسماء والصفات عن الله تعالى ، والمعتزلة الذين أثبتوا لله تعالى الأسماء ونفوا عنه الصفات ، فرارا من تعدد القدماء .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية : " ومعلوم أن الأسماء اذا كانت أعلاما وجامدات : لا تدل على معنى ، ولم يكن فرق فيها بين اسم واسم ، ... فلو كانت كلها بمنزلة الأعلام الجامدات التي تدل على معنى : لم تنقسم الى حسنى وسوآى ، بل هذا القائل لو سمى معبوده بالميت والعاجز ، بدل الحي والعالم والقادر ، لجاز ذلك عنده " . (٢)

وقد ناقش ابن القيم هذه الدعوى ، وبين أن أسماء الله تعالى لو لم تكن مشتملة على معان للزم منها مايلي : أولا : عدم جواز الاخبار عنها بأفعال ، فلا يقال يسمع ويرى ويعلم ، ثانيا : اثبات أسماء جامدة لله كالأعلام المحضة ، وهذا يعني أن الأسماء لم توضع لمسمياتها ، ... وثالثا : لم يكن هناك فرق بين مدلولات هذه الأسماء ، وهذا مخالف للعقل واللغة والفطرة .

قال ابن القيم رحمه الله : " لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها ، فلا يقال : يسمع ويرى ويعلم ويقدر ويريد ، فان ثبوت

---

(١) الرد على المريسي (ص ٣٦٤ - ٣٦٥) ، ضمن عقائد السلف .

(٢) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٧٧) .

أحكام الصفات فرع ثبوتها ، فاذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها ، فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به ، فكانت كلها سواء ، ولم يكن فرق بين مدلولاتها ، وهذا مكابرة صريحة ... ، فان من جعل معنى اسم القدير هو معنى اسم السميع البصير ... فقد كابر العقل واللغة والفطرة ..." (١).

واشتراك الألفاظ الدالة على بعض صفات الخالق وصفات المخلوق ، وكذلك اشتراك بعض الأسماء التي تطلق على الخالق وعلى المخلوق : لا يلزم التماثل بين الخالق والمخلوق في هذه الصفات والأسماء .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : "...لا يلزم من اتحاد أسماء الخالق والمخلوق وصفاتهما تماثلهما في المسمى ، وقد سمى الله نفسه حيا ، فقال : "الله لا اله الا هو الحي القيوم" (٢) ، وسمى بعض عباده حيا ، فقال : "يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي" (٣) ، وليس هذا الحي مثل هذا الحي ، لأن قوله "الحي" اسم لله ، مختص به ، وقوله (يخرج الحي من الميت) اسم للحي المخلوق مختص به)" (٤).

ولقد سبق أن ذكرت أن عبد الله بن سعيد كواحد من المثبتين للأسماء والصفات بحث علاقة الأسماء بالصفات ، وأثبت وجود صلة قوية بين أسماء الله وبين صفاته حيث قال : ان أسماء الله تعالى هي صفاته ، وهي العلم والسمع والبصر وسائر صفاته ، ففي قوله هذا : بيان لتلك الصلة التي يراها بين الأسماء والصفات ، وبيان للتلازم بين الاسم والصفة .

فرأى ابن كلاب الذي يثبت معاني أسماء الله تعالى ، وبذلك الصفات التي تدل عليها : هو الرأى الحق والرأى الصحيح ، وابن كلاب موافق في ذلك السلف .

---

(١) مدارج السالكين (١/٢٩) .

(٢) سورة البقرة (٢٥٤) .

(٣) سورة يونس (٣١) .

(٤) الرسالة التدمرية لابن تيمية (ص ٢١) ، بتصرف.

الفصل الرابع

مذهب ابن كلاب في صفات الذات
في ضوء عقيدة السلف

المبحث الأول

مفهوم الصفة وأقسامها عند ابن كلاب

- معنى الصفة لغة .
- معنى الصفة اصطلاحا .
- أقسام الصفات عند ابن كلاب .

بعد أن أوضحنا مذهب ابن كلاب فى اثبات أسماء الله الحسنى ، ومذهب السلف فيها ، سنستعرض فيما يأتى رأيه فى الصفات الذاتية ، العقلية منها والخبرية .

وقبل أن أبدأ ببيان ذلك : أود أن أبين معنى الصفة الالهية لغة واصطلاحا ومذاهب الناس فيها ، وتعريف ابن كلاب لها ، ثم أتحدث عن تقسيم السلف والمتكلمين للصفات ، ثم أتناول بالبحث تقسيم ابن كلاب لها ، وأتبع ذلك بالكلام على أحكام الصفات وما يتعلق بها .

معنى الصفة لغة :

الصفات جمع صفة ، والصفة والوصف لغة بمعنى واحد ، يقال : وصفه ، بمعنى نعته ، وهما مصدران ، يقال : وصف يصف صفة ووصفا ، كالوعد والعدة ، فأصل كلمة (صفة) : (وصف) ، بكسر الواو ، نقلت الكسرة الى الصاد ، ثم حذفت الواو وهى فاء الكلمة ، وعوض عنها هاء التأنيث ، فصارت صفة كعدة . (١)

معنى الصفة اصطلاحا :

والصفة فى اصطلاح المتكلمين هى " الشيء الذى يوجد بالموصوف أو يكون له ، ويكسبه الوصف الذى هو النعت الذى يصدر عن الصفة " ، " وأما الوصف فهو قول الواصف لله تعالى ولغيره . . . ، وهذا الوصف الذى هو كلام مسموع أو عبارة عنه غير الصفة القائمة بالله تعالى التى لوجودها به يكون عالما وقادرا ومريدا " . (٢)

والصفة فى مفهوم السلف هى كل ما أسند الى ذات الخالق سبحانه وتعالى اثباتا لكمال أو نفيا لنقص من الله ورسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل . (٣)

وان صفات الله توقيفية ، فلا مجال فيها للاجتهاد ، بل الواجب الوقوف عند ما وصف الله به نفسه ، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما قال الامام أحمد : لا يتجاوز الكتاب والسنة . (٤)

---

(١) كتاب التعريفات للجرجانى (ص ٢٥٢) ، لسان العرب ، مادة وصف .

(٢) التمهيد للباقلانى (ص ٢٤٤ــ ٢٤٥) ، (ط . مؤسسة الكتب الثقافية) .

(٣)

(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦) .

وقد وحد المعتزلة بين الصفة والوصف ، وقالوا بأن الصفة ليست بمعنى أكثر من الوصف الذى هو قول القائل ، واخبار المخبر عمن أخبر عنه بأنه عالم قادر ، وأدى بهم هذا المذهب الى القول بأن الله تعالى كان أزلا بلا صفة ولا اسم من أسمائه وصفاته العليا ، (١) وعللوا ذلك بأن اثبات صفات قديمة زائدة على ذاته تعالى قول يؤدى الى تعدد القدماء ، وهو محال .

وبيان ذلك نجده عند الاسفراييني بأن الصفة عند المعتزلة هى وصف الواصف ، ولم يكن فى الأزل واصف لله عز وجل ، والاسم هو التسمية ، ولم يكن فى الأزل مسمى عندهم . (٢)

ومعنى هذا : أن الصفة هى مجرد قول نطلقه للدلالة على الموصوف ، فهى ليست الا معنى ثابت فى الذهن ، وليس لها وجود فعلى فى الواقع والحقيقة .

وأما عبد الله بن كلاب فيذهب الى أن : كل ما وصف به الشيء فانما وصف به لمعنى هو صفة له ، ومعنى ذلك : أنه يذهب الى أن الصفة معنى زائد على الموصوف .

ذكر ذلك عنه أبو الحسن الأشعرى بقوله : " كان — ابن كلاب — يقول : كل معنى وصف به الشيء فهو صفة له " ، (٣) أى أن الصفة هى معنى يوصف به الشيء ، وليس هو الشيء نفسه .

ولذلك كان يسمى ابن كلاب المعانى القائمة بالأجسام أعراضا ، ويسميها أشياء ، ويسميها صفات . (٤)

---

(١) التمهيد للباقلانى ، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر (ص ٢٤٨) .
(٢) التبصير فى الدين (ص ٦٣) .
(٣) مقالات الاسلاميين (ص ٣٥٧) .
(٤) المصدر نفسه (ص ٣٧٠) .

وكما فرق ابن كلاب بين الصفة والموصوف من ناحية ، فانه فرق أيضا بين الوصف والصفة من ناحية أخرى ،فهو يرى أن الوصف غير الموصوف ، وأن الصفة ليست عين الموصوف ولا غير الموصوف ، كما لم يكن الاسم عنده عين المسمى ولا غيره كما ذكرناه .

يقول البزدوى بعد عرضه لقول ابن كلاب فى مسألة الاسم والمسمى " وجه قول ابن كلاب وهو : أن فى الصفات وصفا وصفة وموصوفا ،وقد بينا أن الوصف غير الموصوف ، والصفة ليست بغير الموصوف ولا عين الموصوف" (١) .

وبهذا أراد ابن كلاب نقد رأى المعتزلة الذين وحدوا بين الذات والصفات وجعلوا الصفات عين الذات .

اذن : الوصف غير الصفة ، لأن الصفة تقوم بالموصوف ، ويتخذ بها الموصوف وصفا مخالفا لمن لم يتخذ بهذه الصفة ، وأما الوصف : فهو قول يمكن أن يدخل عليه الصدق والكذب ،بينما الصفة لا يدخل عليها الصدق والكذب ، لأنها ليست قولا ، وانما هى نعت منسوب للذات الموصوفة . (٢)

---

(١) أصول الدين للبزدوى (ص ٨٨ — ٨٩) .

(٢) فى علم الكلام :د / أحمد صبحى (٢/ ٩٧ — ٩٨) .

أقسام الصفات عند ابن كلاب :

تحسن الاشارة الى تقسيم السلف والمتكلمين للصفات الالهية قبل الخوض في تقسيم ابن كلاب لها ، لنرى حقيقة موقفه منها .

أما السلف فانهم لم يتوسعوا في تقسيم الصفات وتنويعها ، اذ ليس من عادتهم الاسراف في الكلام في المطالب الالهية ، بل لا يكادون يتجاوزون الكتاب والسنة في مبحث الصفات ، ...

يقول المقريزي : " ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات وصفة فعل ، وانما أثبتوا لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والارادة والسمع والبصر والكلام والجلال والاكرام والجود والانعام والعز والعظمة ، وساقوا الكلام سوقا واحدا " .(١)

الا أن الذين عاصروا منهم زمن نشأة علم الكلام ، وابتلوا بمناقشة علماء الكلام وجدالهم بأسلوبهم : اضطروا للخوض في هذا الأمر ، فقسموا الصفات الالهية الى قسمين : صفات ذاتية وصفات فعلية .

فالصفات الذاتية : " هي التي لا تنفك عن الله سبحانه وتعالى ، وهي العلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والوجه واليد والرجل والملك والعظمة والكبرياء والعزة والعلو والأصبع والقدم والغنى والرحمة والكلام " .

والصفات الفعلية : فهي " التي تتعلق بالمشيئة والقدرة ، وهي الاستواء والنزول والمجيء والضحك والرضا والعجب والسخط والاتيان والاحياء والاماتة والفرح والغضب والكره والحب " .(٢)

---

(١) الخطط للمقريزي (٢/٣٥٦) .

(٢) الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية (ص ٤٨ — ٤٩) ، الكواشف الجلية عن معاني الواسطية (ص ٢٥٨) .

وأما مذهب المعتزلة فيمثلهم أبو الهذيل العلاف فى هذا العصر ، الذى قسم الصفات الى قسمين : صفات ذات وصفات فعل .

وصفات الذات عنده : هى التى لا يجوز أن يوصف البارى بأضدادها ، ولا بالقدرة على أضدادها ، كقولنا : " الله عالم " ، فان هذا الوصف لا يصح أن يتصف البارى سبحانه بضده ، ولا بالقدرة على ضده ، وهو الجهل ، كقولنا : " الله قادر " ، و " الله حى " . . . الخ ، وكذا باقى الصفات الذاتية : لا يتصف الله تعالى بأضدادها ، ولا بالقدرة على أضدادها ، كالعجز والموت . . . الخ ، وهى نفس الذات ، ولذلك سميت بالصفات الذاتية ، وهى ليست أمرا زائدا على الذات . (١)

وصفات الأفعال : فهى التى يجوز أن يوصف البارى تعالى بأضدادها وبالقدرة على أضدادها ، كالارادة ، فانه يصح أن يوصف الله سبحانه بضدها ، وهى الكراهة ، وأن يوصف بالقدرة على أن يكره ، وكذلك الحب والرضى ، يصح أن يوصف بضدهما ، كما يصح أن يوصف بالقدرة على ضدهما ، وهما البغض والسخط . (٢)

---

(١) مقالات الاسلاميين للأشعرى (ص ١٦٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦) ، تاريخ الفرق الاسلامية : د / على الغرابى (ص ١٥٨) وما بعدها .

(٢) مقالات الاسلاميين ، الصفحات نفسها ، الملل والنحل (١ / ٤٩ – ٥٠) ، تاريخ الفرق الاسلامية ، الصفحات نفسها .

وصفات الأفعال عند أبى الهذيل العلاف ومن وافقه منهم متجددة بتجدد الأفعال التى يتصف بها سبحانه ، ولا توصف بالقدم ، لأنها تحدث بحدوث متعلقها ، فهى عنده حادثة ، وليس لها محل تقوم به ، لأنها حادثة ، وقيام الحادث بذاته باطل .(١)

وأما علاقة الصفات بالذات عند المعتزلة ــ فكما سبق القول ــ أنهم لا يثبتون وجودا حقيقيا للصفات ، زائدا على الذات ، فهى عين الذات ، وليست شيئا آخر سوى الذات .

ومما يذكر أن أبا على الجبائى يتابع أبا الهذيل العلاف فى هذا التقسيم للصفات الالهية ، وان اختلفا فى معنى قيام الصفات بالذات الالهية وفى تعلقاتها .(٢)

ويقسم الأشاعرة الصفات الى أربعة أقسام : نفسية وسلبية ومعانى ومعنوية .

١ ــ فالصفة النفسية : " يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها ، كالوجود "،(٣) أو بعبارة أخرى : صفة النفس هى : " كل صفة لا يصح توهم انتفائها مع بقاء النفس " .(٤)

٢ ــ والصفة السلبية : " هى التى تسلب عن الله عز وجل ما لا يليق بجلاله وعظمته "،(٥) أو بعبارة أخرى : " وهى كل صفة مدلولها عدم أمر لا يليق به تعالى . . وهى خمسة : القدم والبقاء وقيامه بذاته ووحدانية ومخالفته للحوادث " .(٦)

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ١٦٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦) ، الملل والنحل (١ / ٤٩ ــ ٥٠) تاريخ الفرق الاسلامية (ص ١٥٨ وما بعدها) .

(٢) تاريخ الفرق الاسلامية (ص ٢٢٦ ــ ٢٢٨) .

(٣) شرح جوهرة التوحيد (ص ٥٤) .

(٤) الشامل للجوينى (ص ٣٠٨) ، هذا التعريف نسبه الجوينى الى الاسفراينى .

(٥) حاشية الدسوقى على أم البراهين (ص ٩٣) .

(٦) شرح جوهرة التوحيد (ص ٥٤) .

وهى نسبة للسلب ، أى النفى ، وانما نسبت للسلب : لأنها مفسرة بـــه ، فالقدم سلب أولية الوجود ، والبقاء سلب آخرية الوجود ، والوحدانية سلب التعدد فى الذات والصفات والأفعال ، والمخالفة للحوادث سلب المماثلة لها ، والقيام بالنفس سلب الافتقار الى المحل والمخصص ، فليس المراد بكونها سلبية أنها مسلوبة عن الله تعالى ومنفية عنه عز وجل ، بل أن السلب مأخوذ فى معناها .(١)

٣ ــ صفات المعانى : " وهى : كل صفة قائمة بموصوف ، زائدة على الذات ، موجبة له حكما " .(٢)

وهى على ما ذهب اليه الأشاعرة ــ سبعة : القدرة والارادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام .

وانما سميت بذلك : لأن كل صفة منها تدل على معنى زائد على ذاته تعالى ، وتسمى أيضا بالصفات الذاتية ، لأنها لا تنفك عن الذات ، وتسمى الوجودية ، لأنها محققة باعتبار نفسها .

٤ ــ والصفات المعنوية : وهى صفات لا موجودة ولا معدومة فى نفسها ، قائمة بموجود ، لازمة لصفات المعانى ، ككونه تعالى قادرا لقيام القدرة به ، وعالما لقيام العلم به . . . الخ .

وقد عرفت بأنها " الحال الواجبة للذات مادامت المعانى قائمة بالذات ".(٣)

وعللوا تسمية هذه الصفات بهذا الاسم بأن الاتصاف بها فرع عن الاتصاف بالسبع الأولى ، فصارت السبع الأولى وهى صفات المعانى عللا لهذه الصفات ، أى ملزومة لها ، فلهذا نسبت هذه الصفات الى تلك ، فقيل فيها : صفات معنوية .(٤)

---

(١) حاشية الدسوقى على أم البراهين (ص ٩٣، ٩٥ ، ٩٦) .

(٢) حاشية الصاوى على شرح الخريدة البهية (ص ٦٧) ، شرح جوهرة التوحيد (ص ٥٤) .

(٣) حاشية الصاوى (ص ٥٣) .

(٤) شرح أم البراهين للسنوسى (ص ٣٢ ــ ٣٣) ، حاشية الدسوقى (ص ١١٨) ، شرح جوهرة التوحيد (ص ٥٤) .

ومما ينبغى التنبه له : أن اعتبار الصفات المعنوية من أقسام الصفات الذاتية القائمة به تعالى : انما هو على مذهب من نسب اليهم اثبات الأحوال من متأخرى المتكلمين ، وأما الذين ينكرون الأحوال منهم فانهم لا يعدون الصفات المعنوية من أقسام الصفات القائمة به ، الزائدة على الذات ، فانهم ينكرون شيئا يسمى حالاً ليس بموجود ولا معدوم .

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية مذاهب الناس فى الأحوال مختصرا ، فقال : " قد تنازع فيها مثبتو الصفات ونفاتها ، فأبو هاشم وأتباعه يثبتون الأحوال دون الصفات ، والقاضى أبو بكر وأتباعه يثبتون الأحوال والصفات ، وأكثر الجهمية والمعتزلة ينفون الأحوال والصفات ، وأما جماهير أهل السنة فيثبتون الصفات دون الأحوال " . (١)

وتنقسم الصفات عند الأشاعرة الى صفات عقلية وصفات خبرية أيضا ، وهذا باعتبار الطريق الدال على ثبوتها لله تعالى .

أ ـ فالصفات العقلية : هى ما يمكن للعقل أن يستقل باثباتها لله تعالى ، حتى ولو لم يرد الشرع بثبوتها ، كالعلم والحياة ونحو ذلك .

ب ـ والصفات الخبرية : وهى التى طريق ثبوتها الخبر ، فقبل ورودها ليس لنا دليل على ثبوتها لله تعالى ، وذلك كالوجه واليدين والعينين والاستواء ونحو ذلك . (٢)

واذا أردنا أن نقف على رأى ابن كلاب بعد هذا العرض لتقسيم الصفات فاننا واجدوه أنه يجعل الصفات قسمين : صفات ذاتية وصفات فعلية ، فهو يذكر الصفات كلها بألفاظها الواردة فى الكتاب والسنة ، ويثبتها جميعا لله عز وجل ، (٣)

---

(١) شرح حديث النزول لابن تيمية (ص ١٦) .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقى (ص ١٣٧ ـ ١٣٨) .

(٣) أنظر مقالات الاسلاميين (ص ١٧٠ ، ٥٤٦) .

وبذلك يوافق السلف الصالح الذين يثبتون لله تعالى جميع صفات الكمال ونعوت الجلال .

الا أنه يخالف السلف فى القول بأزلية الصفات ، حيث اعتبر جميع هذه الصفات التى أثبتها لله عز وجل من صفات الذات ، وقال بأزليتها ، دون تفريق فى ذلك بين صفات الذات وصفات الأفعال .

بينما لم يقل السلف للصفات كلها بأنها أزلية قديمة ، بل الصفات عندهم : منها ما هو لازم للذات أزلا وأبدا ، ومنها ما هو قديم الجنس حادث الآحاد ، تحدث آحادها فى ذاته تعالى .

وهنا يختلف رأى ابن كلاب عن رأى السلف ، فلم يكن معهم حيث لم يثبت الصفات الاختيارية التى تكون بمشيئته الله تعالى وقدرته ، كما أثبتوها .

وسيأتى مزيد بيان لهذا الموضوع فى الفصل التالى ان شاء الله تعالى .

المبحث الثاني

علاقة الصفات بالذات عند ابن كلاب
في ضوء عقيدة السلف

١ — مذهب ابن كلاب في زيادة الصفات على الذات .

٢ — الصفات قائمة بالذات عند ابن كلاب .

٣ — رأى ابن كلاب في قدم الصفات .

أثبت عبد الله بن كلاب لله تعالى الصفات الالهية ، ولكن ما علاقة هذه الصفات بالذات العلية ؟ وكيف يبين ابن كلاب الصلة التى يراها بين الذات والصفات ؟ .

فى هذا البحث سنحاول أن نقف على رأى ابن كلاب فى ذلك .

١ - مذهب ابن كلاب فى زيادة الصفات على الذات :

سبق أن ذكرنا عن المعتزلة نفيهم للصفات ، مع أنهم حينما يذكرونها ويتحدثون عنها يتحدثون على أساس أنهم مثبتون للصفات ، ولا يعترفون لنا بما نتهمهم به ، مع أنه صريح مذهبهم انهم نفاة ، لأنهم يثبتون الصفات ألفاظا ، لا حقائق لها وراء الذات ، فالصفة عندهم - كما سبق ذكره - هى عين الذات ، ليست زائدة على الذات .

وقد عارض ابن كلاب مذهب المعتزلة هذا بمذهب كلامى يوافق مذهب السلف ، اذ قال : " ان أسماء الله تعالى وصفاته لذاته " ، " وأنها قائمة به " ، " وأن صفاته لا هى هو ولا غيره " .(١)

من هذه المقولات يتضح أن رأى ابن كلاب فى ذلك هو : أن الصفات زائدة على الذات ، على العكس من رأى المعتزلة ، لأنها قائمة بالذات ، وليست مباينة لها .

يقول ابن كلاب فى موضع آخر : " ان الله لم يزل عالما قادرا حيا ... بعلم وقدرة وحياة ... " ، ويقول أيضا : " معنى أن الله عالم أن له علما ، ومعنى أنه قادر أن له قدرة ، ومعنى أنه حى أن له حياة ، وكذلك القول فى سائر الأسماء والصفات " .(٢)

---

(١) مقالات الاسلاميين للأشعرى (ص ١٦٩ ، ٥٤٦) ، أصول الدين للبزدوى (ص ٨٩ ، ٢٤٦) .

(٢) المصدران نفسهما ، الصفحات نفسها .

وهكذا يرى ابن كلاب أن الصفات زائدة على الذات ، وهو بهذا متفق مع السلف في الرد على الجهمية والمعتزلة في نفيهم للصفات بحجة أنها عين الذات .

وقد رد عليهم شيخ الاسلام ابن تيمية : " بأن الذات لا تنفك عن الصفات أصلا ، ولا يمكن وجود ذات خالية عن الصفات ، فدعوى المدعى وجود حي عليم قدير بصير ، بلا حياة ولا علم ولا قدرة ، كدعوى قدرة وعلم وحياة ، لا يكون الموصوف بها حيا عالما قديرا ، بل دعوى شيء موجود قائم بنفسه قديم أو محدث عري عن جميع الصفات ممتنع في صريح العقل " (١) .

واذا كان ابن كلاب قد قرر أن الصفات زائدة على الذات ، فهل معنى هذا أن لها وجودا مستقلا عن الذات ، أي أنها قائمة بنفسها ؟

لقد ذهب عبد الله بن سعيد في ذلك الى أن الله تعالى ذات واحدة قديمة ، لها صفات ، وهذه الصفات قائمة بذاته ، وليست مستقلة عنه ، مباينة له .

يقول ابن كلاب : " ان الله قديم لم يزل بأسمائه وصفاته " (٢) ، ويقول : " الله تعالى واحد بصفاته " (٣) .

ويتفق بذلك هنا رأى ابن كلاب ورأى الامام أحمد بن حنبل ، حيث قال الامام أحمد حينما رد على الجهمية : " قالت الجهمية لما وصفنا الله بهذه الصفات : ان زعمتم أن الله ونوره ، والله وقدرته ، والله وعظمته ، فقد قلتم بقول النصارى حين زعمتم أن الله لم يزل ونوره ، ولم يزل وقدرته .

قلنا : لا نقول : ان الله لم يزل ونوره ، ولم يزل وقدرته ، ولكن نقول : لم يزل الله بقدرته ، ونوره ، لا متى قدر ، ولا كيف قدر .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/٣٣٦) .

(٢) مقالات الاسلاميين (ص ١٦٩ ، ٥٤٦) .

(٣) الشامل للجويني (ص ٣٥٠) .

فقالوا : لا تكونون موحدين أبدا حتى تقولوا : كان الله ولا شيئ ، فقلنا : نحن نقول : قد كان الله ولا شيئ ، ولكن اذا قلنا : لم يزل الله بصفاته كلها : أليس انما نصف إلهاً واحداً بجميع صفاته . . . " (١).

إن ابن كلاب دفعا لتعدد القدماء بتعدد الصفات قال ان الله واحد بصفاته ، وامتنع عن اطلاق لفظ التعدد على الصفات .

وهذا ما يرويه عنه الجوينى بقوله : " فقد روى عن عبد الله بن سعيد أنه قال : الله تعالى واحد بصفاته ، وامتنع عن اطلاق القول بأن الصفات معدودة " (٢).

كأن ابن كلاب أراد بذلك أن يدفع شبهة المعتزلة القائلة بتعدد القدماء فى ذات الله تعالى ، أو أنه خاف من أن يقع فيما وقع فيه النصارى من تعدد للقدماء فقرر أن الله عز وجل واحد فى ألوهيته ، مع ثبوت صفاته وأسمائه له ، وأن اتصافه له تعالى بها لا يضاد وحدانيته ، لأن الصفات ليست أشياء قديمة مستقلة أو منفصلة عن ذات الله تعالى ، بل هى صفات ذاته تعالى ، وقائمة به .

وقد حاول أبو اسحاق الاسفراينى حمل كلام ابن كلاب على عدم تعدد إلهيته بكثرة صفاته كما تدعى المعتزلة ، فقال :

" لم يرد عبد الله اتحاد وجود الذات والصفات ، فان ذلك لا يستقيم الا على أصلين ، أحدهما : نفى الصفات ، كما صار اليه المعتزلة ، والثانى : اثبات الصفات والذات مع المصير الى اتحادها بالوجود ، وهذا نص مذهب النصارى فى الأب والابن والروح ، وانما أراد أحد معنيين : بأن الله تعالى واحد فى الالهيات ، ولا تتعدد الهيته بثبوت الصفات ، فالاله واحد ، وهو موصوف بصفات الالهية ، فهو أحد وجهى كلامه ، ويجوز حمل كلامه على الامتناع من لفظ العدد " (٣).

---

(١) ابن تيمية السلفى للهراس (ص ٩٣ — ٩٤) .

(٢) الشامل للجوينى (ص ٣٥٠) .

(٣) نفس المصدر (ص ٣٥٠ — ٣٥١) .

كما امتنع عبد الله بن كلاب عن هذا : امتنع أيضا عن القول بأن الصفات هي " موجودات "، ونص على هذا في كتبه المفقودة التي ألفها في مسائل العقيدة، وذلك تحاشيا من الوقوع فيما وقع فيه المشبهة من التشبيه ، لأن كلمة " الموجودات " تطلق غالبا على المخلوقات ، فاذا أطلقت على صفات الله تعالى فان هذا يمكن أن يوهم التشابه والمشابهة بين الله ومخلوقاته ، أو بين صفات الله تعالى وصفات مخلوقاته ، والله عز وجل منزه عن التشبيه والمشابهة ، لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وهذا ما يرويه لنا الجويني أيضا بقوله : " والذي يوضح ذلك : أنه نص في كتبه في غير موضع على : أن الصفات ليست موجودات ، فلا يظن به اتحاد وجود الذات والصفات " . (١)

والقول بزيادة الصفات على الذات المجردة عن الصفات هو قول السلف .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " ويمتنع حي لا حياة له ، وعليم لا علم له ، وقدير لا قدرة له ، كما يمتنع ذلك في نظائره ، واذا قال القائل صفاته زائدة على ذاته ، فالمراد أنها زائدة على ما أثبته النفاة ، لا أن في الامر ذاتا مجردة عن الصفات ، وصفات زائدة عليها فان هذا باطل " . (٢)

لأن اثبات ذات بدون صفات أمر لا وجود له الا في الاذهان وليس له وجود في الخارج ، فان الذهن قد يفرض المحال ويتخيله ، لأنه لا يمكن وجود شيء قائم بنفسه في الخارج لا يتصف بصفة ثبوتية أصلا ، ففرض ذات بدون صفات فرض ممتنع . (٣)

ويقول ابن القيم رحمه الله مقررا أنه لابد من اثبات صفات الكمال لله تعالى ، وأنها معاني زائدة على الذات : " أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله ،

---

(١) الشامل للجويني (ص ٣٥١).
(٢) منهاج السنة (١/١٧٨) ، طبعة دار الكتب العلمية .
(٣) مجموعة الرسائل والمسائل (جـ ٤ — ٥ / ص ٢٠٨) .

فهى مشتقة من الصفات ، فهى أسماء ، وهى أوصاف ، وبذلك كانت حسنى . . . ، ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها ".(١)

ويقول شارح الطحاوية : " ليس فى الخارج ذات مجردة عن الصفات ، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها ، وانما يفرض الذهن ذاتا وصفة ، كلا وحده ، ولكن ليس فى الخارج ذات غير موصوفة ، فان هذا محال ، ولو لم يكن الا صفة الوجود ، فانها لا تنفك عن الموجود ، وان كان الذهن يفرض ذاتا ووجودا يتصور هذا وحده ، وهذا وحده ، لكن لا ينفك احدهما عن الآخر فى الخارج ".(٢)

فجمهور العلماء اذن يرون أن اثبات ذات مجردة عن الصفات لا يتصور لها وجود فى الخارج ، وان كان الذهن قد يفرض المحال ويتخيله ، وهذا كما يقول السلف غاية التعطيل .

ولهذا قال شيخ الاسلام ابن تيمية : " كان السلف والائمة يسمون نفاة الصفات معطلة ، لأن حقيقة قولهم تعطيل ذات الاله وان كانوا هم لا يعلمون أن قولهم مستلزم للتعطيل ، بل يصفونه بالوصفين المتناقضين فيقولون هو موجود ليس بموجود ، قديم ، واجب ثم ينفون لوازم وجوده فيكون حقيقة قولهم موجود ليس بموجود حق ليس بحق ، خالق ليس بخالق ، فينفون عنه النقيضين ".(٣)

ويقول ابن تيمية فى موضع آخر : " واسم الرب تعالى اذا أطلق يتناول الذات المقدسة بما تستحقه من صفات الكمال ، فيمتنع وجود الذات عرية عن صفات الكمال . . . وهذه الصفات ليست زائدة على هذا المسمى ، بل هى داخلة فى المسمى ، ولكنها زائدة على الذات المجردة التى تثبتها نفاة الصفات ، فأولئك

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم (١/ ٢٨) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٢٩ — ١٣٠) .

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٢٦ — ٣٢٧) .

ـ أى نفاة الصفات ـ لما زعموا أنه ذات مجردة قال هؤلاء ـ أى مثبتة الصفات ـ بل الصفات زائدة على ما أثبتموه من الذات ، وأما فى نفس الامر ، فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها ، بل الرب تعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال " . (١)

يتبين لنا مما سبق أن السلف يثبتون الصفات زائدة على الذات المجردة عن الصفات ، لا على الذات المتصفة بالصفات ، فاذا كان فى معرض الرد على نفاة الصفات نقول الصفات زائدة على الذات ، أما فى نفس الامر فليس هناك ذات مجردة تكون الصفات زائدة عليها .

فان أريد بالذات الذات الموجودة فى الخارج فتلك لا تكون موجودة الا بصفاتها اللازمة.

وفى الحقيقة أن وضوح الأدلة الشرعية فى اثبات الصفات لله تعالى اثباتا زائدا على مفهوم الذات لم يكن يستدعى مثل هذا البحث ، لأن ذلك من الأمور العقلية المسلمة .

وابن كلاب وان رد على نفاة الصفات الذين جعلوها عين الذات بالقول بزيادتها على الذات ، الا أنه لا يقول بالتمييز بين الذات والصفة ، وانما غرضه أن يبين عدم صحة وجود ذات بدون صفات ، كما اتضح مما ذكرت آنفا ، والذى هو ما ارتضاه السلف .

ولذلك يبين ابن كلاب الصلة التى يراها بين الذات والصفات ، ويقول بأن صفاته تعالى ليست هى الذات ، وليست شيئا غير الذات .

---

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية (٢/ ١٥٧ ـ ١٥٨) .

وعبر عن ذلك بقوله : " ان أسماء البارئ لا هي البارئ ولا غيره ، وأن صفاته لا هي هو ولا غيره " . (١)

وقد وضح الدكتور النشار قول ابن كلاب من جهتين ، احداهما : نفي العينية ، لكيلا تتعطل الصفة ، لأن القول بتعطيل الصفات هو قول النفاة من الجهمية والمعتزلة ، وثانيهما : عدم الغيرية ، لنفي تعدد القدماء في ذات الله تعالى ، فحاول ابن كلاب بذلك التوسط بين المعطلة والمشبهة .

يقول النشار : " فهنا تفريق تام بين الذات والصفات ، الذات موجودة بوجودها الخاص ، وتستمد الوجود من ذاتها ، وهي شيء ، لا بمعنى أن هناك من يمدها بالشيئية ، بل شيئيتها من ذاتها ، ولا يتعلق وجود الذات أو شيئيتها بوجود الصفة ومتعلقات الصفات ، فعلة وجود الله هي ذاته ، لا بعلة خارجة عنه ، ولا بعلة قائمة فيه ، والصفات قائمة به ، ولكنها ليست هو ، والا تعطلت الصفة ، وليست غيره ـ كما يذهب جهم ـ ، والا تعدد القديم ، فالصفات اذن متعلقاته هو ، وليس هو من متعلقاتها ، ثم ان الصفات لا تقوم بالصفات ، ولكنها تقوم بالله ، فالله اذن ليس بصفة " . (٢)

ولكن الدكتور النشار لم يكن موفقا في قوله : " تفريق تام بين الذات والصفات" ، لأن هذا التعبير لم يرد عن ابن كلاب ، كما أنه لم يرد عن أحد من السلف ، وهذا يناقض قول ابن كلاب بأن الصفات ليست غيره ، لأن هذه العبارة الأخيرة تمنع أن يكون ابن كلاب ممن يفرقون بين الذات والصفات ، في حين أن قول النشار (تفريق تام) ليس له معنى الا أن الصفات غير الذات .

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ١٦٩ ، ٥٤٦) ، أصول الدين للبزدوي (ص ٢٤٦).

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام : للنشار (ص ٢٧٠).

وقد رفض شيخ الاسلام ابن تيمية نسبة القول بنفى العينية والغيرية الى ابن كلاب ، وذكر فى غير موضع من مؤلفاته أن ابن كلاب يختلف فى ذلك مع المتكلمين الآخرين ، ويتفق مع السلف ، حيث يقول كما قال علماء السلف مثل الامام أحمد وغيره : أن صفات الله تعالى : لا يقال هى الله ، ولا يقال هى غيره .

يقول ابن تيمية فى أحد المواضع : " قال عبد العزيز – أى المكى – للمريسى : لأن القدرة صفة الله ، ولا يقال لصفة الله هى الله ، ولا يقال انها غير الله ، ولم يقل عبد العزيز : انها ليست هى الله ولا غيره ، بل قال لا يقال انها هى الله ، ولا يقال انها غيره ، وقول عبد العزيز هذا هو قول أئمة السنة كالامام أحمد وغيره ، وهو قول ابن كلاب وغيره من الأعيان " (١) .

وقال فى موضع آخر : " الجواب الثالث – على النفاة الجهمية – جواب الأئمة كالامام أحمد وحذاق الكلابية : لا نطلق القول بأنه غيره ، ولا بأنه ليس غيره " (٢) .

وقال أيضا : " فقد تقدّم أن هذا الاطلاق كاطلاق المطلق : أن الصفات لا هى الذات ، ولا هى غيرها ، . . . وأئمة السلف وابن كلاب وأمثاله من أئمة الأشعرية : لا يطلقون لا هذا ولا هذا " (٣) .

اذن فابن كلاب فى نظر ابن تيمية لا يقول بأن الصفات غير الذات أو ليست غيره .

ولأصحاب ابن كلاب فى هذه المسألة آراء متعددة .

يقول الأشعرى : " وقال بعض أصحابه : لا يقال للصفات هى الموصوف ، ولا يقال هى غيره ، وامتنعوا من أن يقولوا : ان الصفات لا هى الموصوف ولا هى غيره " (٤) ، وهذا هو قول السلف فى هذه المسألة .

---

(١) درء تعارض (٢/٢٧٠) .

(٢) المصدر نفسه (٣/١٦) .

(٣) المصدر نفسه (١٠/٢٣٥) .

(٤) مقالات الاسلاميين (ص ١٧٠ ، ١٧٢ ، ٥٤٦) .

وقال فريق منهم : " ليست الصفات هى الموصوف ولا غيره " ،

وقال فريق آخر : " ان البارى سبحانه ليس بغير صفاته ، وصفاته متغايرة ".(١)

ويتضح لنا من ذلك : أن أصحاب ابن كلاب قد انقسموا فى هذا الموضوع الى أقسام ، فمنهم من قال برأى السلف واتفق معهم ، ومنهم من ذهب الى خلاف ذلك وقال بالعينية والغيرية ، وقسم ثالث منهم قال برأى آخر وهو أن البارئ ليس بغير صفاته ، وصفاته متغايرة . . . الخ .

وعلى كل حال : فان القول بأن الصفات لا هى الذات ولا غيره ـ سواء قال به ابن كلاب أو بعض من أصحابه ـ ليس من مذهب السلف ، لأن السلف لا يقولون : ان الصفات لا هى هو ولا هى غيره ، لأنه لا يجوز فى مسألة الصفات أن نستعمل الالفاظ التى لم يرد لها فى الكتاب والسنة اثباتا ولا نفيا .

لهذا يقول ابن تيمية : " فانا لا نطلق على صفاته أنها غيره ولا أنها ليست غيره على ما هو عليه أئمة السلف كالامام أحمد بن حنبل وغيره وهو اختيار حذاق المثبتة كابن كلاب وغيره ، ومنهم من يقول أنا لا أطلق عليها أنها ليست هى هو ولا أطلق عليها أنها ليست غيره ولا أجمع بين السلبين فأقول لا هى هو ولا هى غيره ".(٢)

لأن لفظ الغير فيه اجمال ، لذا فقد حذر السلف من اطلاقه على صفات الله تعالى ، لأنه من الالفاظ المجملة المبتدعة التى لم يرد لها نص من الكتاب أو السنة .

لهذا كان الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه وغيره من سلف هذه الأمة ، لا يطلقون لفظ الغير على صفات الله تعالى ، لأن لفظ الغير يحتمل هذا وهذا ، فكانوا لا يقولون صفات الله تعالى غيره ولا انها ليست غيره ، فلا يقولون كلام الله غير الله ، ولا يقولون ليس غير الله .

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ١٧٠ ، ١٧٢ ، ٥٤٦) .

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل (٤/٢٠٦) .

وقد بين شيخ الاسلام ابن تيمية أن للأئمة فى لفظ المغايرة ثلاث طرق :

" أحدها : وهى طريقة الأئمة كالامام أحمد وغيره ، وأظنها قول ابن كلاب وغيره ، وقد ذكر أبو اسحاق الاسفراييني أنهم لا يقولون عن الصفة أنها الموصوف ، ولا يقولون أنها غيره ، ولا يقولون ليست هى الموصوف ولا غيره ، لأن لفظ الغير مجمل ، فلا ينفونه عند الاطلاق ولا يثبتونه " . (١)

وقال فى موضع آخر : " ومنهم من يقول كما قالت الأئمة لا نقول الصفة هى الموصوف ولا نقول هى غيره ، لأنا لا نقول : لا هى هو ، ولا هى غيره ، فان لفظ الغير فيه اجمال ، قد يراد به المباين للشيء ، أو ما قارن أحدهما الآخر وما قاربه بوجود أو زمان أو مكان ، ويراد بالغيران : ماجاز العلم بأحدهما مع عدم العلم بالآخر " . (٢)

وقال شارح الطحاوية : " ولهذا كان أئمة السنة رحمهم الله تعالى لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيره ، ولا أنه ليس غيره ، لأن اطلاق الاثبات قد يشعر أنه مباين له ، واطلاق النفى قد يشعر بأنه هو هو ، اذ كان لفظ الغير فيه اجمال ، فلا يطلق الا مع البيان والتفصيل " . (٣)

والطريقة الثانية : وهى قول أبى الحسن الأشعرى الذى قال : أقول مفرقا ان الصفة ليست هى الموصوف ، وأقول : انها ليست غير الموصوف ، لكن لا أجمع بين السلبين ، فأقول ليست الموصوف ولا غيره .

والطريقة الثالثة : قول من يجمع بين السلبين ، كما هى طريقة ابن الباقلانى والقاضى أبى يعلى وغيرهما ، فيقول ليست هى الموصوف ولا غيره .

وهؤلاء قد يطلقون القول باثبات قديمين : أحدهما الصفة ، والآخر الموصوف ، واذا احتج عليهم المعتزلة بأنه اذا كانت صفاته قديمة وجب اثبات قديمين ، ولو كان علمه قديما لكان إلهًا ، أجابوهم بأن كونهما قديمين لا يوجب تماثلهما كالسواد والبياض اشتركا فى كونهما مخالفين للجوهر ، ومع هذا لا يجب تماثلهما ، وأنه ليس معنى القديم معنى الاله . (٤)

---

(١) درء التعارض لابن تيمية (٥/٤٩) .
(٢) مجموع الفتاوى (٣/٣٣٦) .
(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز (ص ١٢٩) .
(٤) انظر درء التعارض لابن تيمية (٥/٤٩-٥٠) ، (١٠/٧٠-٧١) ، وانظر ايضا : مجموعة الرسائل والمسائل (٤/٢٠٦) ، والتمهيد للباقلانى (ص ٢٤٦) .

ويعقب ابن تيمية على ذلك بقوله : " فامتنع السلف والأئمة من اطلاق لفظ الغير على الصفة نفيا أو اثباتا ، لما فى ذلك من الاجمال والتلبيس ، حيث صار الجهمى يقول : القرآن هو الله أو غير الله ، فتارة يعارضونه بعلمه ، فيقولون علم الله هو الله أو غيره ، ان كان ممن يثبت العلم أو لا يمكنه نفيه .

وتارة يحلون الشبهة ويثبتون خطأ الاطلاقين : النفى والاثبات لما فيه من التلبيس ، بل يستفصل السائل ، فيقال له : ان أردت بالغير ما يباين الموصوف فالصفة لا تباينه ، فليست غيره ، وان أردت بالغير ما يمكن فهم الموصوف على سبيل الاجمال ، وان لم يكن هو فهو غيره بهذا الاعتبار " .(١)

لهذا كان الذى عليه السلف والأئمة اذا قيل لهم علم الله أو كلام الله هل هو غير الله أم لا ؟ لم يطلقوا النفى ولا الاثبات ، فانه اذا قيل لهم غيره أوهم أنه مباين له ، واذا قيل ليس غيره أوهم انه هو لذلك يستفصل السائل ، فان أراد بقوله غيره انه منفصل عنه : فصفات الموصوف لا تكون مباينة له أو منفصلة عنه ، وان أراد بالغير أنها ليست هى هو فليست الصفة هى الموصوف ، فهى غيره بهذا الاعتبار " .(٢)

والخلاصة أن القول بأن الصفات لا هى هو ولا هى غيره مخالف لمذهب السلف ، ولم يعتمد القائلون به على منهج السلف الذى لا يقول فى صفات الله تعالى الا بما جاء فى الكتاب والسنة ، ولا يستعمل مثل هذه الألفاظ المجملة المبتدعة من الغيرية والعينية والجسمية ... الخ .

٢ ـ الصفات قائمة بالذات عند ابن كلاب :

ان هذه الصفات كلها قائمة بذاته تعالى ، ولا يجوز أن يقوم شيء منها بغير ذاته ، وقد خالف ابن كلاب بذلك المعتزلة القائلين فى بعض صفاته تعالى : أنها تقوم بغيره سبحانه .

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٣٦/٣) .

(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية (١٥٧/٢) .

ويعبر عن ذلك ابن كلاب بقوله : " ان أسماء الله تعالى وصفاته لذاته"(١)، ويعنى بذلك : أن جميع أسماء الله تعالى وصفاته ترجع الى ذاته ، " وأنها قائمة به"(٢) ، أى أنها معان قائمة بذاته سبحانه ، والذات العلية قائمة بنفسها .

وبذلك لا يجوز عبد الله بن سعيد قيام الصفات بالصفات ، ولا يقول بوصف الصفات بالصفات ،(٣) بل الصفات قائمة بالذات فقط ، وأن وجودها متعلق بوجود الذات .

ومع عدم انفكاك الصفة عن الذات الموصوفة بها ، وعدم جواز خلوها عنها فالله حى بحياة ، وعالم بعلم ، وقادر بقدرة ، ومريد بارداة ، لذلك تمتنع مفارقتها بوجه ما عن الذات الالهية ، كما يمتنع القول بأنها هى الذات .

وذهب كذلك ابن كلاب الى أن كل واحدة من الصفات غير الأخرى ،لاختلاف ذواتها وحقائقها ، فحقيقة كل منها غير حقيقية الأخرى ، فصفة العلم — مثلا — غير صفة القدرة فى حقيقتهما وذواتهما .(٤)

كما أنها ليست بغيرها ، من خلال أحكامها ، وهى مثل تعلقها بالذات ، وقيامها بها ، وزيادتها عليها ... الخ .

يقول ابن كلاب : " ان صفات البارىء لا تتغاير ، كما أنها ليست بغيره ،وأن العلم لا هو القدرة ، ولا غيرها ، وكذلك كل صفة من صفات الذات ، لا هى الصفة الأخرى ولا غيرها ".(٥)

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ٥٤٦ ، ١٦٩) .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) غاية المرام فى علم الكلام للشهرستانى (ص ١٤٦ — ١٤٧) .

(٥) مقالات الاسلاميين (ص ١٧٠ ، ٥٤٦) .

اذن : كما رفض ابن كلاب أن يجعل الصفات عين الذات فانه يرفض أيضا أن يجعلها صفة واحدة ، فلا يكون الصفة عين الصفة الأخرى أو الصفات الأخرى ، ولكن مع ذلك لا يثبت التغاير بين الصفات ، كما هو مذهبه الذى ذكرناه من قبل .

هكذا يفسر ابن كلاب علاقة الصفات بعضها ببعض ، المذهب الذى يفسر به علاقة الصفات بالذات .

ومن ثم نقول : ان أقوال ابن كلاب فى هذه المسألة بما تضمنه من هذه العبارات الكلامية التى يصعب تصورها فى الذهن ، والتى توهم تناقضا : لم يؤثر عن غيره مما سبقه من السلف ، فان هذه الأقوال تتضمن مسائل كلامية جديدة فيها تأثر بالأسلوب العقلى البعيد عن السهولة واليسر والبساطة فى تقريرها .

ويرى علماء السلف أن صفات الله تعالى ليست قائمة بنفسها ، وانما هى قائمة بذاته سبحانه ، لأن الصفة لا تقوم الا بموصوف .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " فيمتنع أن تقوم هذه الصفات الا بموصوف قائم بنفسه ، ولا يجوز أن تقوم صفات الله بأنفسها ، بل بموصوف ، وكذلك صفات العباد لا يجوز أن تقوم بأنفسها ، بل بموصوف " .(١)

ويقول : " فان الكلام والقدرة والعلم وسائر الصفات انما يتصف بها من قامت به ، لا من خلقها فى غيره وأحدثها " .(٢)

ويقول : " وأيضا فالرسل الذين خاطبوا الناس ، وأخبروهم أن الله تعالى قال ونادى وناجى ويقول لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه ، بل الذى أفهموهم اياه أن الله نفسه هو الذى يتكلم ، والكلام قائم به ، ولا بغيره " .(٣)

---

(١) منهاج السنة (٢/٤٧٩) ، طبعة مكتبة العروبة .

(٢) المصدر نفسه (٢/٢٩٠) ، نفس الطبعة .

(٣) المصدر نفسه (٢/٢٩١) ، العروبة .

وابن كلاب اذن يوافق السلف فى قولهم بأن الصفات قائمة بالذات ، وان اختلف معهم فى المنهج ، حيث استعمل بعض الألفاظ المستحدثة التى لم يستعملها السلف، مثل العينية والغيرية وغيرهما من الألفاظ الكلامية ، فمرجع ذلك الى طريقة المتكلمين القائمة على الجدل الفكرى والتعبيرات العقلية الجافة .

٣ ــ رأى ابن كلاب فى قدم الصفات :

سبق أن ذكرت أن ابن كلاب يثبت الأسماء والصفات لله عز وجل ، ولا يؤدى ذلك عنده الى اثبات قديم مع الله سبحانه .

فانه يثبت القدم لذاته عز وجل ، ويجعل الصفات تابعة لها ، ولكنه يتجنب اطلاق لفظ القدم على الصفات ، وقد عبر عن ذلك بقوله : " وانه سبحانه قديم لم يزل بأسمائه وصفاته " .(١)

فعبارة ابن كلاب تنسب القدم لذات الله تعالى ، وتضيف اليها صفاته وأسماءه عز وجل كما قلنا ، وذلك تحاشيا للقول بأن " لله تعالى أسماء وصفات (قديمة) الأمر الذى أدى الى نفى الصفات عند المعتزلة .

يقول الدكتور أحمد صبحى فى توضيح هذا القول : " أى لا يعنى قدم الصفات استقلالها عن الذات ، حتى لا يتعدد القدماء ، ولذا يقال : الله بصفاته قديم " .(٢)

اذن : تعبير ابن كلاب هنا من التعبيرات الكلامية التى حاول فيها أن يتحاشى الوقوع فيما وقعت فيه المعتزلة من نفى للصفات ، وفى نفس الوقت يتحاشى اثبات صفات كل منها قديم ، خوفا من تعدد القدماء فى ذاته تعالى .

قال فى ذلك البغدادى " امتنع ابن كلاب ، والقلانسى أيضا ، من وصف الصفات بالقدم " .(٣)

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ١٧٠ ، ٥٤٦) .

(٢) فى علم الكلام : د / أحمد صبحى (٢/٢٩) .

(٣) أصول الدين للبغدادى (ص ٩٠) .

وحكى امام الحرمين الجويني هذه المسألة عن ابن كلاب بقوله : " فان قال قائل : قد ذهب عبد الله بن سعيد الى أن صفات البارى سبحانه وتعالى لا توصف بالقدم ، ولا بالحدوث ، وهذا تصريح منه بأثبات موجود خارج عن وصف الحدوث والقدم ، قلنا : ما اعترض عبد الله على القسمة الى رمناها ، اذ مطلبنا أن الموجود له أول أولا أول له ، وعبد الله يقطع بأن صفات البارى لم تزل ولا أول لوجودها ، ولكنه امتنع من تسميتها قديمة ، اذ القدم عنده معنى قائم بالقديم ، كما أن البقاء معنى قائم بالباقى ، ولا توصف المعانى بالأحكام التى توجبها المعانى ، فاتضحت القسمة البديهية ، واستبان أن قول عبد الله غير قادح فيها " . (١)

وقد أوضح شيخ الاسلام ابن تيمية ما أراده ابن كلاب من أنه أثبت القدم معنى ، ولم يصف الصفات بالقدم ، فقال : " ان طائفة من المثبتة كابن كلاب لا تقول فى الصفات وحدها انها قديمة ، حتى لا تقول بتعدد القدماء ، لما منعت النفاة هذا الاطلاق ، بل تقول : الله بصفاته قديم " . (٢)

ومعنى هذا أن الصفات ليست أقانيم قائمة بذاتها ، بل هى قائمة بالله ، ولكنها ليست هى الله ، وهى ليست قديمة ، بل ان الله تعالى بصفاته هو القديم. (٣)

فقول ابن كلاب باتصاف الله سبحانه بالصفات فى الأزل ، وأنه لم يزل قديما بها : قول موافق لما ذهب اليه السلف ، اذ يرى السلف أن صفات الله تعالى أزلية ، وذلك لأنها ملازمة للذات ، وما دامت الذات أزلية فالصفات أزلية .

فقد ورد عن الامام أحمد بن حنبل أنه قال : " من قال أن الله عز وجل لم يكن موصوفا حتى وصفه الواصفون فهو بذلك خارج عن الدين " (٤) ، ومعنى هذا : أن من قال ان الله لم يكن موصوفا بصفاته الأزلية حتى وصفه الناس ، فهو بذلك خارج عن الدين ،

---

(١) الشامل للجوينى (ص ١٣٩ - ١٤٠) .
(٢) منهاج السنة (١ / ٢٣٥) ، طبعة دار الكتب العلمية .
(٣) نشأة الفكر الفلسفى للنشار (١ / ٢٧١) ، نشأة الاشعرية ، جلال محمد (ص ٤٤) .
(٤) اعتقاد الامام أحمد لأبى الفضل التميمى (٢ / ٢٩٣) ، ملحق طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ، والتميميون هم : أبو الحسن التميمى ، وابنه فضل الله وابن ابنه رزق الله ، من قدماء أصحاب أحمد ، لكنهم من متكلمة الحنابلة .

يقول ابن تيمية عنهم : (كان بين التميميين وبين الباقلانى وأمثاله من الائتلاف والتواصل ما هو معروف ، ولهذا توجد أقوال التميميين مقاربة لأقواله وأقوال أمثاله ...) درء تعارض العقل والنقل (٢ / ١٧ ، ١٠٠) ، ومجموع الفتاوى (٥ / ٥٧٦) .

ومع هذا فان هذه العبارة التى ذكرها التميميون عن الامام أحمد لا تخالف عقيدة السلف فى أن الله موصوف بصفات الكمال أزلا ، وسيأتى كلام شيخ الاسلام المؤيد هذا فى الصفحة التالية .

لأنه ادعى أن الله عز وجل كان ولا صفة له ، ويدل هذا النص على أن صفات الله تعالى قديمة .

وفى ذلك يقول شارح الطحاوية : " ان الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال ، صفات الذات وصفات الفعل ، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها ، لأن صفاته سبحانه صفات كمال ، وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده " .(١)

ويدل على ذلك قول شيخ الاسلام ابن تيمية الذى قاله للمعتزلة عندما ناقش حجتهم فى نفى الصفات ؛ " وان أردتم أن الصفة توصف بالقدم : فليس المراد أنها توصف به على سبيل الاستقلال ، فان الصفة لا تقوم بنفسها ، ولا تستقل بذاتها ، ولكنها تكون قديمة بقدم موصوفها ، فان الصفة لازمة للموصوف ، وتابعة له ، تكون قديمة بقدمه ، وباقية ببقائه ، لا أنها تكون قديمة بقدم خاص ، أو باقية ببقاء خاص " .(٢)

ومن ثم يبطل ابن تيمية رحمه الله حجة المعتزلة القائلة بنفى الصفات القديمة منعا لتعدد القدماء .

الا أن نقطة الخلاف بين ابن كلاب وبين السلف فى ذلك تكمن فى نفى ابن كلاب حدوث شيء من هذه الصفات ، ونفيه أن يقوم بالله تعالى ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها ، لأن الصفات أزلية بأزلية الذات الالهية عند ابن كلاب ، ولا يجوز أن يوصف شيء منها بالحدوث بحجة أننا اذا جوزنا حدوث شيء منها فقد جوزنا حلول الحوادث بذات الله تعالى ، والحوادث لا تحل الا بحادث مثلها .

لكن السلف يرون أنه لا مانع من قيام الحوادث بذاته تعالى ، بل يرى ابن تيمية أن ذلك ضرورى لا مناص منها لفهم كثير من النصوص التى تدل على حدوث آحاد تلك الصفات ، مثل الخلق والاماتة والاحياء والقبض والبسط والطى والاستواء والمجيء والنزول والغضب ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم .(٣)

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٢٧ — ١٢٨) .
(٢) منهاج السنة (١/٢٢٧) ، طبعة دار الكتب العلمية .
(٣) فى العقيدة الاسلامية ، د/ محمود خفاجى (ص ٣٤٧) .

ويرى ابن تيمية أن الصفات قديمة ، الا أن منها : ما هو قديم الجنس ، حادث الآحاد ، بمعنى أن الصفة قديمة ، ولكن تحدث في ذاته تعالى آحادها ، وذلك مثل العلم والسمع والبصر والكلام .(١)

وذكر شيخ الاسلام ابن تيمية أيضا أن القول بحلول الحوادث بذات الله تعالى هو : " مذهب أكثر أهل الحديث ، بل قول أئمة السنة والحديث ، وهو الذى نقلوه عن سلف الأمة وأئمتها ، وكثير من الفقهاء والصوفية ، أو أكثرهم ، وفيهم من الطوائف الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، من لا يحصى عدده الا الله " .(٢)

وهكذا اتضح لنا أن القول بجواز قيام الحوادث بذات الله تعالى ، بمعنى أنه يتكلم متى شاء ، ويفعل ما يريد ، هو رأى السلف الذى يؤيده الدليل الشرعى والعقلى .

وسنعود ان شاء الله تعالى الى هذا الموضوع مرة ثانية عندما نتحدث عن صفات الأفعال .

وبعد هذا ننتقل الى عرض مذهب ابن كلاب فى الصفات الذاتية .

---

(١) منهاج السنة (٢٩٦/٢) ، طبعة مكتبة العروبة .

(٢) بيان تلبيس الجهمية (٣٠٣/١ — ٣٠٤) .

المبحث الثالث

مذهب ابن كلاب في الصفات الذاتية

- رأى ابن كلاب فى الصفات الالهية بالاجمال .
- صفة الحياة .
- صفة العلم .
- صفتا السمع والبصر .
- صفة الارادة .

المبحث الثالث

مذهب ابن كلاب في الصفات الذاتية

تعرض ابن كلاب لبيان هذه الصفات ، وبين وجهة نظره فيها ، أما بالنسبة لتفصيل مذهبه في صفات الذات لله تعالى : فسأسجل آراء ابن كلاب فيها ، الا أنني سأفرد لصفة الكلام فصلا خاصا فيما بعد ، نظرا لأهميتها من ناحية ، وتعدد الأحكام التي تتعلق بها من ناحية أخرى ، ولأن مذهب ابن كلاب لا يتفق مع عقيدة السلف في صفة الكلام :

وأذكر فيما يلي رأي ابن كلاب في كل صفة من الصفات الذاتية بقدر ما ينقل عنه في كتب الفرق ، لأنه لم يصلنا من كتبه شيء في العقيدة ـ كما بينا ـ سوى آرائه المبثوثة في كتب الفرق .

رأى ابن كلاب فى الصفات بالاجمال

أثبت ابن كلاب أسماء الله تعالى وصفاته ـ كما سبق ـ ، وذهب الى أن الله عز وجل موصوف فى الأزل بكل ماوصف به نفسه ، ووصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم من صفات الذات وصفات الأفعال ، مما تتضمنه أسماؤه بالاشتقاق كالعلم والحياة والسمع والبصر والقدرة والارادة والحكمة والرحمة والعزة والعلو وغيرها ، وكذلك مما أخبر به سبحانه عن نفسه ، وأخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من أفعال وصفات ، لم يشتق منها أسماء كحبه للمؤمنين والمتقين ، ورضائه عنهم ، وكراهته انبعاث المنافقين ، وسخطه على الكافرين ، وغضبه عليهم ، واثبات وجهه ذى الجلال والاكرام ، ويديه ، وغير ذلك مما هو ثابت فى الكتاب والسنة والفطر السليمة .

وقد فصل ابن كلاب رأيه فيها ، وعدها واحدة واحدة ، ولم يميز بينها .

ينقل لنا أبو الحسن الأشعرى عنه نصّا مفصلا فى ذلك ، فيقول : " ان ابن كلاب كان يقول : ان الله سبحانه وتعالى لم يزل قديما بأسمائه وصفاته ، وأنه لم يزل عالما قادرا حيا سميعا بصيرا عزيزا جليلا كبيرا عظيما جوادا متكبرا واحدا أحدا صمدا فردا باقيا أولا سيدا مالكا ربا رحمانا مريدا كارها محبا مبغضا ساخطا مواليا معاديا قائلا متكلما ، بعلم وقدرة وحياة وسمع وبصر وعزة وجلال وعظمة وكبرياء وكرم وجود وبقاء والهية ورحمة وكراهة وحب وبغض ورضى وسخط وولاية وعداوة وكلام ، وأن ذلك من صفات الذات " (١) .

ـ ذكر ابن كلاب هنا الصفات بألفاظها الواردة فى القرآن الكريم ، سواء منها صفات الذات أو صفات الأفعال ، ثم وضح منهجه فيها ، ورفض لمنهج التعطيل بقوله : بعلم وقدرة وحياة . . . الخ .

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ١٦٩ ، ٥٤٦) .

قال الشهرستانى : " وزاد بعض السلف : قديم بقدم ، كريم بكرم ، جواد بجود ، الى أن عد عبد الله بن سعيد الكلابى خمسة عشر صفة ، على غير فرق بين صفات الذات وصفات الأفعال " . (١)

فقد قرر الأشعرى فى نصه السابق أن ابن كلاب عد ثلاثاً وعشرينَ صفة ، وأثبتها جميعا لله عز وجل ، واعتبرها من صفات الذات ، بينما نجد الشهرستانى يقول بأنه قد بلغ بالصفات خمس عشرة صفة ، ولم يميز بين صفات الذات وصفات الأفعال (٢) ، ولعل ابن كلاب ذكر الصفات فى كل موضع على سبيل المثال ، وليس على سبيل الاحصاء .

ويلاحظ مما سبق من النصوص المنقولة : أن ابن كلاب يرفض مذهب المعتزلة الذى يثبت ثلاث صفات فقط ، وهى عين الذات عندهم ، ويوافق السلف فى اثباته للصفات .

أما الصفات التى أثبتها ابن كلاب وذكرها عنه مؤرخو الفرق فهى : صفة العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والعزة والجلال والعظمة والكبرياء والكرم والجود والبقاء والالهية والرحمة والارادة والكراهة والحب والبغض والرضى والسخط والولاية والعداوة والكلام .

وقد نقل الأشعرى نحو ذلك عن أصحاب ابن كلاب حيث قال :

" وأما أصحاب عبد الله بن سعيد القطان فانهم يقولون بأكثر ما ذكرناه عن أهل السنة ، ويثبتون أن البارى تعالى لم يزل حيا عليما قادرا سميعا بصيرا عزيزا عظيما جليلا كبيرا كريما . . . متكلما جوادا ، ويثبتون العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والعظمة والجلال والكبرياء والارادة والكلام صفات لله تعالى سبحانه " . (٣)

---

(١) نهاية الاقدام (ص ١٨١) .

(٢) الكلابية وأثرها فى المدرسة الاشعرية (ص ٨١ — ٨٢) .

(٣) مقالات الإسلاميين (ص ٢٩٨) .

اذن : نلاحظ من النصوص السابقة التى نقلها الأشعرى والشهرستانى عن ابن كلاب وأصحابه فى موقفهم من مسائل الصفات أن ابن كلاب وأصحابه هم مثبتة للصفات ، أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام .

فالكلابية موافقون للسلف فى مذهبهم فى الصفات الالهية ، ويقولون بالمبادئ والأصول الرئيسية التى يدين بها السلف .

هذا مع العلم أن النصوص القليلة الواردة عن ابن كلاب لا تتضمن احصاء صفات الله تعالى ، وانما الذى ورد يتضمن بعض الصفات الالهية التى أوردها على سبيل بيان وتوضيح المذهب ، وسنحاول فيما يلى بيان مذهبه فى بعض الصفات الالهية تفصيلا .

١ – صفة الحياة :

قبل أن أبدأ ببيان مذهب ابن كلاب في صفة الحياة تحسن الاشارة الى رأى المعتزلة فيها ، حتى نرى أين يقف ابن كلاب بين المعتزلة والسلف ، والى أى مدى يتفق مع مذهب السلف في هذه الصفة .

لقد اتفق المعتزلة على أن الله سبحانه وتعالى ليس له صفات وجودية قائمة به – كما تقدم – ، خوفا من تعدد القدماء في الذات الالهية ، لذلك نفوا أن يكون الله تعالى حيا بحياة ، لأن القول بهذه الصفة يؤدى – بزعمهم – الى القول بالجسمية .

قال الأشعرى في تصوير مذهب المعتزلة : " ... فقال أكثر المعتزلة والخوارج وكثير من المرجئة وبعض الزيدية : أن الله عالم قادر حى بنفسه ، لا بعلم وقدرة وحياة "، وأطلقوا أن لله علما بمعنى أنه عالم ، وله قدرة بمعنى أنه قادر ، ولم يطلقوا ذلك على الحياة ، ولم يقولوا له حياة ... وقال عباد بن سليمان : هو عالم قادر حى ، ولا أثبت له علما ، ولا قدرة ، ولا حياة ، ولا أثبت سمعا ، ولا أثبت بصرا ، وأقول هو عالم لا بعلم ، وقادر لا بقدرة ، وحى لا بحياة ... ". (١)

وقال القاضى عبد الجبار : " وجملة القول في ذلك هو أنه تعالى لو كان حيا بحياة – والحياة لا يصح الادراك بها الا بعد استعمال محلها ضربا من الاستعمال – لوجب أن يكون القديم تعالى جسما ، وذلك محال ". (٢)

وكنتيجة حتمية لمذهب النفاة فان معانى أسماء الصفات وألفاظها عندهم ليست معانى متعددة بتعدد هذه الأسماء ، بل كلها عندهم معنى واحد ، فمعنى القدرة هو الحياة ، ومعنى الحياة هو العلم ، وهكذا .

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ١٦٤ – ١٦٥) .

(٢) شرح الأصول الخمسة (ص ٢٠٠ – ٢٠١) .

أما عبد الله بن كلاب فهو يذهب الى تسمية الله تبارك وتعالى باسم الحى ، واثباته له صفة الحياة ، على أنه لا يكون حيا الا بحياة ، كما هو رأى أهل السنة .

ودليل ذلك قوله : " انه تعالى لم يزل عالما قادرا حيا . . . " حتى قوله : " . . . بعلم وقدرة وحياة ، وأن ذلك من صفات الذات " ، (١) وقوله : " ومعنى أنه حى : أن له حياة ، وكذلك القول فى سائر أسمائه وصفاته " . (٢)

ومعنى قوله " أن الله حى " أى أنه تعالى لا يموت ، ولا يزول ، بخلاف خلقه ، فانهم يموتون ، فهو سبحانه وتعالى الدائم الباقى الذى لم يزل موصوفا بصفات الكمال ، فان صفة الحياة من صفات الذات اللازمة لها ، لا تنفك عنها .

ومما هو جدير بالذكر أنه لم يرد لنا عن ابن كلاب أدلة اعتمد عليها فى اثبات صفة الحياة لله تبارك وتعالى ــ على ما نقل عنه ــ ، وكذلك فى اثبات صفات أخرى .

ويلمس القارئ أن ابن كلاب لم يتعرض بصورة مباشرة للرد على المعتزلة والجهمية فى نفيهم لصفة الحياة ، وكذلك صفات أخرى ، ولكن يلاحظ من كلامه مخالفة صريحة لهم ، ودفاع واضح عن عقيدة السلف باصراره على اثبات الصفات ، ومنها صفة الحياة .

ولم يرد الينا رد ابن كلاب للأدلة التى اعتمد عليها النفاة ، من الجهمية والمعتزلة ، فى نفى صفة الحياة ، وصفات أخرى عن الله بتارك وتعالى ، وربما يرجع ذلك الى أن ابن كلاب اكتفى عموما بعرض مذهبه فى اثبات الصفات الالهية ، دون عرض شبه المخالفين ولو بصورة مختصرة ، وهذا جريا على عادة السلف فى ذلك ، وخوفا من افتتان الناس بها ، وهذا الصنيع من ابن كلاب يعتبر تحقيقا للمنهج الذى ألزم نفسه به فى تقرير مسائل العقيدة .

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ١٦٩ ، ٥٤٦) .

(٢) المصدر نفسه .

ونزيد رأى عبد الله بن كلاب توضيحا فى صفة " الحياة " ببيان رأى السلف فى اثبات هذه الصفة ، ومناقشة المعتزلة والجهمية فى نفيهم لها ، وللصفات عموما .

ولكن قبل أن أبدأ بهذا أريد أن أشير هنا الى نقطة مهمة متعلقة بموضوعنا هذا ، وهى :

أننا قلنا سابقا فى التمهيد الذى عقدناه لبيان أقسام الصفات الالهية شرحا لموقف السلف الصالح من قضية تقسيم الصفات الالهية : أنهم لم يقسموا الصفات الالهية الى تلك الأقسام التى ذكرها المتكلمون ، بل ولا الى الأقسام التى ذكرها بعض المتأخرين منهم فيما بعد .

كذلك فانه لم يؤثر عن السلف قول أو موقف من قضية تحديد معانى تلك الصفات ، فلم يحاولوا تعريف كل منها تعريفا جامعا مانعا ، يحدد خصائصها ، ويميزها عما عداها ، بل ولم يقدموا على تحديدها ، حتى ولو كان بحد ناقص ، ولا برسمها ، سواء كان رسما تاما أو ناقصا ، وانما كانوا يثبتون تلك الصفات لله عز وجل ، كما أثبتها لنفسه ، ويذكرونها كما ذكرها الله ورسوله ، وبما هى مفهومة به فى فطرهم المستقيمة ، وهذا أمر بديهى ، ومذهبهم فى ذلك : " أمروها كما جاءت بلا كيف " ، أى ابقاء دلالتها على ما جاءت به من المعانى اللائقة بالله .

فقد كان علماء السلف بعيدين عن التأثر بالمفاهيم الفلسفية والتقسيمات المنطقية للمعانى من الأجناس والأنواع والفصول والأعراض العامة والخاصة .

ولهذا لا نجد عند السلف تعريفا لصفة الحياة ، كتعريفات نجدها عند المتكلمين ، بل اننا لم نجد مثل هذا التعريف لا عند شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ، ولا عند تلميذه ابن قيم الجوزية .

وهذا هو الذى وجدناه عند ابن كلاب ، حيث لم يؤثر عنه أى قول يحاول به تحديد معنى الحياة ، كصفة لله تعالى ، أو تكييف هذه الصفة أو غيرها من صفاته تعالى .

ومن ثم نستطيع أن نرد على من يقول : ان الله تعالى "حي"، ولم يقل بأن له "حياة" ، كما قال بذلك ابن حزم (١) والمعتزلة : اننا وجدنا اسم "حي"، اشتق من "حياة" ، وكذلك "سميع" و "بصير" من "سمع" و "بصر" ، ولا تخلو أسماؤه سبحانه وتعالى من أن تكون مشتقة ، أو لافادة معناه ، أو تكون على طريق التلقيب ، فلا يجوز أن يسمى الله سبحانه وتعالى على طريق التلقيب باسم ليس فيه افادة معناه ، وليس مشتقا من صفة ، كقولنا "زيد" و "عمرو" على مسمى بهما ، واذا كان قولنا عن الله عز وجل : "حي" "سميع" ليس تلقيبا ، بل ذلك مشتق من "حياة" و "سمع" و "بصر" : فقد وجب اثبات "الحياة" ، فان كان ذلك لافادة معناه ، فلا يختلف ما هو لافادة معناه ، ووجب اذا كان معنى "الحيى" منا أن له "حياة" أن يكون كل "حي" فهو ذو حياة .

ولا محذور هنا اذا كان قولنا "موجود" مفيدا فينا الاثبات كان البارى تعالى واجبا اثباته ، لأنه سبحانه وتعالى موجود ، وهذا الدليل يدل على اثبات صفات الله تعالى لذاته من القدرة والسمع والبصر . (٢)

وكذلك اثبات الصفات لله تعالى ومنها "الحياة" لا يستلزم اثبات قديم غير الذات الالهية ، اى لا يقتضى تعدد القدماء ، كما ذهبت المعتزلة الى ذلك ، لأن الممنوع هو وجود ذوات قديمة متعددة ، وهذا هو الشرك المنافى للتوحيد ، وقد حكم الله تعالى بكفر النصارى لقولهم بالذوات المتعددة المستحقة للعبادة عندهم ، فقالوا : ان الله ثالث ثلاثة ، فقال تعالى/ردا عليهم : (وما من اله الا اله واحد) (٣) ، فحكم الله تعالى بأن الاله المستحق للعبادة واحد ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ولم يقل : "وما من قديم الا قديم واحد" ، ولا يمنع هذا أن يكون الاله الواحد موصوفا بصفات . (٤)

---

(١) ابن حزم وموقفه من الالهيات (ص ٢٢٣ — ٢٢٤) .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) سورة المائدة (٧٣) .

(٤) فلسفة علم الكلام : للدكتور عبد العزيز سيف النصر (ص ١٥٣ — ١٥٤) .

لذلك ذهب سلف الأمة الى القول بوجود ذات واحدة قديمة قبل كل شيء، لأن الله تعالى هو الأول ، والآخر / والظاهر والباطن ، ولهذه الذات المقدسة صفات قديمة ومتعددة ، لأن الموجود المعبود بحق هو الله تبارك وتعالى ، الموصوف بالصفات اللائقة بكماله وجلاله ، وليس للصفات وجود مستقل ، وانما وجودها به تعالى .

والصفات زائدة على الذات المجردة عن الصفات ، لا على الذات المتصفة بالصفات .

يقول شارح الطحاوية :"وإن أريد به أن الصفات زائدة على الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة : فهذا حق ، ولكن ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفات ، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها " (١) .

ويقرر كذلك أن اسم الله تعالى يتناول الذات والصفات ، حيث يقول :" وقد يقول بعضهم : الصفة لا عين الموصوف ولا غيره : هذا له معنى صحيح ، وهو : أن الصفة ليست عين ذات الموصوف التي يفرضها/ الذهن مجردة ، بل هي غيرها ، وليست غير الموصوف ، بل الموصوف بصفاته شيء واحد غير متعدد ، فاذا قلت : أعوذ بالله فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه " (٢) .

وقد وجه شيخ الاسلام ابن تيمية النقد الى الذين أنكروا أن يكون الله حيا بحياة ، وبين أن جمهور مثبتة الصفات يمتنع عندهم أن يكون حيا من لا حياة له ، حيث قال في هذا :" وأما جمهور مثبتة الصفات فيقولون : ان العلم هو كونه عالما ،

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٢٩) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٣٠) .

ويقولون : لا يكون عالما الا بعلم ، ولا قادرا الا بقدرة ، أى : يمتنع أن يكون عالما من لا علم له ، وأن يكون قادرا من لا قدرة له ، وأن يكون حيا من لا حياة له ، ولا ريب أن هذا معلوم ضرورة ، فان وجود اسم الفاعل بدون مسمى المصدر ممتنع، وهذا كما لو قيل : مصل بلا صلاة ، وصائم بلا صيام ، وناطق بلا نطق ... فمن انكر هذه الصفات ـ صفات الكمال ـ ، وقال : حى بلا حياة ، وعالم بلا علم، وقادر بلا قدرة : كان قوله ظاهر البطلان " .(١)

بعد أن بينا بطلان ما ذهب اليه نفاة الصفات من القول بأن الله حى بلا حياة وعالم بلا علم. .الخ ، وانكارهم لصفة الحياة : نسوق بعض الأدلة التى استدل بها السلف على صفة الحياة لله عزوجل ، وفيما يلى بيان ذلك :

سوف نورد أولا الأدلة النقلية من كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم .

يقول علماء السلف فى اثبات صفة الحياة لله عز وجل : ان الله سبحانه وتعالى هو الذى وصف نفسه بالحياة الدائمة ، والحياة صفة من صفات ذاته المقدسة اشتقت من اسمه " الحى " .

ولقد وصف الله نفسه بصفة الحياة بقوله تعالى : (الله لا اله الا هو الحى القيوم) ،(٢) وبقوله : (وتوكل على الحى الذى لا يموت) ،(٣) وبقوله : (وعنت الوجوه للحى القيوم) ،(٤) وبقوله أيضا : (هو الحى لا اله الا هو) .(٥)

---

(١) منهاج السنة (٢/ ٤٨٦ - ٤٨٧، و٤٨٩) ، طبعة جامعة الامام.

(٢) سورة البقرة (٢٢٥) .

(٣) سورة الفرقان (٥٨) .

(٤) سورة طه (١١١) .

(٥) سورة غافر (٦٥) .

وقد وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم بنفس الصفة (صفة الحياة) ، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه : " اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت ، أعوذ بعزتك ، لا اله الا أنت أن تضلني ، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والانس يموتون " .(١)

هذا عن الأدلة النقلية ، وأما أدلتهم العقلية ؛ منها :

١ ـ طريق الأولى : الذي يتضمن القول بأن صفة الحياة : اذا كانت ثابتة في حق المخلوق وهي صفة الكمال : فالخالق سبحانه وتعالى أولى بالاتصاف بها ، واذا تنزه المخلوق عن عدم الاتصاف بها : فان الخالق أولى بالتنزه عنه .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : " ان الكمال ثابت لله ، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية ، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه الا وهو ثابت للرب ، يستحقه بنفسه المقدسة ، وثبوت ذلك مستلزم نفي نقيضه ، فثبوت الحياة يستلزم نفي الموت ، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل ، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز ، وان هذا الكمال ثابت له بمقتضى الأدلة العقلية والبراهين اليقينية وأدلة السمع " .(٢)

وصفة الحياة من صفات الكمال ، بل هي مستلزمة لجميع صفات الكمال ، يقول شارح الطحاوية : " فان الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فلا يتخلف عنها صفة منها الا لضعف الحياة ، فاذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها : استلزم اثباتها اثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة " .(٣)

---

(١) الحديث رواه مسلم في صحيحه ، رقم ٢٧١٧ ، (٢٠٨٦/٤) ، كتاب الذكر والدعاء ، باب التعوذ من شر ما عمل .

(٢) مجموع الفتاوى (٧١/٦) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٢٥) .

٢ ــ والدليل الثاني : لو لم يتصف الله سبحانه وتعالى باحدى الصفتين المتقابلتين لكان متصفا بالأخرى ، لا محالة ، فاذا لم يكن حيا كان ميتا ، واذا لم يكن عالما كان جاهلا ، واذا لم يكن قادرا كان عاجزا .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في توضيح هذا الدليل : " من الطرق التي يسلكها الأئمة ومن اتبعهم من نظار السنة في هذا الباب : أنه لو لم يكن موصوفا باحدى الصفتين المتقابلتين للزم اتصافه بالأخرى ، فلو لم يوصف بالحياة لوصف بالموت ، ولو لم يوصف بالقدرة لوصف بالعجز ، ولو لم يوصف بأنه مباين للعالم لكان داخلا فيه ، فسلب احدى الصفتين المتقابلتين عنه يستلزم ثبوت الأخرى ، وتلك صفة نقص ، ينزه عنها الكامل من المخلوقات ، فتنزيه الخالق عنها أولى ". (١)

وقال البيهقي : " فان قال قائل : وما الدليل على أنه حي عالم قادر ؟ قيل : ظهور فعله دليل على حياته ، وقدرته ، وعلمه ، لأن ذلك لا يصح وقوعه من ميت ولا عاجز ولا جاهل به ، فدل ذلك على أنه بخلاف وصف من لا يتأتى ذلك منه ، ولا يكون بخلاف ذلك الا وهو حي قادر عالم " . (٢)

ومن خلال ما تقدم نلاحظ الاتفاق بين عبد الله بن سعيد وبين السلف في اثبات صفة " الحياة " لله عز وجل كما أثبتها سبحانه وتعالى لنفسه وكما أثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومخالفته للجهمية والمعتزلة فيما ذهبوا اليه من التأويل والتعطيل .

---

(١) الفتاوى (٣/ص د ــ هـ ، تابع صحيفة ٨٨) .
(٢) الجامع لشعب الايمان للبيهقي (١/ ٣٦٣) .

٢ – صفة العلم :

وما أثبته الله عز وجل لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم : أنه عليم بعلم ، وأن علمه محيط بجميع الأشياء من الكليات والجزئيات ، وهو من صفاته الذاتية.(١)

فقد علم الله تبارك وتعالى أزلا جميع الأشياء قبل أن تكون ، وقبل أن تحدث ، فهو يعلم المخلوقات قبل أن يخلقها ، ويعلم جميع أحوال خلقه ، اذ كان هو الخالق لها ، وهذا لا يسع أحد جحوده ، لأن الأخبار جاءت مثبتة له فى الكتاب والسنة .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : " فأما اثبات علمه وتقديره للحوادث قبل كونها : ففى القرآن والحديث والآثار ما لا يكاد يحصر ، بل كل ما أخبر الله به قبل كونه فقد علمه قبل كونه " .(٢)

لذلك فقد اجتمع جميع الفرق الاسلامية على اثبات كونه تعالى عالما ، ولم ينازع فى ثبوت العلم له تعالى الا شرذمة قليلة من قدماء الفلاسفة ، أنكروا أن يكون الله عالما بالجزئيات ، وتبعوا فى ذلك أرسطوا(٣) الذى ينكر علم الرب بشيء من الحوادث مطلقا ،(٤) وغلاة القدرية الذين ينفون علمه تعالى بأفعال العباد قبل أن يعملوها ، وكذلك بعض الشيعة الاثنى عشرية وغيرهم الذين قالوا بالبداء ، أى أن يبدو لله أمر ويريده ، ثم يرجع عنه الى أمر آخر .(٥)

---

(١) شرح العقيدة الواسطية :د / خليل هراس (ص ٤٠) .

(٢) جامع الرسائل : المجموعة الاولى (ص ١٨٣) .

(٣) أرسطوطاليس المجدونى : من بلد مجدونية ، فليسوف الروم ، عاش قبل الميلاد ، وتكلم فى الطب ، وغلب عليه الفلسفة ، وله فيها كتب وأشعار ، وهو مؤسس المدرسة المشائية ، وله مصنفات كثيرة فى الفلسفة ،أنظر : طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (ص ٢٥) .

(٤) تهافت الفلاسفة للغزالى (ص ٢٠٢ – ٢٠٤) ، درء تعارض (٩/ ٣٩٨) ، نهاية الاقدام (ص ٢١٥) ، جامع الرسائل (١/ ١٨٧) .

(٥) درء تعارض (٩/ ٣٩٦) .

يقول شيخ الاسلام ابن تيميـــــــــة :" والنزاع فى هذا مع غلاة القدرية ونحوهم ... ، الذين يقولون : لم يعلم الله أفعال العباد الابعد وجودهـــا ، وأن الأمر أنف ، لم يسبق القدر شقاوة ولا سعادة ، وهم غلاة القدرية الذيـــــن حدثوا فى زمن ابن عمر وتبرأ منهم " (١) .

وأما مذهب الجهم فى صفة العلم : فقال فى ذلك ابن تيمية :" النـــاس المنتسبون الى الاسلام فى علم الله تعالى باعتبار تعلقه بالمستقبل على ثلاثة أقوال ، والقول الثالث منها : أنه يعلمها قبل حدوثها ، ويعلمها بعلم آخر حين وجودها ، وهذا قد حكاه المتكلمون كأبى المعالى عن جهم ، فقالوا : انه ذهب الى اثبـــات علوم حادثة لله تعالى ، وقال : البارئ عالم لنفسه ، وقد كان فى الأزل عالما بنفسه وبما سيكون ، فاذا خلق العالم ، وتجددت المعلومات ــ أحدث لنفسه علوما بهــا يعلم المعلومات الحادثة ، ثم العلوم تتعاقب حسب تعاقب المعلومات فى وقوعهــا ، متقدمة عليها ، أى العلوم متقدمة على الحوادث ، وذكروا أنه قال : انها فى غـير محل ، نظير ما قالت المعتزلة البصرية فى الارادة " (٢) .

ومعنى قول الجهم : أن علم الله تعالى حادث ، متجدد بتجدد الحادثات متعدد بتعدد الكائنات ، وأنه بمنزلة النظر والمشاهدة ، لا يعلم بالشيئ حـــتى يكون ، فاذا كان الشيئ علم به علم كينونته ، لا بعلم لم يزل فى نفسه قبل كينونتـــه ،

---

(١) جامع الرسـائل (١/١٧٧ ــ ١٧٨) .

(٢) جامع الرسائل (ص ١٧٧ ، ١٧٩) ، والارشاد للجوينى (ص ٩٦) ، ويقول الجوينى فى قول المعتزلة البصرية فى الارادة :" وسبيل الرد عليه فـــى مدارك العقل يدانى سبيل الرد على البصريين فى اعتقادهم الارادات الحادثة النابتة ــ على زعمهم ــ لله تعالى فى غير محل ، أنظر : الارشـاد (ص ٩٦) ، نهاية الاقدام (ص ٢١٥) .

ولكن اذا حدث الشيء كان هو عند الشيء ، ومعه الشيء نفسه ، اذن : أن الله لا يعلم الحوادث قبل حدوثها في مذهبه .(١)

وقد اشتد انكار السلف على من أنكر علم الله القديم ، وأنه لا يعلم الأشياء قبل وقوعها ، لأن الأمر لو كان كذلك للزم أن يكون وقت لا يعلم الله فيه تلك الحوادث ، وهذا بين الفساد ، لأن نفي العلم يستلزم ثبوت ضده ، وهو الجهل الذي هو نقص في حقه تعالى .

وقد نص الأئمة على تكفير هذه المقالة .

قال الامام أحمد : " فان قال — الجهمي — ليس له علم كفر ، وان قال لله علم محدث كفر ، حيث زعم أن الله قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم ، حتى أحدث له علما فعلم ، فان قال لله علم وليس مخلوقا ولا محدثا رجع عن قوله كله ، وقال بقول أهل السنة " .(٢)

وقال الامام الدارمي ردا على المريسي المعتزلي : " ان هذه الكلمة خبيثة قديمة من كلام جهم ، عارض بها جهم قول الله تعالى : (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) ،(٣) لأن جهما نفى بذلك القول بالعلم السابق في نفسه تعالى قبل حدوث الخلق وأعمالهم " .(٤)

---

(١) الرد على الجهمية/للدارمي ضمن عقائد السلف (ص ٣١٠ — ٣١١) ، غاية المرام (ص ٧٦) ، أصول الدين (ص ٩٥) .

(٢) الرد على الجهمية والمعتزلة (ص ٩٦) ، ضمن عقائد السلف ، والامام أحمد رحمه الله لما ناظر أئمة المعتزلة والجهمية أمام المعتصم ، وقالوا له : ماتقول في القرآن ؟ قال لهم الامام أحمد : ماتقولون في علم الله ؟ وقال : القرآن من علم الله ، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله ، أنظر : البداية والنهاية (١٠/٣٧٧) ، وتقدم تفصيل محنة خلق القرآن في عصر ابن كلاب .

(٣) سورة المائدة (١١٦) .

(٤) الرد على بشر المريسي (ص ٤٠٤) ، ضمن عقائد السلف .

وقال عبد العزيز المكى لبشر المريسى ، وهو يناظره أمام المأمون ، فى مسألة العلم : " قد مدح الله عز وجل الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم ،لا بنفى الجهل ، فمن أثبت العلم فقد نفى الجهل ، ومن نفى الجهل لم يثبت العلم ، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبته الله لنفسه ، وينفوا ما نفاه ، ويمسكوا عما أمسك عنه " .(١)

مذهب ابن كلاب فى صفة العلم :

يثبت عبد الله بن كلاب العلم الالهى لله تبارك وتعالى ، ويقول بأن الله تعالى عالم بجميع المعلومات ، وله صفة العلم .

قال أبو الحسن الأشعرى : " كان يقول ابن كلاب : معنى أن الله عالم أن له علما "،(٢) وذلك لأنه لا بد أن يكون للعلم عالما ، وللعالم علما ، ولا انفكاك للعالم عن العلم ، ولا للعلم عن العالم ، ولا علم الا لعالم ، ولا عالم بدون العلم.(٣)

فان ابن كلاب يذهب الى أن العلم الالهى هو " صفة مضافة الى الله تعالى "،(٤) أضافه الى نفسه اضافة الصفة الى الموصوف ، بخلاف المعتزلة والجهمية ، لأننا قد رأينا سابقا أن المعتزلة لا ينكرون كونه تعالى عالما قادرا ، والذى ينكرونه اضافة العلم والقدرة وسائر الصفات الذاتية الى الله تعالى ، أما الذى يثبتونه هو اضافة ، بمعنى أن العلم عندهم مجرد اضافة بين العالم والمعلوم ،لكن العلم عند أهل السنة صفة حقيقية ذات اضافة .

ويقرر ابن كلاب أن علمه تعالى مغاير لعلم المخلوقين ، لأنه قديم ، وليس بحادث ، يقول ابن كلاب ــ كما نقل عنه شيخ الاسلام ابن تيمية ــ " بل العلم قديم العين ، ولكن تتجدد له الاضافات " .(٥)

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٧ ــ ١٤٨) ،شرح العقيدة الواسطية (ص ٤١ ــ ٤٢) .

(٢) المقالات (ص ١٦٩) ، أصول الدين للبزدوى (ص ٨٩) .

(٣) تبصرة الأدلة : أبو المعين النسفى (١/ ١٣١ ــ ١٣٢) .

(٤) درء تعارض (١٠/ ١٥٩) .

(٥) درء تعارض (١٠/ ٢٣) .

وفى هذا القول رد على الجهمية القائلين بحدوث علم الله سبحانه وتعالى ، وتعدده بتعدد المعلومات .

والعلم الالهى صفة ذاتية لازمة لذات الله تعالى ، لا يخلو منها فى وقت من الأوقات ، فهو قديم ، ولا يتصور انفكاكه ذات الله تعالى عنها .

يقول ابن كلاب فى ذلك : " ان الله تعالى يعلم المستقبلات بعلم قديم لازم لذاته " (١) .

وأن علمه عز وجل شامل لجميع المعلومات ، لأنه يعلم جميع الحوادث الجزئية منها والكلية ، وأزمنتها الواقعة ، وهو يعلم المعدوم فى حال عدمه معدوما ، ويعلم كيف يكون اذا أوجده ، ويعلم الموجود فى حال وجوده موجودا ، ويعلم أنه كيف يكون فناؤه .

وعلى هذا : فان علم الله تعالى قديم ، وهو متعلق بالمتجددات ، وتعلقه بالمتجددات من حيث حدوثها وفنائها أو عدمها بأزمنتها وكيفياتها وأحوالها . ويكون تغير هذه المتجددات عند ابن كلاب من غير ايجاب تغير فى صفة العلم ، أى أن تعلق العلم الالهى بالجزئيات والمعلومات المتجددة المتغيرة : لا تعنى تغيرا فى العلم نفسه ، لأن صفة العلم صفة أزلية ثابتة ، (٢) وعلمه بالتغيرات الحادثة قديم ، فالتغير يحدث فى المعلوم ، ولا يحدث فى علمه تعالى ، وهذا التغير معلوم أزلا حدوثه فى زمانه ومكانه لله عز وجل .

يؤكد قولنا هذا ما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية فى كتابه " جامع الرسائل " تحت عنوان " فصل فى مسألة العلم " ، مبينا مذهب ابن كلاب فى ذلك : " الناس المنتسبون الى الاسلام فى علم الله باعتبار تعلقه بالمستقبل على ثلاثة أقوال ، أحدها :

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية (١/١٧٧) .

(٢) اشارات المرام للبياضى (ص ١٢٨ — ١٣٠) .

أنه يعلم المستقبلات بعلم قديم لازم لذاته ، ولا يتجدد له عند وجود المعلومات نعت ولا صفة ، وانما يتجدد مجرد التعلق بين العلم والمعلوم ، وهذا قول طائفة من الصفاتية من الكلابية والأشعرية ومن وافقهم من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعى وأبى حنيفة ، وهو قول طوائف من المعتزلة وغيرهم من نفاة الصفات ، لكن هؤلاء (أى : المعتزلة) يقولون : يعلم المستقبلات، ويتجدد التعلق بين العالم والمعلوم لا بين العلم والمعلوم " .(١)

ونقل ابن تيمية فى موضع آخر عن ابن كلاب أنه كان يقول : " انه يعلم المعلومات كلها بعلم واحد بالعين " ، ثم قال : " وهذا قول الأشعرى أيضا ومن وافقهما من أهل الكلام والفقه والحديث والتصوف " .(٢)

واذا تأملنا فى كلام ابن كلاب هذا : وجدنا أنه ـ وان اتفق فى اثبات هذه الصفة الذاتية لله تعالى ـ يختلف مذهبه فى ذلك عن مذهب السلف ، حيث يذهب الى أنه سبحانه يعلم جميع المعلومات بعلم واحد ، وأن هذا العلم لا يتجدد عند تجدد المعلومات ، والسلف على خلاف ذلك ، فانهم يقولون بأنه سبحانه وتعالى يعلم المستقبلات قبل حدوثها ، ويتجدد هذا العلم حين تتجدد الأسباب .

وكان أبو محمد ، عبد الله بن سعيد بن كلاب ، مع فضله ومعرفته ، ظن أن الرب سبحانه لا يتصف بالأمور الاختيارية ، وجعل الصفات الاختيارية صفات قديمة لا تتجدد ، فنفى أن الله سبحانه يتكلم متى شاء ، أو أن يتجدد له علم أو رضى أو محبة ، وتبعه فى ذلك الأشعرى وأبو بكر الباقلانى ، ومن وافقهما من أتباع الأئمة ،(٣) كالقاضى أبى يعلى الذى يقول عن علم الله سبحانه : " وهو علم واحد يتعلق بجميع المعلومات على ما هى به لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه التغيير والبطلان " ،(٤)

---

(١) جامع الرسائل (١/١٧٧) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/١٧٢) ، (١٠/٢٣) .

(٣) مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ٤٧١ ، ٤٧٣) .

(٤) العدة لأبى يعلى (١/٨٠) .

فوصفه لعلم الله سبحانه بأنه واحد ، وأنه لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه التغيير : نفى لتجدد علم الله سبحانه وتعالى .

وقول ابن كلاب فى صفة العلم كقوله فى الارادة : أنها لا تتعدد بتعدد المراد ، وابن كلاب يجعل الارادة والعلم ارادة واحدة وعلما واحدا ، قديمان أزليان ، وانما يتجدد تعلقهما بالمراد .(١)

وهذا القول فساده معلوم بالاضطرار ، لأن ما يقوم بالنفس من ارادة الأمور والعلم بها لا يمكن أن يقال فيه أن هذه الارادات والعلوم نسبتها الى الجميع واحدة ، ولا أن العلم بهذا هو العلم بهذا ، ولا ارادة هذا الأمر هو ارادة ذلك ولهذا كان قول أهل السنة : ان الله سبحانه وتعالى يعلم المستقبلات قبل حدوثها ، ويتجدد هذا العلم بتجدد أسبابه ، وان الله سبحانه لم يزل مريدا بارادات متعاقبة .(٢)

فنوع العلم والارادة قديم ، وأما علم الشيء المعين الذى سيحدث فهو علم آخر وغير العلم الأول ، وليس تمييز العلم عن العلم تمييزا مع انفصال أحدهما عن الآخر ، فان الصفات المتنوعة اذا قامت بمحل واحد لم ينفصل بعضها عن بعض، بل المحل واحد.

فاذا علم سبحانه وتعالى بهذا الحادث بعد علمه السابق فقد زاد هذا النوع وكثر ، فلا يزيد فيه زيادة الكمية عن زيادة الكيفية .

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٤٣/٨) .

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ص ٣١١ — ٣١٢) ، مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٠٢ — ٣٠٣) .

رأى الحارث المحاسبى فى صفة العلم :

وأما بالنسبة لرأى المحاسبى فقد وجدنا أنه يتعرض لصفة العلم أثناء حديثه عما لا يجوز النسخ فيه من القرآن ، وهو صفات البارى تعالى ومدحه والثناء عليه ، وكذلك إخباره تعالى عما كان وما يكون ، ويقرر رأيه فى صفة العلم ، ويهاجم خصومه القائلين بجواز النسخ فيما تقدم ، والذاهبين الى البداوات وجود الأدوات.

ومما قال فى هذا الباب: أن مما وصف الله به نفسه وامتدحها به : "علم ما قد كان وما سيكون ، وما لا يكون ، أو كان كيف كان يكون " .(١)

وقول المحاسبى هذا هو نفس ما نقله البغدادى فى صفة العلم عن الأشاعرة الذين جاؤوا من بعد ابن كلاب والمحاسبى ، اذ قال البغدادى : "أجمع أهل الحق على أن علم الله تعالى واحد ، قد علم به جميع معلوماته ما كان منها وما يكون وما لا يكون ان لو كان كيف كان يكون" .(٢)

ويثبت هذا القول للبغدادى الذى يقرر به مذهب الأشاعرة فى العلم الالهى التأثير الواضح لابن كلاب والمحاسبى فى مذهب الأشعرى فى مسائل صفة العلم .

ويستمر المحاسبى فى بيان عقيدته الكلابية فى صفة العلم قائلا : "فمدح (الله) نفسه بعلم جميع الغيوب ، فقال جل من قائل : (وربك أعلم بمن فى السماوات والأرض) ،(٣) وقال : (وهو الله فى السماوات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم) ،(٤) وقال : (عالم الغيب والشهادة) ،(٥) وقال : (علم الله أنكم ستذكرونهن . . . . .) ،(٦)

---

(١) فهم القرآن : للمحاسبى (ص ٣٣٩) ، الكلابية واثرها فى المدرسة الأشعرية: (ص ١٤٥) .

(٢) أصول الدين : للبغدادى (ص ٩٥) .

(٣) سورة الاسراء (٥٥) .

(٤) سورة الأنعام (٣) .

(٥) سورة الأنعام (٧٣) .

(٦) سورة البقرة (٢٣٥) .

وقال : (علم أن سيكون منكم مرضى)[١]، وأخبر بما لا يكون ، أو كان كيف كان يكون ، فقال عز وجل : (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه) ، وقال : (لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ..)[٢]، فأخبر أنه قد علم أنهم لو نصروهم لولوا الأدبار» .[٣]

ثم ينتقل المحاسبى الى بعض نصوص القرآن مما يوهم ظاهره حدوث علمه تعالى واستئنافه ، كقوله تعالى : (حتى نعلم ...)[٤]، و (لما يعلم ...)[٥]، و (فليعلمن ..)[٦]، فيقرر أن معناه " حتى يراه " ، فيكون معلوما موجودا ، وليس على معنى " يستأنف " ، " ويستحدث علما " .[٧]

يقول المحاسبى : " اذا تلوت قوله : (فليعلمن الله الذين صدقوا)[٨]، وقوله (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم)[٩]... فظاهر التلاوة : على استئناف العلم من الله ، بجهاد المجاهدين ، وصدق الصادقين ، وكذب الكاذبين ، وجل الله أن يستأنف علما بشيئ " .[١٠]

وقال أيضا : " وانما قوله (حتى يعلم) و (لما يعلم)و (ليعلمن) : انما يريد : " حتى يراه " ، فيكون معلوما موجودا ، لأنه لا جائز أن يكون يعلم الشيئ

---

(١) سورة المزمل (٢٠) .

(٢) سورة الحشر (١٢) .

(٣) سورة القرآن (ص ٣٣٩) .

(٤) سورة القتال (ص ٣١) .

(٥) سورة آل عمران (١٤٢) .

(٦) سورة العنكبوت (٣) .

(٧) فهم القرآن (ص ٣٣٩) ، الكلابية واثرها ... (ص ١٤٥ — ١٤٦) .

(٨) سورة العنكبوت (٣)

(٩) سورة آل عمران (١٤٢) .

(١٠) فهم القرآن للمحاسبى (ص ٣٣٧ — ٣٣٨) .

معدوما قبل أن يكون ، ويعلمه موجودا كائنا ، فيعلم فى وقت واحد أنه معدوم موجود ، أنه قد كان ، وأنه لم يكن بعد ، وهذا محال ، وانما لم يجز أن يقال : يعلم الله أن الشيئ قد كان ، لأن الشيئ لم يكن بعد ، فان الله عز وجل لا يجوز أن يكون جاهلا به أنه سيكون " (١) .

ومعنى قول المحاسبى : أن الله عز وجل انما أخبر بما يدل على تحقق علمه فى المستقبل ، لأنه وانما يخبر عما سيكون ، ولا يجوز أن يخبرسبحانه ما سيكون بما يدل على أنه كائن ، أو قد كان ، وهذا يستلزم التناقض ، اذ يفيد أنه يعلم المعدوم موجودا فى حال عدمه وهو محال ، فالله يعلم المعدوم قبل كونه معدوما ، ويخبر عنه بأن سيكون ، دون أن يفهم من ذلك تغير علمه تعالى أو حدوثه ، ويعلمه كذلك بعد وجوده موجود ، أويستحيل أن يعنى ذلك أيضا تغيرا أو حدوثا .

اذن : أن علم الله تعالى فى رأى المحاسبى واحد ، محيط بما كان وما يكون لو كان كيف كان يكون ، وما كان من تغير فهو فى المعلوم ، وليس فى العلم ، لأن ذات الله تعالى لا يلحقها التغير (٢) .

وبعد هذا التقرير : نرى المحاسبى يحاول أن يوضح المسألة بمثال محسوس فيقول : " وذلك موجود فينا ، ونحن جهال ، وعلمنا محدث ، قد علمنا أن كل انسان ميت ، فكلما مات انسان قلنا : قد علمنا أنه قد مات ، من غير أن نكون قبل موته جاهلين أنه سيموت ، الا أنا قد يحدث لنا العلم ، من الرؤية وحركة القلب اذا نظرنا اليه ميتا بأنه ميت .

---

(١) فهم القرآن للمحاسبى (ص ٣٣٨ — ٣٤٠) .

(٢) الكلابية وأثرها فى المدرسة الأشعرية (ص ١٤٦) .

والله جل ذكره لا تحدث فيه الحوادث ، لأنا لم نجهل موت من مات أنه سيكون ، وكذلك علمنا أن النهار سيكون صبيحة ليلتنا ، ثم يكون ، فنعلم أنه قد كان من غير جهل منا تقدم أنه سيكون ، فكيف بالقديم الأزلى الذى لا يكون موت ولا نهار ولا شيء من الأشياء الا وهو يخلقه ، ونحن لا نخلق شيئا ؟ " (١)

والاختلاف بين السلف والكلابية يكمن فى: أن الله تعالى متصف أزلا بصفة العلم، وأن هذه الصفة قديمة ، ونعتبر قول المحاسبى ردا على من ذهب الى حدوث علمه تعالى ، لأنه يرد بهذا الكلام على الجهمية القائلين بحدوث علوم البارى تعالى وتعددها بتعدد معلوماته عز وجل .

غير أننا : نرى أن المحاسبى لم يوفق فى استدلاله الذى اعتمد فيه على استحالة قيام الحوادث بذات الله تعالى ، فان القول باستحالة قيام الحوادث بذاته أمر لم يثبت لا فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا فى أقوال السلف ، بالاضافة الى ذلك : نفى حلول الحوادث بالذات الالهية قول مجمل ، يشتمل على حق وباطل ، ويحتاج الى تفصيل ، لأنه :

" ان أريد بالنفى أنه سبحانه لا يحل فى ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة ، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن ، فهذا نفى صحيح ، وان أريد به نفى الصفات الاختيارية من أنه لا يفعل ما يريد ، ولا يتكلم بما شاء اذا شاء ، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول ، والاستواء ، والاتيان ، كما يليق بجلاله وعظمته : فهذا نفى باطل »(٢) ، وهذا هو ما قصده النفاة ، ووجه بطلانه : أنه ينفى اتصاف الله سبحانه بصفات الكمال المتعلقة بمشيئة تعالى وقدرته ، مما يؤدى الى اضافة العجز الى الله سبحانه وتعالى .

---

(١) فهم القرآن (ص ٣٤٠) .

(٢) شرح الطحاوية (ص ١٢٩) .

ونظرا لأن المحاسبى قد نفى حلول الحوادث بذاته تعالى فى معرض الردّ على القائلين بحدوث العلم الالهىّ ، فاننا نرجح القول بأن رفض حلول الحوادث بذات الله تعالى عند المحاسبى هو بمعنى أنه لا يحدث له علم متجدّد لم يكن عنده سبحانه أزلا ، وهو مايوافق فيه السلف.

وبعد أن بيّنّا مذهب المحاسبىّ فى صفة العلم الالهىّ واحاطته تعالى بجميع معلوماته على ماسبق ذكره نقدم بعض الأدلة النقلية عليه من الكتاب والسنة.

أما الكتاب فقد ورد فيه آيات كثيرة ، منها قوله تعالى : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم مافى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين) ،(١) وقوله تعالى : (ان الله بكل شئ عليم) ،(٢) وقوله تعالى : (يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها ، وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو الرحيم الغفور) ،(٣) وقوله تعالى : (وماتحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه) ،(٤) وقوله عز وجل : (وان الله قد أحاط بكل شئ علما) ،(٥) وغيرها من الآيات التى تدل على وصف الله تعالى بالعلم المحيط بجميع المعلومات الكليات والجزئيات ، وأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات والأرض.(٦)

وأما السنة: وقد ثبت فى الصحيح عن جابر رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الاستخارة فى الأمور كلها ، كما يعلم السورة من القرآن ، ويقول : " اذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : " اللهم أنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم ان كنت تعلم .... الحديث ".(٧)

---

(١) سورة الأنعام (٥٩).

(٢) سورة العنكبوت (٦٢).

(٣) سورة سبأ (٢).

(٤) سورة فصلت (٤٧).

(٥) سورة الطلاق (١٢).

(٦) أنظر: الكواشف الجلية (ص ٨٢ – ٨٣) ، معارج القبول (١/١٩٨) ، ولوامع الانوار (١/١٥٨).

(٧) صحيح البخارى ، كتاب التهجد ، باب ماجاء فى التطوع مثنى مثنى (٢/٥١)

وفى الصحيحين حديث تعاقب الملائكة بأطراف النهار ، فيسألهم الله وهو أعلم بهم . (١)

وفيهما عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مفاتيح الغيب خمس ، لا يعلمها الا الله ، لا يعلم ما فى غد الا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام الا الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد الا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة الا الله " . (٢)

ولو ذهبنا نسوق الأحاديث الصحيحة فى اثبات علم الله تعالى لطال المقال ، ولضاق المجال ، وفيما ذكرناه كفاية .

== وكتاب الدعوات ، باب الدعاء عند الاستخارة (٧/١٦٢) ، وسنن أبى داود كتاب الصلاة ، باب فى الاستخارة (رقم الحديث : ١٥٣٨) ، مسند الامام أحمد (٣/٣٤٤) .

(١) متفق عليه ، رواه الامام مالك فى الموطأ ، كتاب قصر الصلاة فى السفر ، باب جامع الصلاة (١/١٧٠) ، والبخارى فى كتاب الموقيت ، باب فضل صلاة العصر (١/١٣٩) ، وكتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (تعرج الملائكة والروح اليه) ، (٨/١٧٧) ، وباب كلام الرب مع جبريل (٨/١٩٥) وسلم ، فى كتاب المساجد ، باب فضل صلاتى الصبح والعصر والمحافظة عليهما (١/٤٣٩) ، رقم الحديث (٦٣٢) .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الاستسقاء ، باب (لا يدرى متى يجيئ المطر الا الله ، (٢/٢٣) ، وفى كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى (عالم الغيب ...) (٨/١٦٦) ، وفى كتاب تفسير القرآن ، باب تفسير سورة الأنعام ، باب : (وعنده مفاتيح الغيب ..) (٥/١٩٣) ، ومسند أحمد (٢/ ٥٢) ، رقم الحديث : ٤٧٦٦ ، ٥١٣٣ ، ٥٢٢٦ .

٣ — صفتا السمع والبصر :

صفتا السمع والبصر من صفات ذاته تعالى ، ويشتق منهما اسماه " السميع " ، و " البصير " .

وأما لفظ " السمع " : فانه فى الأصل مصدر : (سمع ـ يسمع ـ سمعا) ، وكذلك البصر ، فانه مثل الابصار ، ثم يعبر بهذه الألفاظ عن القوى التى يحصل بها الادراك ، فيقال للقوة التى فى العين " بصر " ، والقوة التى يكون بها السمع " سمع " . (١)

ومعنى "السميع": عند السلف : المدرك لجميع الأصوات ، مهما خفتت ، فهو سبحانه وتعالى يسمع السر والنجوى بسمع هو صفة لا يماثل أسماع خلقه ، .

ومعنى البصير : المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان ، مهما لطفت أو بعدت ، فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار ، وهو من فعيل بمعنى " مفعل " ، وهو دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذى يليق به . (٢)

وقد اتفق المتكلمون بأسرهم على اثبات السمع والبصر له تعالى ، ولكن وقع الخلاف بينهم فى معناهما ، فذهب الكعبى والنظام والبغداديون من المعتزلة والفلاسفة الاسلاميون وأبو الحسين البصرى الى القول بأن الله تعالى سميع بمعنى أنه عالم بالمسموعات ، وبصير بمعنى أنه عالم بالمبصرات . (٣)

---

(١) بغية المرتاد لابن تيمية (ص ٢٥٢) ، (ط . مكتبة العلوم والحكم ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م) .

(٢) شرح العقيدة الواسطية للهراس(ص ٤٤ — ٤٥) .

(٣) أصول الدين للبغدادى (ص ٩٦ — ٩٧) ، الفرق بين الفرق (ص ١٨١) ، الملل والنحل (١/٧٨) ، محصل الأفكار المتقدمين والمتأخرين : فخرالدين الرازى (ص ٢٤٨) ، الكلابية وأثرها فى المدرسة الأشعرية (ص ٢٥١) .

وبذلك جعـــل المعتزلة سمعه علمه بالمسموعات ، وبصره علمــه بالمبصرات ، وتأولوا ما فى القرآن من ذكر رؤيته وبصره على معنى أنه عالم بالأشياء ، وهذا باطل ، لأن السمع أو البصر للشيء غير العلم به ،[1] فان الأعمى يعلـــم بوجود السماء ، ولا يراها ، والأصم يعلم بوجود الأصوات ، ولا يسمعها .[2]

وان استلزم السمع والبصر العلم : فكل صفة غير الأخرى ، لأن لها مدلــولا خاصا بها ، يختلف عن غيرها ، ولا يلزم من استلزام السمع والرؤية للعلم : أن يكون الملزوم بمعنى اللازم .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى جملة رده على النفاة : " السمع والبصر ليسا مجرد علم بالمسموعات والمرئى ، وان استلزما ذلك ، على ما هو المعروف من قـــول أئمــة الســنة " .[3]

وقال السيد الشريف الجرجانى : " فقد تقدم فى مباحث العلم : أن طائفة يزعمون أن الادراك ، أعنى " السمع والبصر وسائر أخواتها " نفس " العلـــم " بمتعلقه الذى هو المدرك ، وقد أبطلناه بأنا اذا علمنا شيئا علما تاما جليا ، ثـم أبصرناه : فانا نجد بالبديهية بين الحالتين فرقا ، ونعلم بالضرورة : أن الحالة الثانية تشتمل على أمر زائد على محصول " العلم " ، فيهما ، فذلك الزائد هـــو الابصـــار " .[4]

وظواهر الكتاب والسنة تدل على المغايرة بين العلم من ناحية ، والسمــع والبصر من ناحية أخرى ، يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " ولا يجوز أن يراد بذلــك مجرد العلم بما يسمع ويرى ، لأن الله فرق بين العلم وبين السمع والبصـــــر ،

---

(١) أصول الدين للبغدادى (ص ٩٦ — ٩٧) .
(٢) شرح العقيدة الواسطية (ص ٤٥) ، لوامع الأنوار (١/ ١٤٤) .
(٣) درء تعارض العقل والنقل (٧٠/ ٢٢٥) .
(٤) شرح المواقف للجرجانى (ص ١٤٣) .

وفرق بين السمع والبصر ، وهو لا يفرق بين علم وعلم لتنوع المعلومات ، قال تعالى : (واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، انه هو السميع العليم)[(١)] ، وقال تعالى : (فان عزموا الطلاق فان الله سميع عليم)[(٢)] ، ذكر سمعه لأقوالهم ، وعلمه ليتناول باطن أحوالهم " .[(٣)]

وبعد أن بينا أنه ليس المراد بالسمع والبصر : العلم بالمسموعات والمبصرات، وردنا على القائلين بهذا القول : نرى ماذا يقول ابن كلاب فى هذا الموضوع .

يثبت ابن كلاب وأصحابه صفتى السمع والبصر لله عز وجل ، كغيرها من صفات الكمال ، ويقولون بأنه تعالى لم يزل سميعا بصيرا ، موافقين لما ورد فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال أبو الحسن الأشعرى فى " المقالات " : " قال عبد الله بن كلاب وأصحابه ان الله لم يزل سميعا بصيرا " .[(٤)]

واثبات كونه تعالى سميعا وبصيرا ليس هو مجرد العلم بالمسموعات أو المرئيات، بل هذا يفيد قدرا زائدا على كونه عليما ، ويتضمن أنه عز وجل يسمع بسمع كل مسموع ، ويبصر ببصر كل مبصر .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " اثبات كونه سميعا بصيرا ، وأنه ليس هو مجرد العلم بالمسموعات والمرئيات : هو قول أهل الاثبات قاطبة من أهل السنة والجماعة من السلف والأئمة وأهل الحديث والفقه والتصوف ، والمتكلمين من الصفاتية كأبى محمد بن كلاب وأبى العباس القلانسى وأبى الحسن الأشعرى وأصحابه ،

---

(١) سورة الأعراف (٢٠٠) .

(٢) سورة البقرة (٢٢٧) .

(٣) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٧٤) .

(٤) مقالات الاسلاميين (ص ١٧٣) .

وطائفة من المعتزلة البصريين ، بل قدماؤهم على ذلك ، ويجعلونه سميعا بصيرا لنفسه ، كما يجعلونه عالما قادرا لنفسه ، واثبات ذلك كاثبات كونه متكلما ، بل هو أقوى من بعض الوجوه " .(١)

ومع اثبات الكلابية هاتين الصفتين لله تبارك وتعالى أزليتين قائمتين بالذات الالهية فانهم يثبتون تعلقهما بجميع المسموعات والمرئيات الحاصلة في الدنيا ، مع اختلاف ألسنة الناس ولغاتهم وكثرة عددهم ، " والرب سبحانه وتعالى لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه المسائل ، بل هو سبحانه يكلم العباد يوم القيامة ، ويحاسبهم ، ولا يشغله هذا عن هذا " .(٢)

الا أنهم يجعلون هذا التعلق هو المتجدد عند وجود المسموعات والمرئيات .

يقول ابن تيمية :" والكلابية يقولون في جميع هذا الباب : المتجدد هو تعلق بين الأمر والمأمور ، وبين الارادة والمراد ، وبين السمع والبصر والمسموع والمرئي " .(٣)

وما هي هذه المسموعات والمرئيات عند ابن كلاب ؟

أما معنى المسموع عنده : فهو الذات الذي قام به الكلام والصوت ، لا الكلام والصوت نفسهما ،(٤) بخلاف القلانسي الذي يقول بعكس ذلك ، اذ يرى القلانسي أن المسموع هو ما كان كلاما أو صوتا ، لأنه لا يجوز أن يسمع غيره .

يذكر لنا البغدادي قول ابن كلاب والقلانسي في معنى المسموع ، عند ما ينقل اختلاف أصحابه الأشاعرة في ذلك ، فيقول :" واختلف أصحابنا فيما يصح كونه مسموعا ، فقال أبو الحسن الأشعري : كل موجود يجوز كونه مسموعا (مرئيا) ، وقال :

---

(١) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٧٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٢٤٦) .

(٣) جامع الرسائل لابن تيمية (٢/١٨) .

(٤) تبصرة الأدلة لأبي المعين النسفي (١/٤٤٠) .

القلانسى : لا يسمع الا ما كان كلاما أو صوتا ، وهو الصحيح ، وقال عبد الله ابن سعيد : المسموع هو المتكلم وما له صوت ، وبناه على أصل فى أن الأعراض لا تدرك بالحواس" (١).

أما معنى المرئيات فيقول البغدادى فيها : " . . . قال عبد الله بن سعيد والقلانسى بجواز رؤية ما هو قائم بنفسه ، (وأحالا رؤية) ، ومنعا رؤية الأعراض" (٢).

ويذهب ابن كلاب فى صفتى السمع والبصر ـ كما كان يذهب فى صفة العلم ـ الى القول بسمع واحد معين ، وبصر واحد معين متعلق بجميع المسموعات والمبصرات.

يذكر ذلك عنه شيخ الاسلام ابن تيمية بقوله : " وأما مثبتة الصفات كابن كلاب والأشعرى وغيرهما ـ ممن يثبت الصفات ـ ولا يثبت الا واحدا معينا ـ فلا يثبت الا ارادة واحدة تتعلق بكل حادث ، وسمعا واحدا معينا متعلقا بكل مسموع ، وبصرا واحدا معينا متعلقا بكل مرئى ، وكلاما واحدا بالعين يجمع جميع أنواع الكلام ، كما قد عرف من مذهب هؤلاء " (٣).

والذى دفع ابن كلاب الى هذا القول هو نفيه قيام الأفعال الاختيارية بذاته تعالى ، كما ذكرناه سابقا ، لأنه يلزم منها قيام الحوادث بذاته عزوجل ، وهو لا يجوز عنده .

وسيأتى توضيح ذلك فى فصل صفات الأفعال ، ان شاء الله تعالى ، والرد عليه ، وبيان المنهج السليم الذى ارتضاه سلف هذه الأمة ، والذى يتم به اثبات كل صفات الكمال لله تعالى ، بحيث لا ننفى عنه ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم .

واذا بحثنا هذه المسألة عند المحاسبى رأيناه ينتسب الى قول ابن كلاب ، ويسلك مسلكه ، وقد أشار ابن تيمية الى ذلك مؤكدا الموافقة بينه وبين ابن كلاب ، فقال :

---

(١) أصول الدين للبغدادى (ص ٩٧) .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) مجموع الفتاوى (٨/٣٤٣) .

" وأما الحارث المحاسبى : فكان ينتسب الى قول ابن كلاب " ، يعنى فيما قال به ابن كلاب من قيام الصفات اللازمة له تعالى بذاته ، ونفيه أن يقوم بذاته المقدسة ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها ، الى أن قال :" وقد ذكر الحارث فى كتاب فهم القرآن عن أهل السنة فى المسألة قولين ، ورجح قول ابن كلاب ، وذكر ذلك فى قول الله تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)(١)، وأمثال ذلك " .(٢)

وقال ابن تيمية فى موضع آخر :" وأما السمع والبصر والكلام : فقد ذكر الحارث المحاسبى عن أهل السنة فى تجدد ذلك عند وجود المسموع المرئى قولين : والقول بسمع وبصر قديم ، يتعلق بهما — أى المسموع والمبصر — عند وجودهما : قول ابن كلاب وأتباعه والأشعرى ، والقول بتجدد الادراك مع قدم الصفة : قول طوائف كثيرة كالكرامية وطوائف سواهم " .(٣)

وقد بين المحاسبى آراءه فى هذه المسألة عند ما تعرض لتفسير بعض آيات القرآن فى كتابه المذكور ، فقال :" وكذلك قوله عز وجل (انا معكم مستمعون)(٤) ليس معناه احداث سمع ، ولا تكلف لسمع ما يكون من المتكلم فى وقت كلامه ، وانما معنى (انا معكم مستمعون) (وسيرى الله عملكم)(٥) أى المسموع والمبصر لن يخفى على سمعى ولا على بصرى أن أدركه سمعا وبصرا ، لا بالحوادث فى الله ، جل وعز وتعالى عن ذلك ، وكذلك قوله : (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله)(٦) : لا يستحدث بصرا ولا لحظا محدثا فى ذاته ، تعالى عن ذلك " .(٧)

---

(١) سورة التوبة (١٠٥) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/٦ — ٧) .

(٣) جامع الرسائل لابن تيمية (١/١٨١) .

(٤) سورة الشعراء (١٥) .

(٥) سورة التوبة (٩٤) .

(٦) سورة التوبة (١٠٥) .

(٧) فهم القرآن للمحاسبى (ص ٣٤٤ — ٣٤٥) .

ومن ثم هاجم المحاسبي في باقي الصفحات هجوما شديدا على من يذهب الى حدوث السمع والبصر عند وجود المسموع والمبصر ، ودافع عن مذهب الكلابية في ذلك [(١)] .

فقد بين هذه المسألة شيخ الاسلام ابن تيمية خير بيان ، وذكر الخلاف فيها ، وبين وجه الحق الذى يجب اتباعه ، وهو مذهب السلف الذى يقول بسمع وبصر يتجدد لله تعالى ويحدث عند حدوث المسموعات والمبصرات ، مستشهدا على ذلك بالأدلة النقلية والعقلية .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في صدد بيان وجه الدلالة من قوله تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) : " فقوله : (فسيرى الله عملكم) دليل على أنه يراها بعد نزول هذه الآية الكريمة " [(٢)] ، وقوله تعالى : (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) [(٣)] : فقال في وجه دلالة هذه الآية : (ولام " كي " تقتضي أن ما بعدها متأخر عن المعلول ، فنظره تعالى كيف يعملون هو بعد أن جعلهم خلائف " [(٤)] .

وكذلك : (قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله ، والله يسمع تحاوركما) [(٥)] ، قال ابن تيمية فيه : " أخبر تعالى أنه يسمع تحاورهما حين كانت تجادل ، وتشتكي الى الله " [(٦)] .

كما استشهد ابن تيمية بقول ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام : (ان ربي لسميع الدعاء) [(٧)] ، وقوله تعالى : (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) [(٨)]

---

(١) فهم القرآن للمحاسبي (ص ٣٤٥ — ٣٤٦)، الكلابية وأثرها ... (ص ١٥٥) .

(٢) جامع الرسائل (٢/ ١٥ — ١٦) .

(٣) سورة يونس (١٤) .

(٤) جامع الرسائل (٢/ ١٦) .

(٥) سورة المجادلة (١) .

(٦) جامع الرسائل (٢/ ١٦) .

(٧) سورة ابراهيم (٣٩) .

(٨) سورة آل عمران (١٨١) .

وقوله تعالى : لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام: (انني معكما أسمع وأرى)(١).

ثم استدل بالأحاديث الشريفة ، كقول النبي صلى الله عليه وسلم :" اذا قال (الامام) سمع الله لمن حمده ، فقولوا : ربنا ولك الحمد ، يسمع الله لكم "،(٢) وقال فيه :" فجعل ـ أى النبي صلى الله عليه وسلم ـ سمعه تعالى لنا جزاءً وجوابا للحمد ، فيكون ذلك بعد الحمد ، والسمع يتضمن مع سمع القول قبوله واجابته "(٣).

كما استدل شيخ الاسلام ابن تيمية بالدليل العقلي على أن الله تعالى يرى ويسمع الأقوال والأعمال التى تستجد وتحدث بعد وجودها ، فقال :" والعقل الصريح يدل على ذلك ، فان المعدوم لا يرى ولا يسمع بصريح العقل واتفاق العقلاء"(٤).

وقد ناقش ابن تيمية هؤلاء النافين أن يتجدد لله تعالى سمع وبصر بعد وجود المسموع والمبصر ، فقال :" فاذا خلق العباد ، وعملوا وقالوا ، فاما أن نقول : انه يرى أعمالهم ويسمع أقوالهم ، واما لا يرى ولا يسمع ، فان نفى ذلك تعطيل لهاتين الصفتين ، وتكذيب للقرآن ، وهما صفتا كمال لا نقص فيه ، فمن يسمع ويبصر أكمل ممن لا يسمع ولا يبصر "(٥).

وقال :" والمخلوق يتصف بأنه يسمع ويبصر ، فيمتنع اتصاف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق سبحانه وتعالى ، وقد عاب الله تعالى من يعبد من لا يسمع ولا يبصر فى غير موضع ، ولأنه حى ، والحى اذا لم يتصف بالسمع والبصر ، اتصف بضد ذلك ، وهو العمى والصمم ، وذلك ممتنع "(٦).

---

(١) سورة طه (٤٦) .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الصلاة ، باب التشهد في الصلاة ، وسنن النسائي ، كتاب الامامة ، باب مبادرة الإمام ، (٢/ ٩٧) ، وفى كتاب الافتتاح ، باب قوله ربنا ولك الحمد ، (٢/ ١٩٧) ، وباب نوع آخر من التشهد ، (٢/ ٢٤١) ، (ط. دار الثقافة ، بيروت) .

(٣) جامع الرسائل (٢/ ١٦) .

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٧) .

(٥) جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ١٧) .

(٦) المصدر نفسه .

ومضى شيخ الاسلام ابن تيمية في مناقشته لهؤلاء ، وتقريره لمذهب السلف في صفتي السمع والبصر ، فقال : " والمقصود هنا : أنه اذا كان يسمع ويبصر الأقوال والأعمال بعد أن وجدت ، فاما أن يقال : انه تجدد شيء ، واما أن يقال : لم يتجدد شيء ، فان كان لم يتجدد ، وكان لا يسمعها ولا يبصرها ، فهو بعد أن خلقها لا يسمعها ولا يبصرها ، وان تجدد شيء : فاما أن يكون وجودا أو عدما ، فان كان عدما فلم يتجدد شيء ، وان كان وجودا : فاما أن يكون قائما بذات الله تعالى ، أو قائما بذات غيره ، والثاني يستلزم أن يكون ذلك الغير هو الذى يسمع ويرى ، فتعين أن ذلك السمع والرؤية الموجودين قائم بذات الله ، وهذا لا حيلة فيه ". (١)

ثم رد الامام ابن تيمية على القائلين بأن المتجدد هو التعلق بين السمع والبصر والمسموع والمرئي ، وهم الكلابية والأشعرية ، فقال في رده عليهم : " فيقال لهم : هذا التعلق اما أن يكون وجودا ، واما أن يكون عدما ، فان كان عدما فلم يتجدد شيء ، فان العدم لا شيء ، وان كان وجودا بطل قولهم ". (٢)

وقال أيضا : " وأيضا فحدوث تعلق هو نسبة واضافة من غير حدوث ما يوجب ذلك ممتنع ، فلا تحدث نسبة واضافة الا بحدوث أمر وجودى يقتضي ذلك ". (٣)

ثم قال : " والطوائف متفقون على حدوث نسب واضافات وتعلقات ، لكن حدوث النسب بدون حدوث ما يوجبها ممتنع ، فلا تكون نسبة واضافة الا تابعة لصفة ثبوتية ، كالأبوة والبنوة ، والفوقية والتحتية ، والتيامن والتياسر ، فانها لابد أن تستلزم أمورا ثبوتية ". (٤)

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية (٢/١٧ — ١٨) .

(٢) " " " " (٢/١٨) .

(٣) " " " " (٢/١٨) .

(٤) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية فى أفعال الرب الاختيارية : " وكذلك كونه خالقا ورازقا ومحسنا وعادلا ، فان هذه أفعال فعلها بمشيئته وقدرته ، اذ كان يخلق بمشيئته ويرزق بمشيئته ويعدل بمشيئته ، والذى عليه جماهير المسلمين من السلف والخلف : أن الخلق غير المخلوق ، فالخلق فعل الخالق ، والمخلوق مفعوله ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يستعيذ بأفعال الرب وصفاته ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : " أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك "(١) ، فاستعاذ بمعافاته ، كما استعاذ برضاه "(٢) .

وبهذا يتضح لنا : أن ما ذهبت اليه الكلابية من أن الله عز وجل السمع والبصر الأزليين القائمين بذاته تعالى : صحيح وموافق لمذهب السلف ، كما دل عليه الكتاب والسنة ، كما مر معنا فى هذا المبحث .

وأما ما ذهبوا اليه من جعلهم تعلق السمع والبصر بالمسموعات والمبصرات هو المتجدد عند وجودهما : فانه غير صحيح وغير موافق لما ذهب اليه علماء السلف.

---

(١) الحديث عن عائشة رضى الله عنها ، رواه مسلم فى كتاب الصلاة ، باب ما يقال فى الركوع والسجود (٣٥٢/١) .

(٢) جامع الرسائل (١٩/١) .

٤ ــ صفة الارادة :

اتفق أهل السنة على اثبات الارادة الأزلية له تعالى ، وتعلقها بجميع ما فى الكون ، فلايحدث فى العالم الا ما يريده الله تعالى ، ولا يمتنع ما يريده ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقد أثبت ابن كلاب صفة الارادة الالهية بنفس الأسلوب الذى أثبت به الصفات السابقة ، حيث قال : " ان الله مريد ، ومعنى أنه مريد أن له ارادة " .(١)

وبذلك اتبع ابن كلاب سلف الأمة وأئمتها فى اثبات صفة المشيئة لله عز وجل ، أزلية قائمة بذاته تعالى ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

أما الكتاب فقد قال تعالى : حكاية عن الرجل الصالح وهو يعظ صاحبه زاجرا له بسبب ما وقع فيه من الكفر : (ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله)(٢) ، وقال تعالى : (وما تشاؤون الا أن يشاء الله ، ان الله كان عليما حكيما)(٣) ، وقال تعالى : (ان الله يحكم ما يريد)(٤) ، وقال تعالى : (ولو شاء ربك ما فعلوه)(٥) ، وقال تعالى : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا)(٦) .

ففى هذه الآيات الكريمة دلالة واضحة على اثبات صفة الارادة والمشيئة لله تعالى ، وهى مشيئة الله الشاملة النافذة لكل شيء ، والنصوص فى ذلك لا تحصى كثرتها .

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ١٦٩ ، ٥٤٦) .

(٢) سورة الكهف (٣٩) .

(٣) سورة الانسان (٣٠) .

(٤) سورة المائدة (١) .

(٥) سورة الأنعام (١١٢) .

(٦) سورة يونس (٩٩) .

وأما السنة : فمن ذلك الحديث : " من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين "(١) ، والحديث : " من يرد الله به خيرا يصب منه "(٢) ، وغير ذلك من الأحاديث الشريفة .

فقد أجمعت الأمة ، سلفها وخلفها ، في جميع الأعصار والأمصار على اطلاق قولهم : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وتلقوه بالقبول ، فأصبح هذا مذهب السلف ومعتقد أهل السنة أجمعين .(٣)

وقبل أن أبدأ في تفصيل مذهب ابن كلاب في الارادة الالهية أود أن أبين الخلاف حولها بين الفرق الاسلامية في عصر ابن كلاب .

لقد استعرض شيخ الاسلام ابن تيمية الأقوال المختلفة في صفة الارادة ، وأوصلها الى أربعة ، منهم الكلابية ، وبين خطأ كل فرقة منها ، ثم بين القول الصحيح في نهاية عرضه لها ، فقال :

" وهو سبحانه وتعالى اذا أراد شيئا من ذلك فللناس فيها أقوال ، القول الأول : الارادة قديمة أزلية واحدة ، وانما يتجدد تعلقها بالمراد ، ونسبتها الى الجميع واحدة ، ولكن من خواص الارادة أنها تخصص بلا مخصص ، فهذا قول ابن كلاب والأشعري ومن تابعهما ، وكثير من العقلاء يقول : ان هذا فساده معلوم بالاضطرار ، حتى قال أبو البركات : ليس في العقلاء من قال بهذا ...

والقول الثاني : قول من يقول بارادة واحدة قديمة ، مثل هؤلاء ، لكن يقول : تحدث عن تجدد الأفعال ارادات في ذاته بتلك المشيئة القديمة ،

---

(١) متفق عليه ، صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيرا (٢٦/١) وصحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة (٢/٨١٧) وفي الامارة ، باب قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين " ، (٣/١٥٢٤) .

(٢) البخاري ، كتاب المرضى ، باب ما جاء في كفارة المرضى (٣/٧) ، والموطأ ، كتاب العين ، باب ما جاء في أجر المريض (٢/٩٤١) .

(٣) الفتاوى (٦/١١٥ — ١١٦) ، مجموعة الرسائل الكبرى (٢/٧٥) .

كما تقوله الكرامية وغيرهم ، وهؤلاء أقرب من حيث أثبتوا ارادات الأفعال ، ولكن يلزمهم ما لزم أولئك من حيث أثبتوا حوادث بلا سبب حادث ، وتخصيصات بلا مخصص.

والقول الثالث : قول الجهمية والمعتزلة الذين ينفون قيام الارادة به ، ثم اما أن يقولوا بنفى الارادة ، أو يفسرونها بنفس الأمر والفعل ، أو يقولوا بحدوث ارادة لا فى محل ، كقول البصريين ، وكل هذه الأقوال قد علم أيضا فسادها .(١)

أما رأى المعتزلة فى الارادة : فقد اتضح لنا من النص السابق أن المعتزلة متفقون على أن الارادة ليست معنى أزليا قائما بذاته تعالى ، فنفوا كونه تعالى مريدا على الحقيقة ، شأنهم فى جميع صفات الله تعالى .

لكنهم اختلفوا فى تفسير ما جاء فى القرآن الكريم من نسبة الارادة اليه تعالى ، ففسرها بعضهم بالعلم ، وبعضهم بالخلق والأمر ، وبعضهم بكونه تعالى غير مغلوب ولا مكره ، وفسرها الكعبى(٢) بعلمه تعالى فى أفعال نفسه ، وبأمره تعالى فى أفعال غيره .(٣)

واذا أردنا أن نفصل القول فيما ذهب اليه المعتزلة فى مسألة الارادة نستطيع أن نقول :

لقد اختلف شيوخ المعتزلة فى موقفهم من الارادة الالهية ، وأهم آرائهم فى ذلك رأيان :

أحدهما : رأى البصريين منهم ، ويتخلص هذا الرأى فى أن الله تعالى مريد بارادة حادثة لا فى محل .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٠١ — ٣٠٢) .

(٢) هو عبد الله بن أحمد بن محمود ، الكعبى ، أبو القاسم ، أحد أئمة المعتزلة ، كان رأس طائفة منهم تسمى " الكعبية " ، وله آراء ومقالات فى الكلام انفرد بها ، وتوفى ببلخ سنة (٣١٩ هـ) ، الأعلام (٤/ ٦٥) .

(٣) أصول الدين للبغدادى (ص ١٠٢ — ١٠٣) .

يقول القاضى عبد الجبار من المعتزلة : " وقال شيخنا أبو على وأبو هاشم ومن تبعهما : انه تعالى مريد فى الحقيقة ، وأنه يحصل مريدا بعد ما لم يكن اذا فعل الارادة ، وأنه يريد بارادة محدثة ، ولا يصح أن يريد لنفسه ولا بارادة قديمة ، وأن ارادته توجد لا فى محل " (١) .

ولا شك أن قول البصريين بحدوث ارادة الله تعالى باطل ، ذلك لأن الارادة صفة ، والصفة قديمة بموصوفها .

وقد ثبت أن إحداث المحدثات موقوف على الارادة ، فلو كانت الارادة محدثة لافتقر احداثها الى ارادة أخرى ، ولزم التسلسل ، والقول بالتسلسل باطل ، فما يؤدى اليه مثله من القول بحدوث الارادة (٢) .

وان قول البصريين : " الله مريد بارادة . . . لا فى محل " باطل أيضا ، يقول الشهرستانى فى معرض ردّه على من قال بهذا القول : " ويستحيل كون الارادة لا فى محل ، فان الارادة من جملة الأعراض ، واحتياج الأعراض الى المحل صفة ذاتية لها ، ومن المحال ثبوتها دون الوصف الذاتى " (٣) .

واذا كانت الأعراض تستلزم محلا تقوم به : فان الارادة تستلزم محلا تقوم به ، كسائر الأعراض ، وعليه فان القول بأن الله مريد بارادة لا فى محل باطل ، فيلزمهم أيضا من قولهم هذا قيام الصفة بنفسها وهو من أبطل الباطل (٤) .

وتبين أن ارادته تعالى أزلية قائمة فى ذاته تعالى .

والرأى الثانى : هو رأى هؤلاء الذين ينفون الارادة عن الله أصلا ، ويقولون : ان الله تعالى غير مريد على الحقيقة ، وأنه لا يوصف بها الا مجازا ،

---

(١) المغنى (٣/٦) ، شرح الأصول الخمسة (ص ٤٤٠) .

(٢) نهاية الاقدام (ص ٢٤٥) .

(٣) نهاية الاقدام (ص ٢٤٣) .

(٤) شرح العقيدة الواسطية (ص ٤٦) .

فاذا قلنا : أن الله تعالى مريد فى الأزل فمعناه : أنه عالم قادر ، غير مكره على فعله ، ولا كاره له ، واذا قلنا : انه مريد لأفعاله ، فالمراد : أنه خالقها ومنشئها على وفق علمه ، واذا قلنا : انه مريد لأفعال عباده فالمعنى : أنه آمر بها (١).

يقول القاضى عبد الجبار : " للمحكى عن شيخنا أبى الهذيل (٢) : أن ارادة الله غير المراد ، فارادته تعالى لما خلقه هى خلقه له ، وخلق الشيء عنده غير الشيء ، وارادته لطاعات العباد هى أمرهم بها " (٣).

وقال فى موضع آخر : " وقال الجاحظ (٤) : انه تعالى مريد بمعنى أن السهو منه فى أفعاله والجهل بها لا يجوز عليه " (٥).

وقال القاضى أيضا : " وقال ابراهيم النظام (٦) : ان ارادة الله تعالى انما هى فعله أو أمره أو حكمه " (٧).

---

(١) الفرق بين الفرق (ص ١٨٢) ، أصول الدين للبغدادى (ص ٩٠) ، نهاية الاقدام (٢٣٨).

(٢) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدى ، مولى عبد القيس ، من أئمة المعتزلة ، اليه تنسب الفرقة الهذيلية ، ولد بالبصرة ، واشتهر بعلم الكلام ، وسمى بالعلاف ، لأن داره بالبصرة كانت بالعلافين ، وتوفى بسامراء سنة (٢٣٥ هـ) ، أنظر : لسان الميزان لابن حجر (٥/٤١٣) ، الأعلام (٧/١٣١).

(٣) المغنى للقاضى عبد الجبار (٦/٤).

(٤) هو عمرو بن بحر بن محبوب ، أبو عثمان ، الشهير بالجاحظ ، كبير أئمة الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظية ، من المعتزلة ، مولده ووفاته بالبصرة (١٦٣ هـ - ٢٥٥ هـ) ، له تصانيف كثيرة ، منها : الحيوان ، والبيان والتبيين ، والتاج والبخلاء وغير ذلك ، الأعلام (٥/٧٤).

(٥) المغنى (٦/٤).

(٦) هو ابراهيم بن سيار بن هانئ ، البصرى ، أبو اسحاق ، النظام ، من أئمة المعتزلة ، تبحر فى الفلسفة ، وانفرد بآراء والمقالات ، تابعته فيها فرقة من المعتزلة سميت النظامية ، نسبة اليه ، الفرق بين الفرق (ص ١٣١) ، الأعلام (١/٤٣).

(٧) المغنى (٦/٤).

هذه مجموعة من الآراء المختلفة فى صفة الارادة لدى أئمة المعتزلة ، وتبدوا فيها مظاهر الضعف .

نقول لهم توضيحا لذلك:يلزم من نفيكم الارادة عن الله تعالى وصفه بالعجز ، وهو صفة نقص ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ووصف الله بالنقص باطل ،فما يؤدى الى ذلك باطل .

وبعد عرضنا لآراء الفرق ،وخاصة منها المعتزلة ، نرجع الى صلب الموضوع وهو : مذهب الكلابية فى الارادة الالهية ، ونقول — وبالله التوفيق — :

يذكر الأشعرى عن ابن كلاب فى صفة الارادة واتصافه تعالى بها أنه قال : " ان الله سبحانه وتعالى لم يزل مريدا بارادة يستحيل أن يقال هى الله أو يقال هى غيره ." (١)

ويذكر شيخ الاسلام ابن تيمية مذهب الكلابية فى صفة الارادة ، فى تعليقه على أجوبة المتكلمين فى حدوث العالم ، ردا على الفلاسفة ويقول : " ان الارادة

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ٥١٤) .

لذاتها اقتضت التعلق بايجاده في ذلك الوقت ، قلت : (أى ابن تيمية) : هذا جواب جمهور الصفاتية الكلابية : كابن كلاب والأشعرى وأصحابهما .(١)

وقد أوردنا سابقا قولا لابن كلاب يؤكد هذا المعنى ، نقله عنه شيخ الاسلام ، أثناء استعراضه لمذاهب الناس فى صفة الارادة ، حيث قال : " قيل : الارادة قديمة أزلية واحدة ، وانما يتجدد تعلقها بالمراد ، ونسبتها الى الجميع واحدة ، ولكن من خواص الارادة أنها تخصص بلا مخصص ، فهذا قول ابن كلاب والأشعرى ومن تابعهما " .(٢)

ثم عقب شيخ الاسلام على رأى ابن كلاب هذا بقوله : " وكثير من العقلاء يقول : ان هذا فساده معلوم بالاضطرار ، حتى قال أبو البركات : ليس فى العقلاء من قال بهذا " .(٣)

اذن : على ضوء ما تقدم من النصوص يمكن أن نجعل رأى ابن كلاب فى الارادة الالهية كما يلى :

١ ـ ان صفة الارادة ثابتة لله تعالى ، قائمة به ، والله عز وجل لم يزل مريدا بارادة قائمة به ، وهنا يتفق ابن كلاب مع أئمة السلف .

٢ ـ لارادة الله تبارك وتعالى خصائص لا توجد فى ارادة المخلوقين ، لأنه تعالى ليس كمثله شيء ، فمن خصائص الارادة : أنها واحدة ، ليست متكثرة ، وقديمة ، ليست حادثة ، ومخصصة لذاتها ، تخصص بلا سبب وبلا مخصص ، وشاملة متعلقة بجميع الكائنات ، ليست قاصرة على بعضها دون بعض . . . الى غير ذلك من الخصائص .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/٣٢٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/٣٠٢) ، جامع الرسائل (١/١٨٢) .

(٣) الفتاوى (١٦/٣٠٢) (٥/٥٦٠) ،كتاب شرح حديث النزول (ص١٧٤) .

ونريد هنا أن نفصل قول ابن كلاب فى هذه الخصائص لصفة الارادة ، لنقارن بينه وبين مذهب السلف فيها ، حتى نستطيع أن نبين مدى موافقته أو مخالفته لمذهب السلف فى هذه النقاط الأربعة .

١ — وحدة الارادة :

ذهب عبد الله بن كلاب الى أن الارادة الالهية واحدة ، ونسبتها الى الجميع واحدة ، (١) والتى تتجدد وتتعدد هى تعلقها بالمراد ، كما سبق آنفا .

فيثبت بذلك ابن كلاب ارادة واحدة أزلية تعلقت فى الأزل بجميع المرادات ، وأن التجدد والحدوث يحدث فى تعلقها ، ولم يكن هناك تعدد فى الصفة ، لأن الصفة واحدة ، ومتعلقاتها متعددة ، وتبعه على ذلك أبو الحسن الأشعرى .

والذى دفع ابن كلاب الى هذا القول هو نفيه قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى ، كما بيناه سابقا .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية مبينا قول ابن كلاب فى وحدة الارادة : " وأما مثبتة الصفات كابن كلاب والأشعرى وغيرهما ممن يثبت الصفات ، ولا يثبت الا واحدا معينا ، ولا يثبت الا ارادة واحدة تتعلق بكل حادث ، وسمعا واحدا معينا متعلقا بكل مسموع ، وبصرا واحدا معينا متعلقا بكل مرئى .

وكلاما واحدا بالعين ، يجمع جميع أنواع الكلام ، كما عرف من مذهب هؤلاء ، فهؤلاء يقولون : جميع الحادثات صادرة عن تلك الارادة الواحدة ، العين المفردة ، التى ترجح أحد المتماثلين ، لا بمرجح ، وهى المحبة والرضا وغير ذلك " . (٢)

ويقول فى موضع آخر : فقد جوز ابن كلاب وأتباعه وجود جميع الكائنات بارادة واحدة قديمة ... . (٣)

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٤/ ٢١٥ — ٢١٦) .

(٢) الاحتجاج بالقدر لابن تيمية (ص ٧٠ — ٧٢) ، مجموع الفتاوى (٨/ ٣٤٣) .

(٣) منهاج السنة (١/ ١٢٥) ، طبعة مكتبة العروبة .

وقال شيخ الاسلام أيضا : " كثير من النظار كابن كلاب وموافقيه كالأشعري وأكثر متبعيه من أهل الكلام والرأى والحديث والتصوف من أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم . . . يقولون انه يعلم المعلومات كلها بعلم واحد بالعين ، ويريد المرادات كلها بارادة واحدة بالعين ، بل يقولون ان كلامه الذى يتضمن كل أمر أمر به ، وكل خبر أخبر به هو أيضا واحد بالعين ، وان كان جمهور العقلاء يقولون ان فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام " .(١)

فان ابن كلاب فى رأيه هذا ـ كما قال ابن تيمية ـ لم يوفق الى المذهب الحق وهو مذهب علماء السلف ، لأن رأى السلف يختلف عن رأيه فى وحدة الارادة ، اذ يرى السلف : أن جنس الارادة واحد ، لكن تتعدد الارادات بتعدد المراد ، فهى جنس تحته أنواع وأفراد ، ولكل فعل ارادة خاصة تخصه ، فارادة هذا غير ارادة ذلك .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " فان ارادة هذا الحادث ليست ارادة هذا الحادث " .(٢)

ويلزم اراداته تعالى الشيء كونه ، (يعنى الكونية) بخلاف ارادة المخلوق ، فقد يريد المخلوق ولا يقع ، وفعله سبحانه لشيء يستلزم أن يكون ارادة ، فاذا كان لم يزل فعلا كان لم يزل مريدا .

يقول ابن تيمية رحمه الله : والقول الصحيح هو أن الله عز وجل لم يزل مريدا بارادات متعاقبة ، فنوع الارادة قديم ، وأما ارادة الشيء المعين فانما يريده فى وقته " .(٣)

---

(١) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٢٧) ، درء تعارض (١٧٢/٢) .

(٢) منهاج السنة (١٢٥/١) ، طبعة العروبة .

(٣) مجموع الفتاوى (٣٠٢/١٦) .

ويقول شارح الطحاوية فى قوله تعالى : (فعال لما يريد ...)[١] : " والآية تدل على أمور ، منها : أن فعله وارادته متلازمان ، فما أراد أن يفعل فعل ، وما فعله فقد أراده ، بخلاف المخلوق ، فانه يريد ما لا يفعل ، وقد يفعل ما لا يريده ، فما ثم فعال لما يريد الا الله وحده ، ومنها : اثبات ارادات متعددة بحسب الأفعال ، وأن كل فعل له ارادة تخصه ، هذا هو المعقول فى الفطر ، فشأنه سبحانه أنه يريد على الدوام ، ويفعل ما يريد "[٢] .

٢ — تخصيص الارادة :

وأما فى مسألة تخصيص الارادة : هل الارادة ترجح لذاتها ، أو تحتاج فى ترجيحها الى سبب ؟ اختلف المتكلمون ، فذهب جماعة من المعتزلة الى أن المخصص هو العلم ، اذ به يترتب النفع على ايجاد الفعل النافع ، ويسمى ذلك عندهم بالداعى وهو الارادة عندهم ، فهم ذهبوا الى تعليل أفعاله تعالى بالأعراض ، وقالوا : وجوب الفعل مع الداعى لا ينافى الاختيار ، بل يحققه[٣] .

وذهبت الكرامية الى أن الارادة القديمة هى الموجب المخصص لما قام بذاته تعالى من الارادات وما خلقه من المخلوقات ، بلا سبب أصلا ، وقالوا : من شأن الارادة أن تخصص مثلا على مثل ، وأن تتقدم على المراد تقدما لا أول له[٤] .

وقد خالف ابن كلاب المعتزلة فى هذه المسألة ، وذهب هو وأصحابه الى كون الارادة مرجحة أحد المتقابلين على الآخر ، وأن شأنها تمييز الشيء عن غيره لذاتها ، ولا يتوقف ترجيحها على سبب .

---

(١) سورة البروج (١٦) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٣٨) .

(٣) حاشية الكلانبوى (ص ٣٥١) .

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/٤٥٧) ، (٥/٥٦٠) ، درء تعارض (٣/٦٣) .

حيث قرر ابن كلاب ان المخصص هو الارادة القديمة التى نسبتها الى جميع المرادات سواء ، لأنه من شأن الارادة أن تخصص أحد المثلين عن الآخر بلا سبب، ولهذا بنت الكلابية أصولهم على أن التخصيص بأحد الوقتين لابد له من مخصص . (١)

اذن : الارادة الالهية عند ابن كلاب : صفة شأنها تمييز الشيء على مثله ، لأن الحادثات تحدث بارادة قديمة تعلقت بها ، فتميزها الارادة عن أضدادها المماثلة لها .

ذكر ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية بقوله : " وصار المتكلمون من الجهمية والمعتزلة والكلابية والكرامية يردون على الفلاسفة ، ويدعون : أن القادر المختار يرجح أحد المقدورين المتماثلين على الآخر المماثل له ، بلا سبب أصلا ، وعلى هذا الأصل بنوا كون الله تعالى خالقا للمخلوقات " . (٢)

وبين شيخ الاسلام مسألة ترجيح أحد المتماثلين على الآخر عند الكلابية ، أثناء كلامه عن مقارنة المراد للارادة ، فقال : " وان قيل بأن المراد يجوز مقارنته للارادة ، ويجوز تأخره عنه : فانه على هذا التقدير : يجوز حدوث جميع العالم بارادة قديمة أزلية ، من غير تجدد شيء ، كما تقول ذلك الكلابية ومن وافقهم من الأشعرية والكرامية والفقهاء المنسوبين الى الأئمة الأربعة وغيرهم ، وعلى هذا التقدير : فانه يجوز حدوث الحوادث بلا سبب حادث ، وترجيح أحد المتماثلين على الآخر بمجرد الارادة القديمة ، وعلى هذا التقدير فانه يبطل حجة القائلين بقدم العالم " . (٣)

اذن : اتفقت الفرق الثلاثة المثبتة للصفات ــ وهى الكلابية والكرامية والأشعرية ــ على أن المرجح هو الارادة القديمة الأزلية ، ولكن هذا لا يفضى الى الايجاب ، لأن الارادة ــ فى رأيهم ــ لا توجب المراد . (٤)

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٩/١٦٨) .

(٢) ــ مجموع الفتاوى (٥/٥٥٩ ــ ٥٦٠) ، كتاب شرح حديث النزول (ص ١٧٤) ، كتاب الصفدية لابن تيمية (٢/١٠٢) ، بتحقيق د / محمد رشاد سالم ، (ط . مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٦ هـ) .

(٣) منهاج السنة (١/٢٧٥) ، طبعة مكتبة العروبة .

(٤) درء تعارض (٣/٦٣) .

الا أن القول بتخصيص الارادة وترجيحها لذاتها : قول لم يقل به السلف أبدا ، وهو مما ينكره العقلاء ، كما مر معنا سابقا ، بل مضى السلف الى استحالة التخصيص من غير مخصص، (١) لذلك لا بد لنا من عرض توضيح شيخ الاسلام ابن تيمية لهذا القول في ضوء عقيدة السلف .

فقد وضح شيخ الاسلام ابن تيمية هذه المسألة في فتاويه، وبين مذهب السلف فيها ، ورد على القائلين بتخصيص الارادة لذاتها ، وبين فساد قولهم، وأسهب في ذلك ، ومما قال فيه :" انه — أي ابن كلاب — جعل الارادة تخصص لذاتها ، ولم يجعل عند وجود الحوادث شيئا حدث حتى تخصص أو لا تخصص ، بل تجددت نسبة عدمية ليست وجودا ، وهذا ليس بشيء ، فلم يتجدد شيء ، فصارت الحوادث تحدث وتتخصص بلا سبب حادث ولا مخصص" . (٢)

وقال في موضع آخر :" واذا قيل : الارادة والقدرة القديمة خصصت ، قيل : نسبة الارادة القديمة الى جميع الأوقات سواء ، وأيضا : فلا تعقل ارادة تخصص أحد المتماثلين الا بسبب ، يوجب التخصيص ، وأيضا : فلابد عند وجود المراد من سبب يقتضي حدوثه ، والا فلو كان مجرد ما تقدم من الارادة والقدرة كافيا للزم وجوده قبل ذلك ، لأنه مع الارادة التامة والقدرة التامة يجب وجود المقدور" . (٣)

واذا تساءلنا عن الالزامات والنتائج المترتبة على قولهم بأن صفة الارادة كغيرها من صفات المعاني واحدة بعينها ، وهي ترجح أحد المتماثلين لا بمرجح ؟ يجيب شيخ الاسلام ابن تيمية على هذا التساؤل بقوله :" وهؤلاء اذا شهدوا هذا : لم يبق فرق بين جميع الحوادث في الحسن والقبح ، الا من حيث موافقتها للانسان ومخالفة بعضها له ، فما وافق مراده ومحبوبه كان حسنا عنده ، وما خالف ذلك

---

(١) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٣٠١ — ٣٠٢) .

(٣) جامع الرسائل (١/ ٢٠ — ٢١) .

كان قبيحا عنده ، فلا يكون فى نفس الأمر حسنة يحبها الله ، ولا سيئة يكرهها ، الا بمعنى : أن الحسنة هى ما قرن بها لذة صاحبها ، والسيئة ما قرن بها ألم صاحبها من غير فرق يعود اليه ، ولا الى الأفعال أصلا ، ولهذا كان هؤلاء لا يثبتون حسنا ولا قبيحا الا بمعنى الملائم للطبع ، والمنافى له " (١).

ثم ذكر ابن تيمية القول الصحيح وهو ما ذهب اليه السلف وأيده ، وذلك قولهم : " ان الله عز وجل لم يزل مريدا بارادات متعاقبة ، فنوع الارادة قديم ، وأما ارادة الشيء المعين فانما يريده فى وقته " .

وعلق على هذا القول بقوله : " وهو سبحانه وتعالى يقدر الأشياء ويكتبها ، ثم بعد ذلك يخلقها ، فهو اذا قدرها علم ما سيفعله ، وأراد فعله فى الوقت المستقبل ، لكن لم يرد فعله فى تلك الحال ، فاذا جاء وقته أراد فعله " (٢).

٣ ــ قدم الارادة :

يذهب ابن كلاب وأصحابه فى مسألة قدم الارادة الى أن الارادة ليست الا قديمة تتعلق بالحوادث فى الأزل .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله :

" وكذلك الارادة والمشيئة فيها للصفاتية ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها ليست الا قديمة ، وهو قول ابن كلاب والأشعرى وأتباعهما ، الثانى : أنها ليست الا حادثة (وهو قول الكرامية) ، والفرق بين هذا وبين قول المعتزلة البصرية : أن المعتزلة يقولون بحدوثها لا فى محل ،

---

(١) الاحتجاج بالقدر لابن تيمية (ص ٧١ ــ ٧٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٦ / ٣٠٢) .

لامتناع كونه محلا للحوادث عندهم ، وهؤلاء يقولون : تقوم بذاته ، كما يقوم الكلام بذاته ، والثالث : انها قديمة وحادثة ، وهو قول طوائف من الكرامية وأهل الحديث والصوفية وغيرهم " (١) .

اذن : القول بقدم الارادة هو قول ابن كلاب والأشعرى وأتباعهما من بعدهما من الأشاعرة ، والقول بأنها قديمة وحادثة هو قول طوائف من أهل الكلام.

وقد سبق أن ذكرنا نصوصا أخرى تنص على أن ابن كلاب كان يقول بارادة قديمة أزلية (٢) .

والقول بقدم الارادة هو قول الحارث المحاسبى أيضا ، فانه يرى الارادة قديمة ويربط بين القول بقدمها وقدم العلم ، فالبارئ تعالى — فى رأيه — يعلم ما يحدثه من الحادثات بعلم قديم ، ولهذا يجب أن تكون ارادته لحدوث هذا الحادث فى وقته المعلوم بصفتيه المعينة أيضا ، وانما تحدث الارادات نتيجة لعدم علم المريد بما تتعلق به ارادته .

يقول المحاسبى : " فلم يزل تعالى يريد ما يعلم أنه يكون ، لم يستحدث ارادة لم تكن ، لأن الارادات انما تحدث على قدر ما لم يعلم المريد ، فأما من لم يزل يعلم ما يكون وما لا يكون من خير وشر ، فقد أراد على علم لا يحدث له بداء، اذ كان لا يحدث فيه علم به " (٣) .

ثم يذكر المحاسبى فريقين ممن ذهبوا الى القول بحدوث الإرادة ، ناعتا أحدهما بأنه يدعى السنة ، والثانى : بأنه أهل البدعة ، ويقول : " فأما من ادعى السنة فأراد اثبات القدر ، فقال : ارادة الله جل وعز أحدث من تقديره ،

---

(١) جامع الرسائل (١/١٨٢) .
(٢) مجموع الفتاوى (٥/٥٦٠) ، (١٦/٣٠١) ، درء تعارض (٩/١٦٨) ، (٣/٦٣) ، منهاج السنة (١/١٢٥ ، ١٣١ ، ٢٧٥) ، كتاب شرح حديث النزول (ص ٧٤) .
(٣) العقل وفهم القرآن للمحاسبى (ص ٣٤١) الكلابية واثرها فى المدرسة الأشعرية (ص ١٣٦) .

تقديره سابق الارادة ، وأما بعض أهل البدع ، فزعموا أن الارادة انما هى خلق حادث ، وليست بمخلوقة ، ولكن الله جل وعز بها كون المخلوق ، فزعمت أن الخلق غير المخلوق ، وأن الخلق هو الارادة ، وأنها ليست بصفة الله من نفسه ، وجل الله أن يكون شيئ حدث لغير ارادة منه ، وجل عن البداءات وتقلب الارادات "[1] .

ولعل المحاسبى يقصد بالطائفة الأولى التى ذكرت أنها ادعت السنة : " الكرامية "[2] .

ويقصد بالفرقة الثانية التى دعاها " بعض أهل البدع " المعتزلة ، وعلى الأخص معاصره المتكلم المعتزلى أبو الهذيل العلاف ،[3] الذى كان يقول : " خلق الشيئ الذى هو تكوينه بعد أن لم يكن هو غيره ، وهو ارادته له ، وقوله له كن "[4] .

وينتقل المحاسبى بعد ذلك الى تأويل ما ظاهره من النصوص حدوث الإرادة بأنها قصد منها وقت المراد حدوث المراد الذى تعلقت به الارادة القديمة بوجوده فى الوقت المعين ، فيقول : " فأما قوله (لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله . . . الآية)[5] فانه وعدهم الدخول على علم أنهم يدخلون ، وأما قوله (اذا أردناه أن نقول له كن فيكون)[6] ، وقوله : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها . . . الآية)[7] فانه لم يزل يريد ، قبل أن يحدث الشيئ ، أن يحدثه فى

---

(١) العقل وفهم القرآن للمحاسبى (ص ٣٤٢) ، ودرء تعارض العقل والنقل (٤٦/٢) .
(٢) نشأة الأشعرية (ص ٧٣) ، الكلابية وأثرها فى المدرسة الأشعرية (ص ١٣٧) .
(٣) هامش رقم (١) للمحقق الدكتور حسين قوتلى (ص ٣٤٢) فى كتاب العقل وفهم القرآن ، نشأة الأشعرية (ص ٧٤) ، الكلابية وأثرها فى الأشعرية (ص ١٣٧) .
(٤) مقالات الاسلاميين (ص ٥١٠) ، المغنى (٤/٦) .
(٥) سورة الفتح (٢٧) .
(٦) سورة النحل (٤٠) .
(٧) سورة الاسراء (١٦) .

وقت احداثه ، فلم يزل يريد احداثه فى الوقت المؤخر ، فاذا جاء الوقت فهو أيضا يريد أن يحدثه فيه ، فبارادته أحدثه فى ذلك الوقت الذى فيه أحدثه .

فارادة الله جل وعز دائمة ، لأنه مريد قبل الوقت الذى يحدث فيه المخلوقات ، وفى الوقت الذى أحدث فيه ، فأراد بقوله جل وعز : (اذا أردنا . .) اذا جاء الوقت الذى فيه ، وهو له قبل الوقت مريد ، فأوقع (اذا) على الارادة ، وانما أراد الوقت وهو مريد له أيضا فى الوقت ، والعرب تفعل هذا فى مخاطباتها ، يقول الرجل لآخر : متى تريد أن آتيك ؟ فيقول : غدا ، فيسأله فى ظاهر المسألة عن وقت ارادته ، وانما يريد الوقت الذى فيه المجيء ، ويجيبه بالوقت الذى يجيء فيه ، ولو أجابه على ظاهر مسألته اذا قال متى تريد أجيئك ؟ لقال : الساعة أريد أن تجيئنى غدا ، فأجابه عن وقت المجيء ، وانما سأله فى الظاهر عن وقت الارادة ، وهو يريد وقت المجيء ، فأجابه عن معنى السؤال ، ولم يجبه عن ظاهر المسألة .

وكذلك اذا أراد الله جل وعز وقت كون الشيء ، وأنزل ظاهر القول على الارادة ، فقال جل من قائل : (واذا أردنا أن نهلك قرية . . .) ، يعنى الوقت الذى أردنا من قبل اذا جاء الوقت أهلكناها فيه ، فانما أراد بقوله : (اذا أردنا) اذا كان الوقت الذى أردنا أن نهلكهم فيه ، لا على البدء منه بارادة أخرى ، وأراد تكوين الشيء الى وقت معلوم لم يزل يريد أن يكونه فيه ، فلم يزل مريدا الهلاك للقرى فى الأوقات التى يهلكها فيها ، فاذا أهلكها فبارادة متقدمة منه بهلاكها فى تلك الأوقات التى أخر هلاكها اليها ، وبارادة لم تزل أخر هلاك القرى الى الوقت الذى لم يزل يريد أن يهلكها فيه " . (١)

والمحاسبى فى هذا النص الطويل الذى نقلناه بطوله عن كتابه فهم القرآن عرض لنا آراءه الكلابية فى صفة الارادة ، وأثبت قدم هذه الصفة كغيرها من الصفات ، جامعا فى ذلك بين النص والعقل ، كما هو منهج الكلابية التى كان المحاسبى من أبرز أئمتها . (٢)

---

(١) فهم القرآن للمحاسبى (ص ٣٤٢ — ٣٤٤) ، الكلابية وأثرها فى المدرسة الأشعرية (ص ١٣٧ — ١٣٨) .
(٢) الكلابية وأثرها فى المدرسة الأشعرية (ص ١٣٨) .

وقد خالفت الكلابية السلف فى قولهم بقدم الارادة ، ونفيهم ارادات الأفعال بمعنى أن الله عز وجل يريد هذا الحادث المعين بارادة حادثة قائمة بذاته تعالى ، ومذهب الكلابية ـ كما هو معلوم ـ مبنى على نفى صفات الأفعال القائمة بذاته تعالى بمشيئته وقدرته ، والتى يسميها أهل الكلام " الحوادث " ، والكلابية لا تثبت ذلك .

٤ ـ عموم الارادة :

ذهب أهل الحق فى ذلك الى أن ارادة الله تعالى شاملة ومتعلقة بكل الكائنات ، وأن الله تعالى مريد لجميع الممكنات ، غير مريد لما لا يكون ، فكل كائن مراد له ، وما ليس بكائن ليس بمراد له ، وهم متفقون على اسناد الممكنات الكائنة الى مشيئته تعالى ، فيقال : جميع الكائنات مراد له .

الا أنهم اختلفوا فى التفصيل ، فمنهم من لا يجوز اسناد الكائنات اليه مفصلا ، فلا يقال : الكفر أو الفسوق مراد لله تعالى ، لايهامه الكفر ، وقد صح بالاجماع والنص أن يقال : " الله خالق كل شيء " ، ولا يصح أن يقال : " انه خالق القاذورات وخالق القردة والخنازير " ، مع كونها مخلوقة له تعالى اتفاقا .

ومنهم من جوز أن يقال : " الله مريد للكفر والفسق ، معاقبا عليها " .(١)

ولكن المعتزلة خالفوا أهل السنة فى هذا الأصل ، لشبه استولت على عقولهم فقالوا : " ان الله لا يريد القبائح ، لأنه نهى عنها ، وعاقب عليها ، ولا يريد القبيح الا القبيح " .(٢)

---

(١) شرح المواقف للسيد الشريف الجرجانى ، (٨/١٧٣) ، (مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٥ هـ) .

(٢) شرح الأصول الخمسة (ص٤٦١) .

أما عبد الله بن كلاب فى هذه المسألة :

فقد سلك مسلكا دعم فيه رأى السلف ، واتفق مع النقل والعقل ، ولم يرتض رأى المعتزلة القائلين بأن المعاصى والشرور التى تقع من العباد ليست مرادة لله تعالى ، بل هو كاره لها .

وقرر ابن كلاب أن ارادة الله عز وجل متعلقة بكل ما يحدث فى العالم ، لأن كل ما يحدث واقع تحت قدرته سبحانه ، فلابد أن يكون مرادا له تعالى ،لأن الارادة متعلقة بجميع الحادثات ، والشر والكفر والمعصية حوادث ، فهى مرادة لله تعالى .

قال ابن كلاب : " ان الله تعالى مريد حدوث كل ما علم حدوثه ، ولا يكون فى سلطانه الا ما يريد كونه ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن " (١).

وبذلك مضى ابن كلاب الى القول بأن الحوادث كلها بمشيئة الله تعالى وقدرته عز وجل ، فلا يحدث فى العالم شيئ لا يريده الله ، ولا ينتفى ما يريده الله ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

ولكن اذا كان ابن كلاب قد اعترض على المعتزلة نسبة كل الحوادث الى الله ، فهل يصح أن ينسب الشر صراحة الى الله ؟

يقول البغدادى :

" قال شيخنا أبو محمد ، عبد الله بن سعيد : أقول فى الجملة : ان الله أراد حدوث الحوادث كلها ، خيرها وشرها ، ولا أقول فى التفصيل : أنه أراد المعاصى وان كانت من جملة الحوادث التى أراد حدوثها ، كما أقول فى الجملة عند الدعاء : يا خالق الأجسام ، ولا أقول فى الدعاء على التفصيل : ياخالق القرود والخنازير والدم والنجاسات وان كان هو الخالق لهذه الأشياء كلها " (٢).

---

(١) تبصرة الأدلة للنسفى (١/٤٢١) .

(٢) أصول الدين (ص١٠٤) ، فى علم الكلام ، د/أحمد صبحى (٢/١٢٦) .

فأبو محمد هنا : على الرغم من قوله بأن الحوادث كلها بمشيئة الله وارادته يفاضل بين مستويات فى التعبير ، ويختار العبارة التى تليق بمقام التنزيه ، والتى تتناسب مع الفكرة الالهية ، فلا يسوغ أن يقال : ان الله يريد المعاصى وان كانت من جملة الحوادث التى تشملها المشيئة الالهية (١) .

وخلاصة رأى ابن كلاب أنه ينسب الحوادث جميعها ، خيرها وشرها الى الله ، ولكن تأدبا معه جل شأنه لا يلفظ بنسبة الشر والخبائث اليه سبحانه على التصريح والتفصيل (٢) .

اذن : تبع ابن كلاب سلف الأمة وأئمتها فى القول بعموم الارادة الالهية وشمولها لجميع ما يجرى فى ملك الله تعالى ، وهذا هو الحق الذى عليه روح الشرع لأنه لا خالق لشيء من الحوادث خيرها وشرها الا الله ، فهو سبحانه وتعالى فعال لما يريد ، ولا نفوذ لارادة أحد الا أن يريد سبحانه ، وما من حركة ولا سكون فى السماوات ولا فى الأرض الا بارادته ومشيئته ، ولو شاء عدم وقوعها لم تقع ، وكيف يكون فى ملكه ما لا يشاء (٣) .

وبعد أن بينا مفهوم الارادة عند عبد الله بن سعيد وصاحبه المحاسبى ، وعند مختلف فرق المتكلمين من المعتزلة والكرامية ، ولا حظنا آراءهم مع رد ما هو باطل منها ،

بقى أن نحقق رأى السلف فى هذا الفصل ، ونلاحظ ما خالفهم فيه سائر الفرق .

لقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على اثبات صفة الارادة لله تعالى ، فهو سبحانه وتعالى مريد بارادة أزلية قائمة به تعالى ، وأنها ليست مخلوقة .

---

(١) الكلابية واثرها فى المدرسة الاشعرية (ص ٢٤١) .

(٢) فى علم الكلام (٢/ ١٢٦) .

(٣) معارج القبول (١/ ١٧٤) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٥٣) ، الكلابية وأثرها ... (ص ١٤٢) .

ولكن هل يسمى سبحانه وتعالى " مريدا " ؟ ففى ذلك لبعض الأئمة كلام ، لأن لفظ (مريد) : لم يرد فى القرآن ولا فى السنة من بين أسمائه تعالى الحسنى ،

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " وأما تسميته سبحانه بأنه مريد وأنه متكلم : فان هذين الاسمين لم يردا فى القرآن ، ولا فى الأسماء الحسنى المعروفة ، ومعناهما حق ، ولكن الأسماء الحسنى المعروفة هى التى يدعى الله بها ، وهى التى جاءت فى الكتاب والسنة ، وهى التى يقتضى المدح والثناء بنفسها . . ، وأما ما يوصف به الرب من الكلام والارادة : فقد دلت عليه أسماؤه الحسنى ، واتفق سلف الأمة وأئمتها على أن الله تعالى متكلم بكلام قائم به ، وأن كلامه غير مخلوق ، وأنه مريد بارادة قائمة به ، وأن ارادته ليست مخلوقة " .(١)

والمحققون من أهل السنة يقولون : ان الارادة فى كتاب الله تعالى نوعان :

١ ـ <u>الارادة الكونية :</u>

وتراد فها المشيئة ، وهى الارادة القدرية الكونية الخلقية التى تتعلق بكل ما يشاء الله فعله واحداثه ، فهو سبحانه وتعالى اذا أراد شيئا وشاءه كان عقب ارادته له .

كما قال تعالى : (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)(٢) ، وكقوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ، كأنما يصعد فى السماء)(٣) ، وكقوله : (ولكن الله يفعل مايريد)(٤) .

٢ ـ <u>والارادة الشرعية :</u>

هى الارادة الدينية الأمرية الشرعية ، وهى المتضمنة للمحبة والرضا ، لأنها تتعلق بما يأمر به الله عباده مما يحبه ويرضاه .

---

(١) شرح الاصفهانية (ص ٥) .

(٢) سورة يس (٨٢) .

(٣) سورة الأنعام (١٢٥) .

(٤) سورة البقرة (٢٥٣) .

وهى المذكورة فى مثل قوله تعالى : (يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر)[١] ، وكقوله تعالى : (يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم)[٢] . . . وأمثال ذلك من الآيات .[٣]

ويلزم من تقسيم الارادة الى الكونية والشرعية أقسام أربعة تتعلق بها ، كما صرح به ابن تيمية رحمه الله :

الأول : ما تعلقت به الارادتان الكونية ودينية ، وهو كل ما وقع فى الوجود من الأعمال الصالحة ، فان الله تعالى أرادها ارادة دينية وشرعية ، فأمر به ، وأحبه ، ورضيه ، وأراده كونية ، فوقع ، ولولا ذلك لما كان .

والثانى : ما تعلقت به الارادة الدينية فقط ، وهو ما أمر الله تعالى به من الأعمال الصالحة ، فعصى ذلك الكفار والفجار ، فتلك ارادة دينية ، وهو يحبها ويرضاها ، وقعت أو لم تقع .

الثالث : ما تعلقت به الارادة الكونية فقط ، وهو ما قدره الله تعالى ، وشاءه من الحوادث التى لم يأمر بها كالمباحات والمعاصى ، فانه تعالى لم يأمر بها ، ولم يرضها ، ولم يحبها ، اذ هو لا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولولا مشيئته وقدرته متعلقة به لما كانت ولما وجدت .

الرابع : ما لم تتعلق به أى من أقسام الارادة الدينية منها ولا الكونية ، فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصى .[٤]

---

(١) سورة البقرة (١٨٥) .

(٢) سورة النساء (٢٦) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١١٦) ، شرح العقيدة الواسطية (ص ٤٦ — ٤٧) ، مجموعة الرسائل والمسائل (٥/٣٢٥) .

(٤) رسالة مراتب الارادة ، ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ، لابن تيمية : (٢/٧٧ — ٧٨) ، وشرح العقيدة الواسطية (٤٦ — ٤٧) .

اذن : العلاقة بين الارادتين هو أنه لا تلازم بينهما ، بل قد يتعلق كل منهما بما لا يتعلق به الأخرى ، فبينهما عموم وخصوص من وجه ، فالارادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصى ، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل ايمان الكافر وطاعة الفاسق والارادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به واقعا كان أو غير واقع ، وأخص من جهة أن الواقع بالارادة الكونية قد يكون غير مأمور به (١) .

وخلاصة القول فى مبحث الارادة : أن الكلابية على الحق فيما وافقوا السلف فى هذه الصفة ، وذلك اثباتهم صفة الارادة الأزلية القائمة بذاته عز وجل ، غير أنهم جعلوها ارادة واحدة قديمة تتعلق بجميع الارادات الحادثة ، وأنها تخصص لذاتها ، ولا يتوقف تخصيصها على سبب ، وهذا خطأ ، والصواب ما بينه علماء السلف من أنه لم يزل سبحانه وتعالى مريدا بارادات متعاقبة ، نوعها قديم أزلى ، وأما ارادة الشيء المعين فانما يريده فى وقته ، وأن الارادة ليس من شأنها أن تخصص بلا مخصص ، كما تقدم ، كما اتبعوا السلف فى اثباتهم عموم المشيئة الالهية وشمولها لجميع ما يجرى فى ملك الله تعالى ، خيرا كان أو شرا .

٥ — أما رأى ابن كلاب فى صفة الكلام :

فقد أثبتها ابن كلاب لله تبارك وتعالى ، واستدل على ثبوتها بالكتاب والسنة ، الا أننا أفردنا هذه الصفة بالحديث فى فصل مستقل ، — مع أنها من صفات الذات — نظرا لأهميتها وكثرة الكلام فيها وتشعبها .

فان هذه الصفات التى أثبتها عبد الله بن كلاب ودلل على ثبوتها بالنقل والعقل هى صفات الذات العقلية ، أما صفات الذات الخبرية فقد تحدثنا عنها فى فصل الصفات الخبرية .

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص ٤٦ — ٤٧) .

الفصل الخامس

مذهب ابن كلاب

فى صفات الأفعال الاختيارية

فى ضوء عقيدة السلف

المبحث الأول

صفات الأفعال وقيامها بذات الله تعالى

تقدمت الاشارة فى أول الفصل الرابع الى التميز فى الصفات الالهية بين صفات الذات وصفات الأفعال ، وهذه الأخيرة هى موضوع هذا الفصل .

وكما هو معلوم فان الأفعال الالهية تتعلق بمشيئة الله تعالى ، اذ يفعلها سبحانه متى شاء وكيف شاء ، منها ما وصف الله بها نفسه ، ومنها ما وصفه بها رسوله عليه السلاة والسلام ، وأجمع على اثباتها سلف الأمة .

وهذه الصفات هى : مثل الاستواء على العرش ، والاستواء الى السماء ، والقبض والبسط والطى والقول والاتيان والمجيئ والنزول ، والتكلم لموسى عليه السلام ، والنداء لآدم وحواء وموسى ، والاعزاز والاذلال ، والحب والكره والرضا والسخط ، فانها صفات يفعلها عز وجل بمشيئته وقدرته ، فانه جل ذكره كل يوم هو فى شأن .(١)

والأفعال نوعان : متعد ولازم ، فالمتعدى : مثل الخلق والاحسان والعدل والاعطاء ونحو ذلك ، واللازم : مثل الاستواء والنزول والمجيئ والاتيان ونحو ذلك.(٢)

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " ان الله تعالى وصف نفسه بالأفعال اللازمة كالاستواء ، وبالأفعال المتعدية كالخلق ، والفعل المتعدى مستلزم للفعل اللازم ، فان الفعل لابد له من فاعل، سواء كان متعديا الى مفعول أو لم يكن ، والفاعل لابد له من فعل ، سواء كان فعله مقتصرا عليه أو متعديا الى غيره ، . . . . وهذا معلوم سمعا وعقلا ".(٣)

---

(١) رسالة فى الصفات الاختيارية لابن تيمية ، ضمن جامع الرسائل ، المجموعة الثانية (ص ٢٢) ، د ر ء تعارض العقل والنقل (٢/٢-٣) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٢٨) ، الرسالة التدمرية لابن تيمية (ص ٧) ، الكواشف الجلية (ص ٢٥٨) ، الاسئلة والاجوبة على العقيدة الواسطية (ص ٥٣) .

(٢) رسالة فى الصفات الاختيارية ، ضمن جامع الرسائل لابن تيمية (٢/٢٢) ، مجموع الفتاوى (٦/٢٣٣) .

(٣) د ر ء تعارض العقل والنقل (٢/٢-٣) .

وقد افترق الناس فى الصفات الاختيارية الى مثبتين ونفاة ، فالمثبتون لقيام الصفات بذاته تعالى ، الذاتية والفعلية : هم السلف وجمهور الأئمة من أهل السنة والحديث ، والمتكلمون من الكرامية وغيرهم ، وأما النفاة : فهم الجهمية والمعتزلة وابن كلاب ومن تبعه من الأشاعرة وغيرهم .

فذهب السلف ومن تبعهم من أئمة الدين الى اثبات قيام أفعاله تعالى بذاته ، كما أثبتوا الصفات الذاتية اللازمة له تعالى ، وقالوا انه لا يوصف بشيء لا يقوم به سبحانه ، منزه عن مشابهة المخلوقين (١) .

وهذا القسم من الصفات يعرف عند السلف بقديم النوع ، حادث الآحاد ، بمعنى أن الصفة قديمة ، ولكن تحدث فى ذاته آحادها ، (٢) ومثال ذلك : أن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يريد ، ويتكلم بما شاء ، متى شاء ، وكيف شاء ، ويغضب ويرضى ، ولكن ليس كأحد من الخلق .

لأن الصفات الالهية عند السلف : منها ما هو لازم للذات أزلا وأبدا ، كالحياة ، ومنها ما هو قديم الجنس ، ولكن يحدث فى ذاته آحادها ، وذلك مثل العلم والسمع والبصر والكلام .

لذا فقد جوز السلف قيام الحوادث بذاته تعالى ، بل يرى شيخ الاسلام ابن تيمية : أن ذلك ضرورة لا بد منها لفهم كثير من النصوص التى تدل على حدوث آحاد تلك الصفات بصراحة ، لا تقبل التأويل ، كما سيأتى بيانه .

وأما النفاة : فانهم لا يثبتون عامة الصفات الاختيارية ، ويشتغلون بتأويل نصوص الكتاب والسنة الواردة فى اثبات هذه الصفات .

والنفاة نوعان : أحدهما : وهم الأصل : الجهمية ونحوهم من المعتزلة ، فهؤلاء ينفون الصفات مطلقا ، وثانيهما : الكلابية والأشعرية ومن تبعهم ، فانهم يثبتون الصفات ، وينفون قيام الافعال بالله تعالى ، .

---

(١) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٦٣) .

(٢) منهاج السنة (٢/٢٩٦) ، طبعة مكتبة العروبة .

ذهبت الجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم الى نفى قيام الصفات بذاته تعالى ، ذاتية أو فعلية ، يقولون : لا يقوم بذاته عز وجل شيئ من هذه الصفات ، ولا غيرها ،[1] فقالوا : " لا يقوم به صفة ولا فعل ، وعبروا عن ذلك بأنه لا تقوم به الأعراض والحوادث .[2]

فصفات الافعال عندهم ، سواء كانت لازمة كالرضا والغضب والنزول ، أو كانت متعدية ، كالخلق والرزق والاحياء والاماتة وغيرها : لا يجوز أن تقوم بذات الرب تعالى " .

والجهمية والمعتزلة بنوا هذا على أصلهم الفاسد من أن الرب لا يقوم به صفة ، لأن ذلك — فى زعمهم — يسلزم التجسيم والتشبيه الممتنع فى حقه تعالى ، لان الصفة عرض ، والعرض لا يقوم الا بجسم .[3]

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : " ولا ريب أن النفاة نوعان ، أحدهما : وهم الأصل المعتزلة ونحوهم من الجهمية ، فهؤلاء ينفون الصفات مطلقا ، وحجتهم على نفى قيام الافعال به من جنس حجتهم على نفى قيام الصفات به ، وهم يسوون فى النفى بين هذا وهذا ، كما صرحوا بذلك ، وليس لهم حجة تختص بنفى قيام الحوادث " .[4]

إذن كان أصل قولهم فى هذا هو دليل الحدوث ، وقولهم ان ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، لامتناع حوادث لا أول لها .

وهذا الأصل الذى يحتجون به ليس معهم دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر عن الصحابة والتابعين ، بل الكتاب والسنة والآثار عن الصحابة والتابعين بخلاف ذلك ،

---

(١) رسالة فى الصفات الاختيارية : لابن تيمية ، جامع الرسائل (٢/٢) .

(٢) منهاج السنة (١/١١٨) ،طبعة دار الكتب العلمية .

(٣) رسالة فى الصفات الاختيارية ، لابن تيمية ، جامع الرسائل (٢/٧) .

(٤) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٧٠) .

والنص والعقل دل على أن كل ما سوى الله تعالى مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن ، ولكن لا يلزم مع حدوث كل فرد — مع كون الحوادث متعاقبة — حدوث النوع.[(١)]

وبين شيخ الاسلام ابن تيمية أن هذا الكلام وان كان اصله من المعتزلة فقد دخل فى كلام المشبتين للصفات ، حتى فى كلام المنتسبين الى السنة ، وهو موجود فى كلام كثير من أصحاب مالك والشافعى وأحمد وأبى حنيفة وغيرهم ... فلما اعتقد هؤلاء — أى علماء الكلام — أنهم أثبتوا بهذا الدليل حدوث الجسم لزم انتفاء ذلك عن الله ، لان الله قديم ، ليس بمحدث ، فقالت المعتزلة : ما قامت به الصفات فهو جسم ، لأن الصفات أعراض ، والعرض لا يقوم الا بجسم ، فنفت الصفات ونفت أيضا قيام الأفعال الاختيارية به تعالى ، لأنها أعراض ، ولأنها حوادث.[(٢)]

وأما الكلابية والأشعرية ومن تبعهم : فانهم يثبتون قيام الصفات الذاتية بذاته تعالى ، وينفون قيام الافعال الاختيارية .

وقالت الكلابية فى نفى أفعال الرب الاختيارية عنه تعالى : (تقوم به صفات بغير مشيئته وقدرته ، فأما ما يكون بمشيئته وقدرته فلايكون الا مخلوقا منفصلا عنه ، لا يقوم بذات الرب).[(٣)]

وأما جمهور الأشاعرة ، فانهم أيضا لا يثبتون لله أفعالا تقوم بذاته تعالى ، فلا توجد هناك صفة فعل تقوم بذات الله تعالى ، يفعلها متى شاء وكيف شاء .

والمعروف عن الأشاعرة المتأخرين : أن أفعال الله تعالى عندهم عبارة عن اضافات ،[(٤)] أو تعلقات للقدرة بالمقدورات ، دون قيام فعل بذاته تعالى ، حيث أنهم يثبتون للقدرة تعلقين :

---

(١) منهاج السنة (١١٨/١) ، طبعة دار الكتب العلمية .

(٢) منهاج السنة (٢/ ٢٢٧ ، ٢٢٩) ،طبعة جامعة الامام .

(٣) رسالة فى الصفات الاختيارية لابن تيمية ،جامع الرسائل (٢/ ٤، ٧) .

(٤) القصيدة النونية مع شرحها ،د / خليل هراس (٢/ ٤٩٨ — ٥٠٠) .

١ — تعلق صلوحى قديم ، وهو صلاحيتها فى الأزل للايجاد والاعدام .

٢ — وتعلق تنجيزى حادث ، وهو الايجاد والاعدام بالفعل .

فالأول صلاحيتها فى الأزل لايجاد كل ممكن فيما لا يزال ، أى حين وجوده ، والثانى : ابرازها بالفعل للممكنات التى أراد الله وجودها ، فتعلقها فى الأزل ، أعم ، لأنها صالحة فى الأزل لايجاد كل ممكن على أى صفة كانت ، بخلاف تعلقها التنجيزى ، فانه تعلقها بالممكن الذى أراد الله وجوده على صفة كذا ... (١)

ولا يلزم من ذلك قيام الحوادث بذات الرب ، لأن التعلقات أمور اعتبارية ، لا وجود لها ، فلاتقوم بذاته تعالى .

---

(١) حاشية الدسوقى على شرح أم البراهين (ص ٩٨) ، حاشية البيجورى على السنوسية (ص ١٩) ، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد (ص ٥٥) .

المبحث الثاني

مذهب ابن كلاب في صفات الأفعال الاختيارية

رأى ابن كلاب في مسألة صفات الأفعال :

ان ابن كلاب وان كان يتفق مع السلف في سائر المسائل الاعتقادية ، ويثبت لله تعالى الصفات اللازمة له تعالى من الحياة والعلم والسمع والبصر وغيرهما ، ويثبت الصفات الخبرية مثل الوجه واليدين والعلو والاستواء ونحو ذلك ، ولا يؤول شيئا منها : الا أننا نجد له رأيا آخر يختلف فيه تماما مع السلف ، ويوافق الجهمية والمعتزلة ، وذلك اعتقاده بعدم قيام صفات الأفعال بذاته تعالى .

ووافقه على ذلك المحاسبي والقلانسي والأشعري ومن بعدهم .

ويمكن عرض مذهبه وبيان الأدلة على أنه يقول بهذا القول ،من خلال ما يلى:

١ ـ قوله بأزلية الصفات كلها ، دون أن يفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال ، يقول ابن كلاب :" ان الله سبحانه لم يزل قديما بأسمائه وصفاته ، وأنه لم يزل عالما قادرا حيا سميعا بصيرا ... كارها محبا مبغضا راضيا ساخطا مواليا ... ، بعلم وقدرة وحياة وسمع وبصر ... وكرم وجود ... وكراهة وحب وبغض ورضى وسخط وولاية وعداوة وكلام ، وأن ذلك من صفات الذات" (١) .
يقرر ابن كلاب في هذا النص أزلية الصفات ، لينفي ما يتعلق بمشيئة الله تعالى وقدرته من صفات الأفعال ، فيجعل صفات الرضى والسخط والمحبة والكرم والجود أزلية كصفات السمع والبصر والحياة .

٢ ـ جعله ولاية الله وعداوته ورضاه وسخطه من صفات الذات ، لا من صفات الفعل ، حيث قال :" أن ولاية الله وعداوته ورضاه وسخطه من صفات الذات" (٢) ،

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص٥٤٦ ، ١٦٩) .

(٢) نفس المصدر (ص٥٨٢) .

٣ — انكاره لبعض صفات الفعل من أن تكون من نوع صفات الفعل ، مثل قوله في صفة الكرم ، فيما نقله عنه الأشعرى في المقالات بقوله : " الوصف لله بأنه كريم ليس من صفات الفعل "،[1] فان الكرم عند السلف صفة فعل ، والله عز وجل يتكرم على عباده بما يشاء ، وكما يشاء ، ومتى يشاء .

وفيما نقله عنه وعن الأشعرى : ابن فورك في مجرد مقالاته بقوله : " كان الأشعرى ينكر من قال من أصحابنا : ان المحبة والرضا من الله تعالى فعل ، وهو مذهب عبد الله بن سعيد ".[2]

٤ — ومما يدل على رفض ابن كلاب اعتبار هذه الصفات صفات أفعال قوله بالموافاة ، وهو: " أن الله لم يزل راضيا عمن يعلم أنه يموت مؤمنا وان كان أكثر عمره كافرا ، وساخطا على من يعلم أنه يموت كافرا وان كان أكثر عمره مؤمنا ".[3]

اذ الرضا والغضب عند ابن كلاب أزليان ، ولذلك التزم بالقول بالموافاة ، ومعنى ذلك : أن الله لم يزل راضيا عن الصحابة ، حتى وهم قبل اسلامهم يقاتلون المسلمين ويشركون بالله ، ورضاه عنهم أزلى ، وكذلك العكس ، قال ابن كلاب : بهذا الكلام حتى لا يقول بتجدد الحوادث في ذاته تعالى اذا قيل أنه تعالى كان ساخطا على هذا ، ثم رضى عنه .

٥ — ويقطع ابن كلاب في هذه المسألة عند كلامه عن صفة الكلام وأن كلامه تعالى أزلى ، فيقول : " ان الله لم يزل متكلما ، والكلام من صفات النفس ، كالعلم والقدرة "،[4] وقال : " ان كلامه قائم به ، كما أن العلم قائم به ، والقدرة قائمة به ".[5]

---

(١) مقالات الاسلاميين (ص ١٧٩) .

(٢) مجرد مقالات الاشعرى لابن فورك (الورقة ١٩) .

(٣) المقالات للأشعرى (ص ٥٤٧ ، ٢٩٨) ، ومجرد مقالات الأشعرى لابن فورك (الورقة ١٩) .

(٤) المقالات للأشعرى (ص ٥١٧) .

(٥) نفس المصدر (ص ٥٨٤) .

يلاحظ من كلام ابن كلاب هذا : أنه جعل كلام الله أزليا ، كما أن علم الله أزلي ، وقدرة الله أزلية ، والسلف يقولون : ان الله متكلم فى الأزل ، لكنهم يقولون : انه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وقول ابن كلاب واضح الدلالة على أنه قصد أن الله لا يتكلم بكلام بعد كلام ، بل كلامه كله قديم أزلي .

كل هذه النصوص من أقوال ابن كلاب تدعم مذهبه فى نفى صفات الأفعال الاختيارية وحلول الحوادث بذات الله تعالى .

ان صفات الأفعال عنده من الحوادث التى لا يجوز أن تحل بذاته تعالى ، والذى ينتقل من حال الى حال ، ويفعل بمشيئته وقدرته ، فيرضى عن هذا بعد أن لم يكن راضيا عليه ، ويسخط على هذا بعد أن لم يكن ساخطا عليه ، ويريد أمرا بعد أن لم يكن مريدا له ، ويكلم أحدا من البشر بعد أن لم يكن مكلما له : هذه عند ابن كلاب ، حوادث وتغيرات ، لا يجوز أن يتصف بها الله عز وجل .

ويؤكد شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله هذا الذى ذكرناه عن مذهب ابن كلاب فى صفات الأفعال ، حيث يقرر : أن أهل الاثبات القائلين بأن الله سبحانه وتعالى فوق العالم : لهم فى جواز الأفعال القائمة بذاته المتعلقة بمشيئته وقدرته : قولان مشهوران ، أحدهما قول من يقول : لا يجوز ذلك ، كما يقول ابن كلاب والأشعرى ومن اتبعهما من أصحاب أبى حنيفة وأحمد ومالك والشافعى وغيرهم ، والقول الثانى : قول من يقول انه يفعل أفعالا قائمة بنفسه ، باختياره ومشيئته ، كما وصف نفسه فى القرآن بالاستواء الى السماء وعلى العرش ، وبالاتيان والمجيئ ، وطى السماوات بيمينه ، وغير ذلك مما هو قول أئمة أهل الحديث وكثير من أهل الكلام ، ومن وافقهم من أصحاب أبى حنيفة والشافعى وأحمد .(١)

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٦/٣٢٢) .

ويفصل شيخ الاسلام مذهب الكلابية فى هذه الصفات تفصيلا كاملا فى " رسالته فى الصفات الاختيارية " فيقول : " الكلابية يقولون : ان الله تعالى متصف بالصفات التى ليس له عليها قدرة ، ولا تكون بمشيئته ، فأما ما يكون بقدرته ومشيئته فانه حادث ، والرب تعالى لا تقوم به الحوادث ، وترجموا الصفات الاختيارية بمسألة حلول الحوادث "،(١) هكذا تأثرت الكلابية فى هذا الأصل بالمعتزلة ، اذ أن المعتزلة تسمى هذا الأصل بحلول الحوادث ،وبناء على هذا الأصل قالت الكلابية فى كلام الله تعالى : (فانه تعالى اذا كلم موسى بن عمران بمشيئته وقدرته ، وناداه حين أتاه بقدرته ومشيئته ، كان ذلك النداء والكلام حادثا ، ولو اتصف الرب به لقامت به الحوادث ، ولو قامت به الحوادث لم يخل منها ، وما لم يخل منها فهو حادث) .(٢)

اذن : الصفات الاختيارية التى تدل على أن الله يتكلم اذا شاء ومتى شاء وكيف شاء ، وأنه ينزل ويأتى كما يليق بجلاله وعظمته : هى عند الكلابية من الحوادث التى لا يجوز أن تحل بذاته تعالى وهم يوافقون بهذا الجهمية والمعتزلة .

واستدلوا على ذلك بأن كونه تعالى قابلا لتلك الصفات ، ان كانت من لوازم ذاته ، كان قابلا لها فى الأزل ، فيلزم جواز وجودها فى الأزل ، والحوادث لا تكون فى الأزل فان ذلك يقتضى وجود حوادث لا أول لها ، وذلك محال ، وبينوا أنهم بذلك استدلوا على حدوث الأجسام ، وبه عرفوا حدوث العالم ، وبذلك أثبتوا وجود الصانع وصدق رسله ، وتخيلوا أنهم لو قدحوا فى ذلك للزم أن يقدحوا فى أصول الايمان والتوحيد .(٣)

(١، ٢) رسالة فى الصفات الاختيارية لابن تيمية ، جامع الرسائل (٢/ ٧ - ٨) .

(٣) رسالة فى الصفات الاختيارية ، ضمن جامع الرسائل لابن تيمية (٢/ ٧- ٨) ، مجموع الفتاوى (٦/ ٢٢٠) .

وبسبب هذه الشبهة أنكرت الكلابية أن يكون البارى تعالى متكلما حسب المشيئة والارادة ، فلم يثبتوا له الا كلاما نفسيا بلا حرف وصوت ، قديما قائما بالذات ، وأنكروا كونه تعالى يحب ويرضى عن المؤمنين بعد ايمانهم ، ويغضب ويبغض الكافرين بعد كفرهم ، كما أنكروا كونه تعالى يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها ، وكونه نادى موسى عليه السلام حين أتى ، لم يناده قبل ذلك بنداء قائم بذاته .

وأول من أحدث هذا الأصل وعرف بنفي قيام فعل بذاته تعالى فى أهل الملة : هم الجهمية والمعتزلة ، ولم يكن قبلهم يعرف بين الناس من يقول بنفي الصفات ولا بنفي الامور الاختيارية القائمة بذاته تعالى ، فلما حدث هذا القول وقالت به الجهمية والمعتزلة : أطبق السلف والأئمة على انكار هذا عليهم ، وكل من خالفهم قبل ابن كلاب كان يقول بقيام الصفات والأقوال والأفعال المتعلقة بمشيئته وقدرته به .(١)

وهذا الأصل لم يكن معروفا عند علماء أهل السنة قبل ابن كلاب ، بل كان الناس قبله على قولين فقط ، فجاء ابن كلاب ، فأثبت هذا الأصل ، وقال به ، وبنى مذهبه عليه ، واتبعه على ذلك جماعة ، منهم الأشعرى .

ذكر ابن تيمية فى غير موضع من كتبه العديدة : أن السلف وجمهور الأئمة بينما كانوا يثبتون لله تعالى ما يقوم به من الصفات والافعال التى يشاؤها ويقدر عليها ، والجهمية والمعتزلة تنكر هذا وهذا ، جاء عبد الله بن سعيد بن كلاب ، فأثبت قيام الصفات الذاتية اللازمة له تعالى ، ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها ، ووافقه على ذلك المحاسبى والقلانسى والأشعرى .(٢)

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٤/ ٢٤ — ٢٥) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٦ - ٧) ، (٢/ ٩٩) ، منهاج السنة (١/ ٢٩٩) ، طبعة مكتبة العروبة ، مجموع الفتاوى (٥/ ٤٦٧) ، شرح حديث النزول (ص ١٠٥) ، المقدمة لكتاب الشامل ، د/ النشار (ص ٥٧) .

وقال ابن قيم الجوزية : " كان أبو محمد ، عبد الله بن سعيد بن كلاب من أعظم أهل الاثبات للصفات والفوقية وعلو الله على عرشه ، منكرا لقول الجهمية ، وهو أول من عرف عنه انكار قيام الأفعال الاختيارية بذات الرب تعالى ، وأن القرآن معنى قائم بالذات ، وهو أربع معان ، ونصر طريقته أبو العباس القلانسي وأبو الحسن الأشعري ، وخالفه في بعض الأشياء ، ولكنه على طريقته في اثبات الصفات والفوقية وعلو الله على عرشه " .(١)

وبذلك فرقت الكلابية بين ما يلزم الذات من أعيان الصفات كالحياة والعلم ، وبين ما يتعلق بالمشيئة والقدرة ، ومنعوا هذا القسم الأخير عن الله تعالى ، وقالوا هذا لا يقوم بذاته تعالى ، لأن ذلك يستلزم تعاقب الحوادث عليه .(٢)

وهكذا انتقل هذا القول عن الجهمية والمعتزلة الى الكلابية والأشعرية والسالمية ومن تبعهم ، وأصبح هؤلاء يقولون : تقوم صفات بغير مشيئته وقدرته ، فأما ما يكون بمشيئته وقدرته فلا يكون الا مخلوقا منفصلا عنه .(٣)

وأصبح للناس ثلاثة مذاهب في مسألة صفات الأفعال ، بعد أن كان لهم في ذلك مذهبان فقط ، فالجهمية المحضة من المعتزلة ومن وافقهم : يجعلون هذا كله مخلوقا منفصلا عن الله تعالى ، والكلابية ومن وافقهم : يثبتون ما يثبتون من ذلك : اما قديما بعينه ، لازما لذات الله تعالى ، واما مخلوقا منفصلا عنه تعالى ، وجمهور أهل الحديث وطوائف من أهل الكلام يقولون : بل هنا قسم ثالث ، قائم بذات الله ، متعلق بمشيئته وقدرته ، كما دلت عليه النصوص الكثيرة .(٤)

---

(١) اجتماع الجيوش الاسلامية (ص ١١١) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢٥/٤) ، منهاج السنة ، طبعة جامعة الامام (٤٢٣/١) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢١٧/٦) ، رسالة في الصفات الاختيارية ، ضمن جامع الرسائل (٤/٢) .

(٤) درء تعارض العقل والنقل (١٤٧/٢) .

فان ابن كلاب اذن هو أول من عرف عنه انكار الصفات الفعلية الاختيارية بين صفوف أهل السنة والجماعة ، وبسببه شاع النزاع بين عامة المنتسبين الى السنة فى هذه المسألة .

قال ابن تيمية : " وأما مسألة قيام الأفعال الاختيارية به تعالى : فان ابن كلاب والأشعرى وغيرهما ينفونها ، وعلى ذلك بنوا قولهم فى مسألة القرآن ، وبسبب ذلك وغيره تكلم الناس فيهم ، فى هذا الباب ، بما هو معروف فى كتب أهل العلم ، ونسبوهم الى البدعة وبقايا بعض الاعتزال فيهم ، وشاع النزاع فى ذلك بين عامة المنتسبين الى السنة من أصحاب أحمد وغيرهم ".(١)

وقد استمر هذا الخلاف الذى أحدثه ابن كلاب بين طوائف الفقهاء ، وقد وجد دائما من يقول بهذا القول ويتمسك بهذا الأصل ، أى تأويل ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال ، حتى لا تحل بذاته تعالى .

يؤكد شيخ الاسلام ابن تيمية هذا الواقع ، حيث ذكر أنه لم تبق طائفة من أصحاب الأئمة الأربعة الا وفيهم من يقول بهذا القول ، قال ابن تيمية رحمه الله : " وصار النزاع فى هذا الأصل بين طوائف الفقهاء ، فما من طائفة من أصحاب أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد الا فيهم من يقول بقول ابن كلاب فى هذا الأصل ، كأبى الحسن التميمى ، والقاضى أبى بكر ، والقاضى أبى يعلى ، وأبى المعالى الجوينى ، وابن عقيل ، وابن الزاغونى ... ".(٢) وقال : " وهو قول طائفة من متأخرى أهل الحديث ، كأبى حاتم البستى ، والخطابى ، ونحوهما ".(٣)

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/١٨) ، (٢/٩٩) .

(٢) منهاج السنة (١/١١٨) ، طبعة دار الكتب العلمية ، درء تعارض (٢/١٨-٢٠) ، مجموع الفتاوى (٦/٢١٧) ، (٥/٤١١) ، كتاب شرح حديث النزول (ص ٦٣) ، رسالة فى الصفات الاختيارية ، جامع الرسائل ، المجموعة الثانية (ص ٤) .

(٣) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٦٨) ، مجموع الفتاوى (٤/٦٠ - ٦١) .

وقال أيضا : " وانتقل هذا القول عن الجهمية والمعتزلة الى الكلابية والأشعرية والسالمية ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة : كأبى الحسن التميمى، وابنه أبى الفضل ، وابن ابنه رزق الله ، والقاضى أبى يعلى ، وابن عقيل ، وأبى الحسن بن الزاغونى ، وأبى الفرج ابن الجوزى ، وغير هؤلاء من أصحاب أحمد — وان كان الواحد من هؤلاء قد يتناقض كلامه — ، وكأبى المعالى الجوينى ، وأصحابه من أصحاب الشافعى ، وكأبى الوليد الباجى ، وطائفة من أصحاب مالك ، وكأبى الحسن الكرخى ، وطائفة من أصحاب أبى حنيفة " .(١)

ومن ثم فان هذه المسألة من أولى وأهم المسائل التى خالفت فيها الكلابية السلف، الأمر الذى يعد من أهم الأسباب فى موقف علماء السلف من الكلابية ورميهم بالابتداع والأمر بهجرهم .

وقد أنكر على ابن كلاب وأتباعه هذا الرأى جماعة من السلف ، يذكر امام الأئمة الحافظ ابن خزيمة أن أحمد بن حنبل كان من أشد الناس على عبد الله ابن سعيد وعلى أصحابه ، مثل الحارث المحاسبى وغيره (٢) ، وذكر شيخ الاسلام ابن تيمية أن الامام أحمد كان يحذر من ابن كلاب وأتباعه ، وأمر بهجر المحاسبى لسبب أخذه بقول ابن كلاب فى الصفات الاختيارية .(٣)

وممن أنكر مذهب ابن كلاب فى الصفات الاختيارية : امام الأئمة الحافظ ابن خزيمة ، ومعه جمهور أهل السنة فى عصره .

وقد حدث نزاع بين ابن خزيمة وجماعة من كبار أصحابه فى هذه المسألة ، وذلك لما كان المستقر عند ابن خزيمة ما تلقاه عن أئمته : من أن الله تعالى لم يزل متكلما اذا شاء ، وأنه يتكلم بالكلام الواحد مرة بعد مرة ، وكان له أصحاب كأبى على الثقفى وأبى بكر الصبغى ، وقد كانا من أخص تلامذة ابن خزيمة ، تلقيا طريقة ابن كلاب،

---

(١) مجموع الفتاوى (٥٧٦/٥) ، شرح حديث النزول (ص ١٨٧) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨٠/٢ — ٨١) .

(٣) درء تعارض (٦/٢) .

وهو : أن الله لا يوصف بأنه يقدر على الكلام اذا شاء ، ولا يتعلق ذلك بمشيئته وقدرته ، فلما أخبر ابن خزيمة أنهم مع اثباتهم للصفات يقولون بقول ابن كلاب: ثارت ثائرته ، وغضب عليهم وعلى من معهم ممن يقولون بهذا القول ، فأمر ولاة الأمر بتأديبهم لمخالفتهم له ، وصار الناس حزبين ، فالجمهور من أهل السنة وأهل الحديث معه ، ومن وافق طريقة ابن كلاب مع الحزب الآخر حتى صار بعده علماء نيسابور وغيرهم حزبين .

فجرت بين ابن خزيمة وبين أصحابه محنة طويلة ، استتيبوا فيها من قولهم ، حتى رجعوا ، وأظهروا موافقتهم له فيما لا نزاع فيه .

وهى قصة طويلة ، ذكرها الحاكم فى تاريخ نيسابور ، ونقل بعض أحداثها شيخ الاسلام ابن تيمية والذهبى (١) .

ولهذا الأصل ولغيره تكلم أهل العلم فى ابن كلاب ومن وافقه ، وتكلموا فى طريقته التى أصلها هذه المسألة ، لأن قوله فى نفى الصفات الاختيارية لله تعالى وقوله فى القرآن هما من أهم ما يميز مذهبه .

ومن أجل هذا الأصل وغيره : حمل عليه أئمة السلف ، ومنهم الامام أحمد ، حملة شديدة ، فقد كانوا شديدى الانكار على أصحاب الكلام عموما .

وكان الامام أحمد يحذر أصحابه عن ابن كلاب وأتباعه ، ويأمرهم بهجر المحاسبى ،وقيل: مات المحاسبى ولم يصل عليه الا أربعة أشخاص ، كما تقدم فى أول فصل للرسالة .

والذى وقع من انكار الامام أحمد وغيره من أئمة السلف على ابن كلاب وأتباعه كان بسبب خوضه فى علم الكلام ، وبسبب هذا الأصل الذى بنى عليه مذهبه ، مع ما فى ابن كلاب من الفضائل والحسنات ، والرد على أهل الالحاد والبدع .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦٩/٦ — ١٧٢) ، درء تعارض العقل والنقل (٢/٨-١٠) (٧٧/٢ — ٨٢) ،سير أعلام النبلاء: الذهبى (٣٧٧/١٤ — ٣٨١) .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :" انه ما من هؤلاء الا من له في الاسلام مساع مشكورة ، وحسنات مبرورة ، وله في الرد على كثير من أهل الالحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم ، وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وانصاف ، لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة ، وهم فضلاء عقلاء ، احتاجوا الى طرده والتزام لوازمه ، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما انكره المسلمون من أهل العلم والدين " . (١)

وقال أيضا :" وسبب ذلك ما أوقعه أهل الالحاد والضلال من الألفاظ المجملة التي يظن الظان انه لا يدخل فيها الا الحق ، وقد دخل فيها الحق والباطل ، فمن لم ينقب عنها او يستفصل المتكلم بها ـ كما كان السلف والأئمة يفعلون ـ صار متناقضا أو مبتدعا ضالا من حيث لا يشعر ، وكثير ممن تكلم بالألفاظ المجملة المبتدعة كلفظ الجسم والجوهر والعرض وحلول الحوادث ونحو ذلك كانوا يظنون أنهم ينصرون الاسلام بهذه الطريقة وأنهم يثبتون معرفة الله وتصديق رسله ، فوقع منهم من الخطأ والضلال ما أوجب ذلك " . (٢)

وقال :" وصار الناس بسبب ذلك : منهم من يعظمهم ، لما لهم من المحاسن والفضائل ، ومنهم من يذمهم ، لما وقع في كلامهم من البدع والباطل ، وخيار الامور أوساطها ، وهذا ليس مخصوصا بهؤلاء ، بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين والله تعالى يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات ، ويتجاوز لهم عن السيئات ، (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم) . (٣) (٤)

وهذه عبارة دقيقة طيبة لشيخ الاسلام تعد مثالا لموقف العالم المنصف الذى يذكر للمخالف فضله ، ويجبر عثرته ، ويلتمس له الأعذار ، ويدعو له بالمغفرة والرحمة .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/١٠٢) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٢/١٠٤) .

(٣) سورة الحشر ، الآية (١٠) .

(٤) درء تعارض (٢/١٠٢ ـ ١٠٣) .

رأى المحاسبى والقلانسى والأشعرى فى مسألة صفات الأفعال :

وقد ذكرنا فيما مضى أن الحارث المحاسبى وأبا العباس القلانسى وأبا الحسن الأشعرى موافقون لابن كلاب فيما ذهب اليه من نفى صفات الأفعال الاختيارية عن الله تعالى ، والآن أريد أن أفصل عن آرائهم بقدر ما أجد منها فى كتبهم ، أو مما نقله عنهم مؤرخو الفرق .

أما الحارث المحاسبى الذى كان واحدا من أبرز أعلام مدرسة الكلابية، فقد وافق ابن كلاب فى نفى هذه الصفات ، بناء على نفى حلول الحوادث بذات الله تعالى ، اذ ذكر فى كتابه " فهم القرآن " قولين عن أهل السنة المثبتين للصفات والقدر ، ورجّح قول ابن كلاب .

ولكن قيل عنه أنه رجع عن قوله فى آخر حياته الى مذهب السلف .(١)

جاء رأى المحاسبى فى منع قيام الأفعال بالله تعالى فى كتابه " فهم القرآن" عند تفسيره لقوله تعالى : (انا معكم مستمعون . . . الاية)(٢) ، ولقوله تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . . . الآية)(٣) ، حيث قال : " معنى سيرى وانا معكم مستمعون : أى المسموع والمبصر لن يخفى على سمعى ولا على بصرى أن أدركه سمعا وبصرا ، لا بالحوادث فى الله عز وجل ، وتعالى عن ذلك ، وكذلك قوله : (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله . . .) لا يستحدث بصرا ، ولا لحظا محدثا فى ذاته ، تعالى عن ذلك " .(٤)

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/٦ ـ ٧) ، منهاج السنة ، طبعة مكتبة العروبة (١/٢٩٩ ـ ٣٠٠) ، شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٣٦ ، ٦٨) .

(٢) سورة الشعراء ، الآية (١٥) .

(٣) سورة التوبة ، الآية (١٠٥) .

(٤) فهم القرآن : المحاسبى (ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥) .

ثم يرد المحاسبى على من خالف هذا الأصل ممن يثبت لله الصفات الاختيارية فيقول : " وقد ذهب قوم أن لله جل وعز استماعا حادثا فى ذاته ، فذهب الى ما يعقل من الخلق أنه يحدث فيهم علة لسمع ما يكون من قول عند سمعه للقول ، لأن المخلوق اذا سمع الشيء حدث له عنه فهم عما ادركته أذنه من الصوت ، وكذلك ذهب الى أن رؤية تحدث له " ، قال أبو عبد الله : " وهذا خطأ ، وانما معنى سيرى وانا معكم مستمعون : أن المسموع والمبصر لم يخف على عينى ولا على سمعى أن أدركه سمعا وبصرا ، لا بالحوادث فى الله جل وعز .

ومن ذهب الى أنه يحدث له استماع مع حدوث المسموع ، وابصار مع حدوث المبصر فقد ادعى على الله عز وجل ما لم يقل ، وانما على العباد التسليم كما قال ، وأنه عالم سميع بصير ، ولا يريد ما لم يكن ، وانما معنى حتى يعلم : حتى يكون المعلوم ، وكذلك حتى يكون المبصر والمسموع ، ولا يخفى على الله عز وجل أن يعلمه موجودا ، ويراه موجودا ، ويسمعه موجودا بغير حدوث علم فى الله جل وعز ، ولا سمع ولا بصر ، ولا يعنى حدوثا فى ذات الله ، جل الله عن الحوادث فى نفسه ، وتعالى عن البداوات فى علمه وارادته علوا كبيرا " (١) .

فان المحاسبى ، كما يتضح من النص ، يذهب الى القول بقدم الصفات ، وعدم جواز حدوث شيء منها ، لأننا اذا جوزنا حدوث الصفات فقد جوزنا حلول الحوادث بالله تعالى ، وذلك محال عنده ، ومن جوز قيام الحوادث بذات الله تعالى — فى رأى المحاسبى — فقد ادعى على الله ما لم يقله .

والمحاسبى يقرر مسألة أزلية صفات الله تعالى ، ويكرر ذلك فى " فهم القرآن " كثيرا ، لينفى ما يتعلق بمشيئة الله تعالى وقدرته من صفات الأفعال ، لذلك يقول — مثلا — فى صفة الارادة ، معلقا على قوله تعالى (اذا أردناه أن نقول له كن فيكون) (٢) ،

---

(١) فهم القرآن (٣٤٥ — ٣٤٦) .

(٢) سورة النحل (٤٠) .

وقوله تعالى : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها . . . الآية)[١] : " فانه لم يزل يريد ، قبل أن يحدث الشيء ، أن يحدثه في وقت احداثه ، فلم يزل يريد احداثه في الوقت المؤخر ، فاذا جاء الوقت فهو أيضا يريد أن يحدثه فيه ، فبارادته أحدثه في ذلك الوقت الذي فيه أحدثه ، فارادة الله جل وعز دائمة ، لأنه مريد قبل الوقت الذي يحدث فيه المخلوقات ، وفي الوقت الذي أحدثه "[٢].

وفي هذا النص اصرار من المحاسبي على اثبات الارادة الأزلية بالخلق والاحداث في الزمان المتتابع ، ومحاولة منه للتوفيق بين قدم الارادة الالهية وبين حدوث الأشياء في الزمان بها ، وذلك بقوله : إن الحدوث منصرف للشيء المخلوق ، وليس للارادة الالهية الأزلية حدوث هذا الشيء .

وهذا يدل على أنه يرفض القول بحلول ارادة متجددة في ذاته تعالى تحدث بها الأشياء ، ومن ثم فهو على مذهب شيخه ابن كلاب .

وهذا الرأي بالنسبة للمحاسبي ليس في كتابه فهم القرآن فقط ، بل نراه يكرر نفس القول في مواضع كثيرة من كتبه الأخرى .

نذكر على سبيل المثال قوله في كتابه " المسائل في أعمال القلوب والجوارح " ، عند ما يروى الحديث التالي : " وما تقرب الى عبدى بشيء أحب الى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصرى الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدى المؤمن ، ويكره الموت ، وأكره مساءته ، ولابد له منه "[٣].

---

(١) سورة الاسراء (١٦) .

(٢) فهم القرآن (ص ٣٤٣) .

(٣) الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأوله : " ان الله قال : من عادى لي ==

يقول المحاسبى : ان الحديث معناه : أن الله يزيد عقل العبد وجوارحه قوة حتى يزيد من عباداته له بطاعته ، ولكنه لا يعنى بأى حال من الأحوال أن الله كائن بذاته فى سمع العبد أو فى بصره ، تعالى الله عن ذلك . (١)

ونذكر أيضا تفسيره لحديث قدسى آخر : " يا ابن آدم ، ان تقربت الى فترا تقربت اليك شبرا ، وان تقربت الى شبرا تقربت اليك ذراعا ، وان تقربت الى ذراعا تقربت اليك باعا ، وان أتيتنى سعيا أتيتك هرولة " . (٢)

يقول المحاسبى فى هذا الحديث : " انه يعنى المعونة والتوفيق " ، ثم يضيف: " لأن الله لا ينزل لأحد سواء كان العبد تقيا أم كان عاصيا " . (٣)

ويذكر نفس الحديث فى كتابه الرعاية ، فيقول : " انما هذا على حسن المعونة وسرعة الاجابة ، والهداية بالسداد والتوفيق ، والاكتناف بالعصمة " . (٤)

== وليا فقد آذنته بالحرب . . . ، هذه رواية البخارى ، أنظر صحيح البخارى ، كتاب الرقاق ، باب التواضع ، (٧/ ١٩٠) ، ورواية عائشة رضى الله عنها فى المسند (٦/٢٥٦) .

(١) المسائل فى أعمال القلوب والجوارح (ص ٧٧) .

(٢) الحديث مع الاختلاف فى الألفاظ عن أبى هريرة وأنس بن مالك رضى الله عنهما، فى صحيح البخارى ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (ويحذركم الله نفسه . .) ، (٨/ ١٧١) ، وكتاب التوحيد ، باب ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه (٨/ ٢١٢) ، وصحيح مسلم ، كتاب الذكر ، باب فضل الذكر (٤/ ٢٠٦٧ — ٢٠٦٨ — ٢٦٧٥) ، وسنن الترمذى ، كتاب الزهد ، باب فى حسن الظن بالله عز وجل ، (٤/ ٢٣) ، رقم الحديث (٢٢٩٦) ، وسنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب فضل العمل ، (٢/ ١٢٥٥ - ١٢٥٦) ومسند أحمد (٢/ ٤١٣ - ٤٣٥) و (٣/ ٤٠ ، ١٢٢) ، وفى مواضع أخرى .

(٣) المسائل فى أعمال القلوب والجوارح للمحاسبى (ص ٧٩) .

(٤) الرعاية لحقوق الله للمحاسبى (ص ٥٨) .

هذه مجمل آراء المحاسبي التي تدل على أنه سلك منهج النفي لصفات الأفعال وتابع طريق ابن كلاب فيها ، والتي تبين الى أي حد وصل المحاسبي في نفي هذه الصفات حتى يجزم ويقطع بما يراه ، ويخطئ من يخالفه .

ومن أجل هذا الأصل : هجره الامام أحمد بن حنبل ، وأمر أصحابه بهجره .

لأن السلف يثبتون ما يقوم بذاته تعالى من الصفات والأفعال مطلقا ، والجهمية والمعتزلة وغيرهم ينكرون ذلك مطلقا ، فوافق ابن كلاب السلف والأئمة في اثبات الصفات ، ووافق المعتزلة في نفي الأفعال به تعالى وما يتعلق بمشيئته وقدرته .

ولهذا وغيره تكلم الناس فيه وفيمن تبعه من أصحابه بأن في أقوالهم بقايا من الاعتزال ، وهذه البقايا أصلها هو الاستدلال على حدوث العالم بطريقة الحركات ، فان هذا الأصل هو الذي أوقع المعتزلة في نفي الصفات والأفعال .(١)

والذي وقع للمحاسبي من الامام أحمد وغيره هو بسبب قوله بهذا الأصل ، مع جلالة قدره وكثرة رده على أهل الالحاد والبدع .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " والذي كان أئمة السنة ينكرون على ابن كلاب والأشعري بقايا من التجهم والاعتزال ، مثل اعتقاد صحة طريق الأعراض وتركيب الأجسام ، وانكار اتصاف الله بالأفعال القائمة التي يشاؤها ويختارها ، وأمثال ذلك من المسائل التي اشكلت على من كان أعلم من الأشعري بالسنة والحديث وأقوال السلف والأئمة ، كالحارث المحاسبي وأبي علي الثقفي وأبي بكر بن اسحاق الصبغي .. " .(٢)

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/٩٩) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٧/٩٧) .

ويقول في موضع آخر : " وهذا الأصل هو مما أنكره الامام أحمد على ابن كلاب وأصحابه ، حتى على الحارث المحاسبي مع جلالة قدر الحارث ، وأمر أحمد بهجره وهجر الكلابية ، وقال : احذروا من حارث ، الآفة كلها من حارث ، فمات الحارث وما صلى عليه الا نفر قليل بسبب تحذير الامام أحمد عنه ، مع أن فيه من العلم والدين ما هو أفضل من عامة من وافق ابن كلاب على هذا الأصل " .(١)

فهل رجع المحاسبي عن هذا القول الى قول السلف ؟

قيل عنه : انه تاب منه ، ورجع وأقر بأن الله يتكلم بصوت .

إن نسب الكلاباذى الى الحارث قولا في ذلك يخالف قول ابن كلاب ، ويدل على رجوعه الى قول السلف ، حيث قال : " وقالت طائفة منهم - أى الصوفية - كلام الله حروف وصوت ، وزعموا أنه لا يعرف كلامه الا كذلك ، مع اقرارهم أنه صفة الله تعالى في ذاته ، غير مخلوق ، وهذا قول حارث المحاسبي " .(٢)

وهذا القول يدعم ما ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية عن معمر بن زياد من أن الحارث رجع عن أقواله ، وقد ذكر شيخ الاسلام أن معمر بن زياد ذكر رجوع المحاسبي فيما كتبه عن أخبار شيوخ أهل المعرفة والتصوف ، فقال : " ذكر غير واحد أن الحارث رجع عن ذلك ، كما ذكره معمر بن زياد في أخبار شيوخ أهل المعرفة ".(٣)

وأما أبو العباس القلانسي ، فهو أيضا ينفى قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى لتعلقها بالحوادث ، اذ يذكر السبكي عن القلانسي أنه كان يرى : لا ينبغى أن تكون هذه الصفات قائمة بالله ، والا قامت الحوادث بالله .(٤)

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل (٣/١٠ ٤) .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف (ص ٤٠) ، درء تعارض العقل والنقل (١٤٩/٧) ، مجموعة الرسائل والمسائل (٣/٤١٠) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١٤٨/٧ - ١٤٩) .

(٤) طبقات الشافعية للسبكي (٢/٣٠٠) ، نشأة الفكر الفلسفي للدكتور النشار (ص ٢٧٩) .

والأشعرى أيضا على مذهب ابن كلاب فى هذه المسألة ، اذ انضم الى الكلابية بعد ما رجع عن المعتزلة ، وسلك طريقتهم فى مسائل العقيدة ، فوقع فيما وقع ابن كلاب فيه من الخطأ، وأخذ منه نفى قيام الصفات الاختيارية بذات الرب تعالى ، الا أنه رجع أخيرا الى مذهب السلف ، وذهب الى الانتصار له والدفاع عنه .

وتبع جمهور الأشاعرة ، المتقدمين منهم والمتأخرين ، آراء أبى الحسن الأشعرى الكلابية ، وأخذوا منه هذه العقيدة ، فلم يثبتوا لله تعالى صفات الأفعال ، بل انكروا قيامها بالرب تعالى ، فهذه العقيدة التى تلقوها من الأشعرى فى طوره الثانى من حياته تعرف اليوم بالعقيدة الأشعرية .

وبسبب تبعية الأشاعرة للكلابية فى هذه المسألة وغيرها نرى شيخ الاسلام ابن تيمية يعتبر الأشعرية فرقة واحدة مع الكلابية ، ويسميها " الكلابية " أحيانا ، والكلابية الأشعرية " أحيانا أخرى .

وخلاصة نقول : ان ابن كلاب وأتباعه كالمحاسبى والقلانسى والأشعرى ومن تبعهم وان أصابوا فى اثبات صفات الافعال لله تبارك وتعالى : فقد غلطوا فى قولهم أنها قديمة أزلية لازمة للذات أزلا وأبدا ، وليس شيئ منها يتعلق بمشيئته تعالى واختياره ، لأنهم بذلك لم يثبتوا لله تعالى الصفات الاختيارية وهى صفات الكمال ، مثل كونه تعالى يتكلم بمشيئته ، وكون فعله الاختيارى يقوم بذاته ، وكونه يحب ويرضى عن المؤمنين بعد ايمانهم ، ويغضب ويبغض الكافرين بعد كفرهم ، ومثل كونه يرى أفعال العباد بعد أن يعملوها ، وكونه نادى موسى حين أتى بنداء قام بذاته ، ولم يناده قبل ذلك . يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :

" والقرآن والأحاديث وأقوال السلف والأئمة كلها تخالف هذا وهذا ، وتبين أنه ناداه حين جاء ، وأنه يتكلم بمشيئته فى وقت بكلام معين ، كما قال : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . . .) (١) وقال تعالى : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) (٢) .

والمقصود هنا : أنه على هذا الأصل اذا خلق المخلوقات رآها ، وسمع أصوات عباده ، وكان ذلك بمشيئته وقدرته ، اذ كان خلقه لهم بمشيئته وقدرته " . (٣)

---

(١) سورة الأعراف (١١) .
(٢) سورة آل عمران (٥٩) .
(٣) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية (١/٩٩-١٠٠) ، ابن تيمية السلفى : د / خليل هراس (ص ٩٩) .

شبهة الكلابية فى مسألة حلول الحوادث بذاته تعالى ، والرد عليها :

قبل أن أشرع فى بيان مذهب ابن كلاب وأصحابه فى هذه المسألة وأذكر دليلهم فيها : أود أن أبين معنى الحادث والمتجدد عند المتكلمين ، ليسهل علينا معرفة محل النزاع بين النفاة والمثبتين فى هذه القضية .

فرق النفاة بين الحادث والمتجدد ، وقالوا بامتناع قيام الحادث بذاته تعالى دون المتجدد ، فالحادث: هو الموجود بعد عدم ، والمتجدد : هو مالا وجود له ، وتجدد . (١)

وبعد هذا التعريف الوجيز للفظى الحادث والمتجدد ، نقول : ان منشأ الخلاف ــ كما يقول ابن تيمية ــ بين الطوائف الاسلامية فى قيام الحوادث بذاته تعالى نفيا واثباتا : هو النزاع فى معنى حديث النزول ، وما أشبهه فى الكتاب والسنة ، من الأفعال اللازمة المضافة الى الرب سبحانه ، مثل المجيء والاتيان والاستواء الى السماء وعلى العرش ، ومن الأفعال المتعدية ، مثل الخلق والرزق والاحسان والاثابة والعقاب وغير ذلك .

وقد ذكرنا : أن منهم من ذهب الى أن الله تعالى يقوم به فعل من الأفعال ، فيكون خلق السماوات والأرض فعلا فعله ، غير المخلوق ، ومنهم من ذهب الى أن الله تعالى لا يقوم به فعل من الأفعال ، وأن فعله هو المفعول ، والخلق هو المخلوق .

فمن أثبت هذه الصفات ــ الآنفة الذكر ــ لله تبارك وتعالى قال بقيام الحوادث به سبحانه ، وهذا القول هو المأثور عن السلف ، وهو الذى ذكره علماء السلف وأئمتهم فى كتبهم ، ولم يذكروا فيه نزاعا . (٢)

وفى مقابل السلف اتفق المتكلمون من المعتزلة والكلابية والأشعرية وغيرهم على منع قيام الحوادث بذاته تعالى .

---

(١) المواقف للايجى (ص ٢٧٥) .

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٥٢٨) ، شرح حديث النزول (ص ٤٢ ــ ٤٣) .

والذى ألجأهم الى مثل هذا القول : استدلالهم على وجود الله تعالى بدليل الحدوث ، ومن مقدماته : " أن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث " فطردوا هذا الدليل فى الصفات الاختيارية ، فقالوا : لو اتصف الرب بالصفات الاختيارية — وهى الصفات التى تكون بمشيئة الله وقدرته — لكان محلا للحوادث ، لأن مايكون بمشيئته وقدرته فانه حادث ، والرب تعالى لا تقوم به الحوادث ، وترجموا الصفات الاختيارية بمسألة حلول الحوادث " .(١)

يقول ابن تيمية رحمه الله : " والأصل الذى بنى عليه نفاة الصفات ، وعطلوا ما عطلوا . . هو استدلالهم على حدوث العالم بأن الأجسام محدثة ، واستدلالهم على ذلك بأنها لا تخلو من الحوادث ، ولم تسبقها ، وما لم يخل من الحوادث ولم يسبقها فهو محدث وهذا أصل قول الجهمية الذين أطبق السلف والأئمة على ذمهم ، وأصل قول المتكلمين الذين أطبقوا على ذمهم " .(٢)

اذن : استدلالهم بدليل الحدوث ألجأهم الى نفى قيام الأفعال والصفات الاختيارية بذاته تعالى ، يبين ذلك شيخ الاسم ابن تيمية بقوله : " والتزم طوائف من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم لأجلها نفى صفات الرب مطلقا ، أو نفى بعضها لأن الدال عندهم على حدوث هذه الأشياء هو قيام الصفات بها ، والدليل يجب طرده ، فالتزموا حدوث كل موصوف بصفة قائمة بـه " .(٣)

فمن خلال استدلالهم بهذا الدليل على وجود الله سبحانه التزم المعتزلة باثبات خلق القرآن ، كما أداهم ذلك الى القول بعدم رؤية المؤمنين لله تعالى يوم القيامة ، والى نفى استواء الله عرشه من فوق سماواته ، كما أخبر فى كتابه الكريم ،

---

(١) رسالة فى الصفات الاختيارية لابن تيمية ، جامع الرسائل (٢/٥) .

(٢) الفرقان بين الحق والباطل لابن تيمية ، مجموعة الرسائل الكبرى (١/١٠١) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (١/٤١) .

فناقضوا بذلك محض العقيدة الاسلامية التى ثبتت بنصوص الكتاب والسنة ، ونقلها الصحابة ، ومن بعدهم التابعون وتابعوهم من سلف هذه الأمة ،رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد سبق بيان أن الكلابية لا يقولون بالصفات الاختيارية ، بل ينفون قيام صفة فعل الله تعالى ، يفعل بمقتضاه متى شاء وكيف شاء ، وبنوا ذلك على أنه يستلزم حلول الحوادث بذات الله تعالى ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث، واضطروا لطرد هذا الأصل أن يقولوا فى مسألة كلام الله : انه ليس الا مجرد المعنى وأن الحروف ليست من كلام الله .

فان الكلابية يثبتون ما ورد فى النصوص من هذه الصفات ، الا أنهم يتأولونها بأن يجعلوا مقتضى الصفة مفعولا منفصلا عن الله ، لا يقوم بذاته ،كالخلق فان الله خلق الخلق ، فلم تحل بذاته حوادث ، لأن الخلق هو المخلوق .(١)

وأولوا فى هذا السبيل كل ما خالف مذهبهم .

يقول ابن القيم رحمه الله :" ولما أصلت الكلابية أن الله سبحانه لا يقوم به ما يتعلق بقدرته ومشيئته ، وسموا ذلك حلول الحوادث : أولوا كل ما خالف هذا الأصل ".(٢)

وبنت الكلابية ذلك كله على أن الله لا تحل بذاته الحوادث ، وهم بهذا موافقون للمعتزلة على أصلهم المقرر عندهم ، المبنى على دليل حدوث العالم، فنفت المعتزلة جميع الصفات عن الله عز وجل بناء على ذلك ، أما ابن كلاب وأصحابه فقد خالفوهم ، فأثبتوا الصفات الذاتية اللازمة له تعالى ، ونفوا الصفات الاختيارية .

---

(١) رسالة فى الصفات الاختيارية ، جامع الرسائل (٢ / ٢٤) .

(٢) الصواعق المرسلة : ابن قيم الجوزية (١ / ٢٣١ — ٢٣٢) .

يقول ابن تيمية : " ان المعتزلة كانوا ينكرون قيام صفة أو فعل بذات الله ، ويعبرون عن ذلك بأنه لا تقوم به الأعراض والحوادث ، فوافقهم عبد الله بن سعيد ابن كلاب على نفي ما يتعلق بمشيئته وقدرته ، وخالفهم في نفي الصفات ، ولم يسمها أعراضا ، بل أثبتها قائمة بذات الباري تعالى " .(١)

فان المعتزلة – كما ذكرنا عند بيان مذهبهم في الصفات – جعلوا الصفات كلها أعراضا ،ونحوها ، أما ابن كلاب فلم يسمها أعراضا ، وأثبتها أزلية لله تعالى .

قال ابن تيمية :" أما نفاة الصفات : فانهم ينفون هذا وغيره ، ويقولون : هذا كله أعراض ، والأعراض لا تقوم الا بجسم ، والاجسام محدثة ، فلو قامت به الصفات لكان محدثا ، أما الكلابية فانهم يقولون : نحن نقول تقوم به الصفات ، ولا نقول هي أعراض ، فان العرض لا يبقى زمانين ، وصفات الرب تبارك وتعالى عندنا باقية ، بخلاف الأعراض القائمة بالمخلوقات " .(٢)

وبذلك جمع ابن كلاب بين موافقة أهل السنة باثباته للصفات الذاتية اللازمة له تعالى ، وبين موافقة الجهمية والمعتزلة بنفيه الصفات الاختيارية التي تتعلق بمشيئة الله تعالى وقدرته .(٣)

فأصبح قوله في الصفات مشوبا بقول الجهمية ، وهو مركب من قول أهل السنة وقول الجهمية ، وكذلك مذهب الأشعري في الصفات .(٤)

وذلك لما ناظر ابن كلاب المعتزلة فيما خالفوا فيه السنة من مسائل الصفات والقدر وغير ذلك : بنى كثيرا من الرد عليهم على أصول فاسدة ، اما أصول وافقهم عليها مما أحدثه أولئك ، كموافقة من وافقهم على دليل الأعراض والتركيب ونحوها ، واما أصول عارضهم بها ، فقابل الباطل بالباطل .(٥)

---

(١) منهاج السنة (١/٢٩٩) ،طبعة مكتبة العروبة ،درء تعارض (٢/١٢) .

(٢) مجموع الفتاوى (٥/٥٣٦) ، شرح حديث النزول (ص ١٥٨) .

(٣) درء تعارض (٧/١٠١) ، الفتاوى (٥/٤٦٦) .

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/٣٠٨) .

(٥) درء تعارض العقل والنقل (٧/٢٩٠ – ٢٩١) .

بل انه لما رد على الجهمية : لم يهتد لفساد أصل الكلام المحدث الذى ابتدعه هؤلاء فى دين الاسلام، بل وافقهم عليه ، وأحدث ما أحدثه لما اضطره الى ذلك من دخول أصل كلام الجهمية فى آرائه (١) .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " فنازع المعتزلة فى أن الصفات لا تقوم الا بمحدث ، وسلم لهم : أن الأفعال ونحوها من الامور الاختيارية لا تقوم الا بمحدث وكذلك فعل الاشعرى و أتباعه ، نازعوهم فى أن الصفات لا تقوم الا بجسم ، ووافقوهم على أن الأفعال لا تقوم الا بجسم " (٢) .

وفى الحقيقة : أن الذين قالوا بنفى صفات الرب وأفعاله الاختيارية ليس معهم دليل على هذا النفى ، لا من الكتاب ولا من السنة ، بل أدلة القرآن والسنة ، والأدلة العقلية جميعا مع جانب الاثبات .

فالشبهة الوحيدة التى قادت النفاة ومنهم الكلابية الى سلوك منهج النفى والانكار هى : أنه لو اتصف الرب بصفات الأفعال الاختيارية وهى حادثة لقامت به الحوادث لم يخل منها ، لأن القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ، وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث (٣) .

هذه هى الشبهة الوحيدة التى حملت ابن كلاب ومن وافقه على القول بنفى قيام الأفعال بالله تعالى ، وهى عمدتهم فى هذا الأصل .

يقول ابن تيمية : " الكلابية ومن اتبعهم ينفون صفات أفعاله تعالى ، ويقولون لو قامت به لكان محلا للحوادث ، والحادث ان أوجب له كمالا فقد عدمه قبله ، وهو نقص ، وان لم يوجب له كمالا لم يجز وصفه به " (٤) .

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٥٥٦ — ٥٥٧) ، شرح حديث النزول (ص ١٧٢) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٥/٢٤٥ — ٢٤٦) .

(٣) مجموع الفتاوى (٥/٥٣٧) ، شرح حديث النزول (ص ١٥٨) ، شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٧٠) ، غاية المرام للآمدى (ص ١٨٧) .

(٤) مجموعة الرسائل والمسائل (٤/١٩٤) .

وقد علق الدكتور النشار على هذا النص بقوله : " ونستخلص من هذا النص : أن ابن كلاب يثبت صفات الذات ، وينكر صفات الفعل ، ذلك لأن صفات الفعل انما تتصل بالحوادث ، فلو كانت قائمة به لحدثت الحوادث فى ذات الله ، والله منزه عن الحوادث ، فكل ما اتصل اذن بالأوامر والنواهى فليس قديما ، لأنها تستلزم — فى رأى ابن كلاب — وجود المأمورين والمنهيين ". (١)

غير أن هذا الكلام الذى ذكره النفاة فى نفى حلول الحوادث بالله لا دليل لهم فيه على هذه المسألة ، فهو كلام مجمل ، يشتمل على حق وباطل .

يقول شارح الطحاوية : " وحلول الحوادث بالرب تعالى ، المنفى فى علم الكلام المذموم ، لم يرد نفيه ولا اثباته فى كتاب ولا سنة ، وفيه اجمال : فان أريد بالنفى أنه سبحانه لا يحل فى ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة ، أو لا يحصل له وصف متجدد لم يكن ، فهذا نفى صحيح ، وان أريد به نفى الصفات الاختيارية من انه لا يفعل ما يريد ، ولا يتكلم بما شاء اذا شاء ، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والاتيان ، كما يليق بجلاله وعظمته ، فهذا نفى باطل "، وهو ما قصده النفاة من معتزلة وجهمية وكلابية وأشعرية وسالمية وغيرهم".

ويقول : " وأهل الكلام المذموم يطلقون نفى حلول الحوادث ، فيسلم السنى للمتكلم ذلك على ظن أنه نفى عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله ، فاذا سلم له هذا النفى ألزمه نفى الصفات الاختيارية ، وصفات الفعل ، وهو غير لازم له ، وانما أتى السنى من تسليم هذا النفى المجمل ". (٢)

هذا وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية : أن القول بحلول الحوادث بذات الله تعالى بمعنى أنه يفعل ما يريد ، ويتكلم بما شاء متى شاء ، ويخلق ما يشاء وكيف ومتى يشاء ،

---

(١) نشأة الفكر الفلسفى : د / النشار (١/٢٧٣) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية : لابن أبى العز (ص ١٢٨ — ١٢٩) .

دون أن يحل بذاته شيء من مخلوقاته المحدثة هو مذهب أكثر أهل الحديث ، بل قول أئمة الحديث ، وهو الذى نقلوه عن سلف الأمة وأئمتها وكثير من الفقهاء والصوفية وفيهم من الطوائف الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية من لا يحصى عدده الا الله[1] .

وغاية ما ينتهى اليه علماء السلف فى هذا الباب : اثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الصفات ، دون ادخالها تحت هذه المفاهيم والمعانى التى يتجادل حولها علماء الكلام ، لأن هذه المفاهيم لم ترد وصفا لصفات الله تعالى ، لا فى كتاب ولا فى سنة ، ولم يرد الجدال حولها عند الصحابة بمعانيها التى أثبتها المتكلمون ، ولا بغيره من المعانى .

واستدلت الكلابية على نفى قيام الحوادث بالله تعالى بقولهم أيضا : " ولأن كونه قابلا لتلك الصفات الاختيارية : فان كانت من لوازم ذاته كان قابلا لها فى الأزل ، فيلزم وجودها فى الأزل ، والحوادث لا تكون موجودة فى الأزل ، لأنه يلزم من ذلك وجود حوادث لا أول لها ، وهو محال عندهم "[2] .

وقالوا : " وبذلك استدللنا على حدوث الأجسام ، وبه عرفنا حدوث العالم ، وبذلك أثبتنا وجود الصانع وصدق رسله ، فلو قدحنا فى ذلك لزم القدح فى أصول الايمان والتوحيد "[3] .

وقد أجابهم ابن تيمية عن ذلك من ثلاثة وجوه :

أحدها : أن استدلالكم بقيام الأفعال على حدوثه هو من جنس استدلال المعتزلة بقيام الصفات به على حدوثه ، فالمعتزلة قالوا ان الصفات أعراض ، والأعراض لا تقوم الا بجسم ، ففرقتم أنتم أيها النافون للأفعال الاختيارية بين الصفات والأعراض بأن الصفات هى اللازمة بخلاف الأعراض ، وهو فرق صورى يرجع فى الحقيقة الى

---

(١) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/٣٠٣ - ٣٠٤) .

(٢) رسالة فى الصفات الاختيارية ، جامع الرسائل (٢/٧) .

(٣) نفس المصدر، (٢/٨) .

الاصطلاح ، فان جاز أن تقوم به الصفات التى هى أعراض فى غيره ولا يكون جسما محدثا : جاز أن تقوم به الأفعال التى هى حركات فى غيره ، ولا يكون جسما محدثا ، وهذا الزام .

الثانى : نقول لهم : لا نسلم أن القابل للشيئ لا يخلو عنه وعن ضده ، وقد اعترف بفساد هذا الأصل الرازى والآمدى ، وعليه بنى الأشعرى وأصحابه كلامهم فى مسألة امتناع قيام الحوادث به ومسألة القرآن وغيرها من المسائل .

الثالث : نقول لهم : هب أنه لا يخلو عنه وعن ضده ، وأن ذلك يستلزم تعاقب الحوادث ، لكن لا نسلم أن ذلك يستلزم حدوث ما قام به .(١)

والذى عليه السلف وأئمة أهل السنة والجماعة القول بقيام صفات الأفعال الاختيارية بذاته تعالى .

---

(١) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٧٠ — ٧١) .

المبحث الثالث

مذهب السلف في صفات الأفعال الاختيارية وقيامها بذاته تعالى

بعد أن عرفنا مذهب الكلابية في أفعال الله تعالى الاختيارية المتعلقة بمشيئة الله تعالى وقدرته ، يجوز بنا أن نعرف مذهب السلف رحمهم الله بالتفصيل في هذه المسألة .

ذهب السلف – كما علمنا – ومن تبعهم من أئمة الدين الى اثبات قيام أفعاله تعالى ، كما أثبتوا الصفات اللازمة بذاته تعالى فانه تعالى لا يوصف بشيئ لا يقوم به سبحانه ، منزه عن مشابهة المخلوقين ، لأن كل ما وصف به تعالى من أفعاله الاختيارية فهو قائم به . (١)

فالصفات الالهية عندهم : منها ما هو لازم للذات أزلا وأبدا كالحياة ، ومنها ما هو قديم النوع ، حادث الآحاد ، بمعنى أن الصفة قديمة ، ولكن تحدث في ذاته تعالى آحادها ، (٢) وذلك مثل العلم والسمع والبصر والكلام ... الخ .

وأئمة السنة والحديث على اثبات النوعين منها .

أما بالنسبة لأدلتهم السمعية والعقلية :

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " ولا ريب أن الطرق الدالة على الاثبات والنفي : اما السمع، واما العقل ، أما السمع : فليس مع النفاة منه شيئ ، بل القرآن والأحاديث هي من جانب الاثبات " . (٣)

وقد سلك علماء السلف ، المثبتون لقيام الأفعال الاختيارية بذاته تعالى طريقي النقل والعقل ، واستدلوا من القرآن بآيات كثيرة ، منها :

---

(١) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٦٣) ، منهاج السنة (١/ ٢٢٣) ، طبعة مكتبة العروبة .

(٢) منهاج السنة (٢/ ٢٩٦) ، طبعة مكتبة العروبة .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١٢١) ، مجموع الفتاوى (٥/ ٦١) .

قوله تعالى : (انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) .(١)

وقوله تعالى : (ويوم يناديهم ،فيقول ماذا أجبتم المرسلين) .(٢)

وقوله تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .(٣)

وقوله تعالى : (خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ،ثم استوى على العرش) .(٤)

وقوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفا صفا) .(٥)

وقوله تعالى : (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده) .(٦)

فدلت هذه الآيات على اتصاف الله تعالى بالأفعال الاختيارية .

وأمثال ذلك مما ورد فى القرآن الكريم كثير جدا ، بل يدخل فى ذلك عامة ما أخبر الله به من أفعاله ، لاسيما المرتبة ، كقوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ،(٧) وقوله عز وجل (فسنيسره لليسرى) ،(٨) ونحو ذلك .(٩)

كما استدلوا بأحاديث كثيرة على قيام الأفعال الاختيارية بالله تعالى منها :

قوله عليه الصلاة والسلام فيما يروى عن ربه تعالى : " ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ... " ،(١٠) الحديث .

---

(١) سورة يس (٨٢) .

(٢) سورة القصص (٦٥) .

(٣) سورة التوبة (١٠٥) .

(٤) سورة الأعراف (٥٤) .

(٥) سورة الفجر (٢٢) .

(٦) سورة الأنبياء (١٠٤) .

(٧) سورة الضحى (٥) .

(٨) سورة الليل (٧) .

(٩) درء تعارض العقل والنقل (٢/١٢١) .

(١٠) تقدم تخريجه فى صفحة (٢٦٢) من هذا البحث .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ..؟ "(١) ، وهذا الحديث فيه دلالة واضحة على قيام الكلام به تعالى ، وأنه يتكلم متى شاء وكيف شاء.

وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الطويل : " ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله "(٢) ، فقد قال كل من الأنبياء ان ربي قد غضب اليوم ، وهو بيان أن الغضب يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن في ذلك اليوم وفي هذا الحديث دلالة واضحة على جواز قيام آحاد أفعاله بذاته تعالى ، وبالتالي اثبات صفات أفعاله الاختيارية له عز وجل .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد الا وسيكلمه الله يوم القيامة ، ليس بين الله وبينه ترجمان "(٣) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : " لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يسقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة "(٤) .

---

(١) انظر : الموطأ للامام مالك ، كتاب الاستسقاء ، باب الاستمطار بالنجوم (١/١٩٢) ، وصحيح البخاري ، كتاب الأذان ، باب يستقبل الامام الناس اذا سلم (١/٢٠٥) ، وصحيح مسلم ، كتاب الايمان ، باب بيان كفر من قال أمطرنا بالنوء (١/٨٣ - ٨٤) ، وسنن أبي داود ، كتاب الطب ، باب في النجوم رقم الحديث (٣٩٠٦) .

(٢) هذه العبارة جزء من حديث الشفاعة الطويل ، عن ابي هريرة رضي الله عنه ، صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب قول الله تعالى (انا أرسلنا نوحا الى قومه ..) ، (٤/١٠٥ - ١٠٦) ، وصحيح مسلم ، كتاب الايمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١/١٨٥) ، وسنن الترمذي ، كتاب صفة القيامة ، باب ما جاء في الشفاعة ، رقم الحديث (٢٥٥١) ، (٤/٤٣) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب ، (٧/١٩٨) ، وصحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ، رقم الحديث (١٠١٦) ، وسنن ابن ماجة ، المقدمة ، باب فيما انكرت الجهمية ، رقم الحديث (١٨٥) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه ، (١/٦٦) .

(٤) البخاري ، كتاب الدعوات ، باب التوبة (٧/١٤٦) ، ومسلم ، كتاب التوبة ، باب في الحث على التوبة والفرح بها ، رقم الحديث (٢٦٧٥) ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (٤/٢١٠٢) .

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، يتعذر استقصاؤها ، ولكن نبهنا ببعضها على نوعه .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : " ان أهل الاثبات بينوا أن العقل مطابق موافق لما أخبرت به النصوص ودلت عليه ، ولا معارض له ، لكن المقصود أن نبين أن القرآن والسنة فيهما من الدلالة على هذا الأصل ما لا يكاد يحصر " (١) .

فدلت هذه الآيات والأحاديث على اتصاف البارى سبحانه وتعالى بالأفعال الاختيارية ، من الاستواء على العرش ، والمجيء ، والطى ، والخلق ، وأنواع كلامه وتكليمه لملائكته وأنبيائه وغيرهم من عباده ، ورضاه وسخطه ، وحبه وبغضه ، وفرحه وضحكه ، ونحو ذلك .

وغير هذه من الآيات أو الأحاديث كثير جدا ، مما هو مشتمل على الصفات الدالة على أن الله تبارك وتعالى يفعل بقدرته ومشيئته .

لأن الفعل لا بد له من فاعل ، سواء كان الفعل متعديا الى مفعول أم لم يكن ، والفاعل لا بد له من فعل ، سواء كان فعله مقتصرا عليه أم متعديا الى غيره ، ففى جميع الحالات يقوم الفعل بالفاعل .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية فى ذلك : " فان الله تعالى وصف نفسه بالأفعال اللازمة كالاستواء ، وبالأفعال المتعدية كالخلق ، والفعل المتعدى مستلزم للفعل اللازم ، فان الفعل لا بد له من فاعل ، سواء كان متعديا الى مفعول أو لم يكن ، والفاعل لا بد له من فعل ، سواء كان فعله مقتصرا عليه أو متعديا الى غيره ، والفعل المتعدى الى غيره لا يتعدى حتى يقوم بفاعله ، اذ كان لا بد له من الفاعل ..

فقوله (هو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش) (٢)

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/١٢٣) .

(٢) سورة الحديد (٤) .

يضمن فعلين ، أولهما متعد الى المفعول به ، والثانى مقتصر لا يتعدى ، فاذا كان الثانى وهو قوله (ثم استوى) فعلا متعلقا بالفاعل فقوله (خلق) كذلك بلا نزاع بين أهل العربية ، ولو قال قائل : خلق لم يتعلق بالفاعل ، بل نصب المفعول به ابتداء : لكان جاهلا ، بل فى (خلق) ضمير يعود الى الفاعل ،كما فى استوى (١) .

وأما أدلة علماء السلف العقلية : فانها من جانبهم أيضا دون جانب النفاة ، وذلك أنهم قالوا : ان قدرته على ما تقوم به من الكلام والفعل صفة كمال ومن المعلوم أن من قدر على أن يفعل ويتكلم أكمل ممن لا يقدر على ذلك ، كما أن قدرته على ابداع الأشياء صفة كمال ، والقادر على الخلق أكمل ممن لا يقدر عليه ، وقالوا : الحى لا يخلو عن هذا ، والحياة هى المصححة لسائر الصفات ، فاذا قدر حى لا يقدر على أن يفعل بنفسه ويتكلم بنفسه كان عاجزا بمنزلة المرض والأخرس (٢) .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية فى معرض استدلاله على قيام أفعاله تعالى الاختيارية بذاته عز وجل :" فان المثبتين يقولون : كونه قادرا على الفعل بنفسه صفة كمال ، كما أن قدرته على المفعول المنفصل صفة كمال ، فانا اذا عرضنا على صريح العقل من يقدر على الفعل القائم به والمنفصل عنه ومن لا يقدر على أحدهما علم أن الأول اكمل ، كما اذا عرضنا عليه من يعلم نفسه وغيره ومن لا يعلم الا أحدهما ، وأمثال ذلك " (٣) .

فشيخ الاسلام ابن تيمية بين أن الكمال كامن فى اثبات قيام الأفعال بذات الله تعالى ، وقدرته على الفعل القائم به ، والمنفصل عنه ، والقدرة على الأفعال الدائمة والمتعاقبة ، وفعلها دائمة متعاقبة مع حدوثها بخلاف من لا يفعل فعلا حادثا أصلا ، فانه ليس فى هذا كمال ، لأن فيه نفى للقدرة والفعل .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/٣،٥) .

(٢) شرح العقيدة الاصفهانية لابن تيمية (ص ٦٩ — ٧٠) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل (٢/٢٢٠) ، ومجموع الفتاوى (٤/٦٠ — ٦١) ، بيان تلبيس الجهمية (١/١٤٥) .

وهكذا ذهب علماء السلف الى أن كل ما وصف به تعالى من أفعاله الاختيارية فهو قائم به ، لأن ذلك ما تقتضيه اللغة ، وكذلك العقل .

فاللغة ليس فيها أن من أوجد شيئا فى غيره كان متصفا بذلك الشيء ، فلا يقال لمن أوجد حركة فى جسم من الأجسام أنه متحرك بهذه الحركة ، بل الجسم الذى قامت به الحركة هو المتحرك ، لأنه لا يشتق لمحل اسم من صفة لم تقم به .

كما أن العقل يقتضى أن الصفة اذا قامت بمحل عاد حكمها الى ذلك المحل ، ولا يتأتى أن يكون حكم هذه الصفة عائدا على غير ذلك المحل ، فالحياة والعلم والقدرة اذا قامت بمحل كان ذلك المحل حيا عالما قادرا ، ولا يكون الحى حيا بحياة تقوم بغيره ، ولا العالم عالما بعلم يقوم بغيره ، ولا القادر قادرا بقدرة تقوم بغيره .

وكذلك الأمر فى الأفعال ، فلا يكون باتفاق العقلاء متحركا بحركة تقوم بغيره ، بل المتحرك هو من قامت به الحركة ، وطرد هذا أنه لا يعقل فاعل الا من يقوم به الفعل .(١)

ومن هنا رأى شيخ الاسلام ابن تيمية أن من قال الصفات تنقسم الى صفات ذاتية وفعلية ، ولم يجعل الأفعال تقوم به فكلامه فيه تلبيس ، فانه سبحانه وتعالى لا يوصف بشيء لا يقوم به وان سلم أنه يتصف بما لا يقوم به ، فهذا هو أصل الجهمية الذين يصفونه بمخلوقاته ويقولون انه متكلم ومريد وراض وغضبان وراحم بمخلوقات يخلقها ، منفصلة عنه ، لا بأمور تقوم بذاته .(٢)

اذن : اثبات قيام جميع صفاته وأفعاله الاختيارية بذاته تعالى ، هو المذهب الصحيح والرأى الراجح ، وهو الذى يوافق لدلالة النقل والعقل ، وهو ما عليه سلف الأمة وأئمتها .

---

(١) منهاج السنة (١/٢٢٣) ، طبعة دار الكتب العلمية ، فى العقيدة الاسلامية : د / محمود خفاجى (ص ٢٥٠) .

(٢) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ٦٣) .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية : " والقول بحلول الحوادث بالله : هو مذهب أكثر أهل الحديث ، بل قول أئمة أهل الحديث ، وهو الذى نقلوه عن سلف الأمة وأئمتها وكثير من الفقهاء والصوفية أو أكثرهم ، وفيهم من الطوائف الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة من لا يحصى عدده الا الله " .(١)

بل يرى ابن تيمية أن ذلك ضرورة لا مناص منها ، لفهم كثير من النصوص التى تدل على حدوث آحاد تلك الصفات ، واستدل فى ذلك بقول الامام أحمد وغيره : لم يزل الله متكلما اذا شاء ، فانه اذا كان كلامه وهو صفة قائمة به متعلقا بمشيئته واختياره دل ذلك على جواز قيام الحوادث بذاته ، لأن ما يتعلق بالمشيئة والاختيار لا يكون الا حادثا .(٢)

ولا شك أن قول السلف بقدم نوع الصفات مع حدوث آحادها : يستلزم لجواز القول بتسلسل الحوادث ، فقد جوزه علماء السلف فى الماضى والمستقبل ، لأجل أن نثبت كل صفات الكمال لله تعالى أزلا وأبدا ، وهو رأى علماء الأمة وأئمتها ، لأنهم لا يقولون بقدم الصفات مطلقا ، كما لا يقولون بحدوثها مطلقا ، بل انها مترددة بين القدم والحدوث ، فنوعها هو القديم ، وآحادها هى الحادثة ، فالرب تعالى لم يزل متكلما اذا شاء وكيف شاء ومتى شاء ، والفعل من لوازم الحياة ، فالرب لم يزل حيا فعالا لما يريد ، كما وصف بذلك نفسه ، حيث قال : ﴿ ذو العرش المجيد ، فعال لما يريد ﴾(٣) ، كما ذكر ذلك ابن تيمية عن أئمة الحديث والسنة وغيرهم .(٤)

وتسلسل الحوادث هو عبارة عن تسلسل الآثار كوجود حادث بعد حادث ، وهو نوعان : تسلسل فى الماضى ، وتسلسل فى المستقبل .

---

(١) بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية (١/٣٠٣ — ٣٠٤) .
(٢) ابن تيمية السلفى للهراس (ص ١٢٥) .
(٣) سورة البروج (١٥ — ١٦) .
(٤) منهاج السنة (١/١٢١ — ١٢٢) ، طبعة دار الكتب العلمية .

وقد اختلف الناس فى التسلسل بنوعية ، على ثلاثة مذاهب ، ولكل فريق أدلته على ذلك :

١ ـ المذهب الأول : منعه فى جانب الماضى والمستقبل ، وهو قول جهم ابن صفوان وأبى الهزيل .

٢ ـ المذهب الثانى : منعه فى جانب الماضى فقط ، دون المستقبل ، وهو قول كثير من المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة ومن وافقهم ، ففرقوا بين التسلسل فى الماضى والمستقبل ، فمنعوا الأول ، دون الثانى ، واستدلوا على بطلان تسلسل الحوادث فى جانب الماضى بعدة أدلة ، أهمها برهان التطبيق ،(١) وقد أبطله شيخ الاسلام ابن تيمية فى أكثر من موضع من كتبه .(٢)

٣ ـ والمذهب الثالث : جوازه فى الماضى والمستقبل ، وهو قول أئمة أهل الحديث والفلاسفة وغيرهم ، لأن التسلسل فى مفعولاته تعالى فى الماضى كالتسلسل فى جانب المستقبل ، دون فرق بينهما عند السلف .

ذكر هذه الآراء الثلاثة شيخ الاسلام ابن تيمية ، وارتضى بالمذهب الثالث الذى يؤدى الى اثبات جميع صفات الكمال وأفعاله الاختيارية لله تعالى .(٣)

---

(١) وبرهان التطبيق عند المتكلمين يتلخص فى : أنهم يفرضون الحوادث من زمن الهجرة مثلا ، الى ما لا يتناهى ، والحوادث من زمن الطوفان الى مالا نهاية له أيضا ، ثم يوازنون بين الجملتين ، فيقولون : ان تساوتا لزم مساواة الزائد للناقص ، وهذا ممتنع ، وان تفاضلتا لزم أن يكون فيما لا يتناهى تفاضل ، وهو محال .
أنظر : شرح العقائد النسفية (ص ٢٨) ، ومنهاج السنة (١/ ١٢٠) ، طبعة دار الكتب العلمية ، وابن تيمية السلفى للهراس (ص ١٢٧) .

(٢) أنظر مثلا : منهاج السنة لابن تيمية (١/ ١٢٠ ـ ١٢٣) ، طبعة دار الكتب العلمية .

(٣) نفس المصدر (١/ ١٢٢) .

ان القول بجواز تسلسل الحوادث فى جانب الماضى والمستقبل ودوام الحوادث أزلا وأبدا هو القول الصحيح ، وهو الذى يتفق مع النصوص الشرعية التى تثبت له تعالى كل كمال ، وتنزهه عن كل نقص ، وتثبت له ما أثبته هو جل وعلا لنفسه ، وما أثبته رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد اتضح لنا من خلال هذا البحث : أن الأصل الذى أوقع النفاة فى نفى الصفات الاختيارية انما هو سلوكهم فى الاستدلال على وجود الصانع بما يسمى طريقة حدوث الأجسام .

وقد ابتدعت هذه الطريقة بعد المائة الأولى ، وبعد انقراض عصر أكابر التابعين ، بل وأوساطهم (١) .

ومن هذه الطريقة نشأ القول بأن ظواهر النصوص تؤدى الى التشبيه والتجسيم ، كما نشأ عنها تقديم العقل على النقل عند التعارض فى باب العقائد .

والسلف ومن تبعهم تجنبوا استعمال هذه الطريقة فى اثبات الصانع وفى التنزيه ، بل تمسكوا بالقرآن الكريم فى اثبات ذلك .

---

(١) منهاج السنة (١/ ٢٢٠) ، طبعة مكتبة العروبة .